

عبد الخالق الركابي

الجمهورية العراقية  
وزارة التعليم

نافذة بسعة علم

رواية





عبد الخالق الركابي

# نافذة بسعة الحلم

رواية





الصباح

---

لم يكن هزيم الرعد ، ولا صوت ارتطام قطرات المطر بزجاج  
النافذة ، الممتدة على يمينه ، هما اللذان أيقظاه من نومه المحموم •  
فها هو غبش هلامي آخر يندلق في الخارج والمطرينث باستمرار ،  
وكأنه صدى انهيار عالم قديم ، بدأ بالتحلل والذوبان ، ليتلاشى  
في كيان سديمي غريب ولينثق من فوضاه المربكة - من ذلك  
الرحم الطيني البليل - عالم جديد أكثر وضوحا واشراقا • لم  
يستيقظ بسبب ذلك ، فاذناه اللتان سبق وان الفتا قصف المدافع  
ودوي القنابل المتفجرة بين لحظة وأخرى وهدير الطائرات المارقة

على ارتفاع منخفض مجتازة حاجز الصوت ، ألفتا الآن قعقة  
الرعد وصوت انهمار المطر المتساقط باستمرار منذ ثلاثة أيام .  
انما هي الخطى الثقيلة والبطيئة ، المترددة - مثلما تتردد صباح كل  
يوم - فوق السقف ، هي التي أيقظته من نومه ، هكذا هو ، ومنذ  
خمس أشهر مضت على تسريحه من خدمة الأختياط ، حالما تبدأ  
الخطوات الثقيلة ترددها البطيء فوق السقف ، يفاجيء نفسه  
وقد استيقظ من نومه ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما وهما  
تتقلان عبر جذوع السقف المرتفع .

اتلق البرق على يمينه فأنكشفت ، للحظة خاطفة ، محتويات  
الغرفة القليلة ، الا أن عينيه انخطفتا على توهج زجاجة محاطة  
باطار فضي ، معلقة على الجدار المواجه لسريره ، ولكن العتمة  
سرعان ما أطبقت على كل شيء . وقعقع الرعد بطيئاً وخافتا في  
البداية ، لينفجر بعد ذلك بدوي هائل وكأنه صوت انهيار جبل .

بطء يكاد أن يكون مرادفاً للسكون المستفز ، كانت  
الخطوات تتقل فوق السقف المتكون من طبقة طين تصلبت بسرور  
السنين ، تسندها من الأسفل طبقة رقيقة من أعواد القصب ،  
تستد بدورها على جذوع مستقيمة تمتد عبر سقف الغرفة ، وكان  
السقف يئن تحت وقع الخطوات ، وغبار خفيف يتسرب من بين  
القصب القديم حيثما تضرب الخطى ، مما حتم عليه أن يفيض  
عينيه ، ولكنه استطاع ان يشم رائحة الغبار القديم المتساقط .

« جلى !... » ومضت الكلمة في ذهنه ، وبعينه القديمتين ،  
عينيه اللتين تألفتا بضوء الفرع الغامر وهو يسمع نبأ اندلاع

القتال في تلك الظهيرة التشرينية ، قبل ستة اشهر ، بينك العينين  
أبصر عري جسدها الذي انخطف شعاع الشمس على بياضه  
الناصع وفي عينيها المشدوهتين وعبر ملامح وجهها المندى بالعرق  
وعلى العشب النامي ، الذي انسحق تحت ثقل جسديهما .. وبعيدا  
.. بعيدا في نقطة كادت أن تتسرب خارج حدود الوعي ، انبجست ،  
على استحياء ، عينا « مصطفى غريب » البريئتان لدرجة لاتطاق ،  
وعادت حشرجته المصحوبة بدفقة دم انفجرت عبر شفثيه ، وهو  
يحاول أن يعتصر الكلمات ليتمتم بصوت محتضر : « انني ..  
أموت .. يا بني ! » عادت لترن في رأسه !

سمع صرير خشب سريرها في الأعلى ففكر :

- « أنهت دورتها الصباحية عبر غرفتها وعادت لتضطجع ! »  
أدار بوجهه يمينا ، وعبر مستطيل النافذة ، لمح غيمة  
رمادية داكنة تتحرك ببطء ، تاركة وراءها ندف سحب بيضاء عالية ،  
وكان المطر يتساقط باستمرار وقمم اشجار التوت والكالبتوس  
والعنّاب قد تهدلت بعدما تشبعت بالماء .

بدأت السحب المظبية تتخلخل متحركة الى الغرب باتجاه  
النافذة ، فبدت تلك السحب وكأنها زبد سيل كوني هائل يكاد  
أن يشبب باتجاه هوة نافذته المؤطرة من الداخل بعتمة الغيش  
الكابي ، ولكنه أيقن بأنه سيتمتع بنهار رائع احتجبت شمس طوال  
الايام الثلاثة الماضية ، وذلك أقصى مناه ، حيث سيصبح بإمكانهما  
القيام بنزهة عبر الطريق الممتد غربا باتجاه غابات النخيل البعيدة .  
واتبته الى السقف .. لا لوقع خطي هذه المرة ، بل لهذا الصمت



المخيم الذي لا يعكره سوى الايقاع المكتوم لقطرات المطر  
 المتساقطة خلف ضلفتي النافذة المواريتين .. انها مضطجعة على  
 سريرها العريض ذي الكرات النحاسية الاربع في الاعلى ، وعيناها  
 الواسعتان بارزتان الى الامام من أثر الحمل ، وثدياها يكادان أن  
 يتدلقا من خلال فتحة الثوب العريضة .. انها لا تغلق عينيها ،  
 تستظل تنظر الى سقف حجرتها ، كما ينظر هو الآن ، وان غفت تظل  
 أجفانها مشقوقة وعيناها تومضان في الداخل . قبل خمسة أشهر ،  
 عندما كانت تضطجع معه في غرفته لتكون قربه منه عند الضرورة  
 بعدما تورم فخذه والنهت جروحهما ، كان يلوح - على ضوء  
 عود ثقاب كان يشعله لاذكاء سيكارة بعد امتناع النوم عليه -  
 يوهج عينيها من خلال أجفانها المشقوقة ، فكان يظن بأنها لم تتم  
 بعد ، ولكنه سرعان ما كان يتذكر بأن تلك هي طريقة نومها ! ..  
 نعم ! .. كان يتذكر طفولتهم البعيدة وليالي الشتاء الباردة عندما  
 كانوا يضطجعون تحت أغطية صوفية ثقيلة بروائح زئخة تكاد أن  
 تكتم انفاسهم المبتقة من أنوفهم المحمرة ، ويتحملون تلك الرائحة  
 المخدرة التي كانت بالتأكيد أفضل من التجمد برداً في حجرة الكوخ  
 الوحيدة في تلك القرية المنتصبة على حدة أكمة توسطت حقولا  
 شاسعة امتدت على مدى البصر ، والتي هاجرها الفلاحون فتهدمت  
 الاكواخ الخاوية عدا كوخ « زهرة » المعتوهة التي ما شوهدت  
 الا ويدها ملطخة بطين أسود متعفن تطلي به جدران كوئها ..  
 لقد رفضت « زهرة » أن تستظل بسقف غير ذلك السقف الذي  
 ترددت صرخة ولادتها تحته والذي لا بد أن تخمد تحته صرخة

نهايتها !! رفضت أن تهاجر رغم مسدس « الملاك » المتدلي من  
حزامه العريض ، ورغم أصابع قبضته الغليظة والمثقلة بخواتم  
ذهبية وفضية ، تلك القبضة التي لم يكن أسهل من أن ترتفع  
لتسحق على فك فلاح مشاكس ، كما ترتفع لتفش دبابة ...

كان يتذكر تلك الليالي البعيدة ، ويتذكر تينك العينين  
المتلامعتين خلف أهداب سوداء معقوفة الاطراف ، فيفكر بأن سبب  
عدم أنطباق أجفانها سعة عينها ! .. نعم انه لا ينكر بأن لها  
عينين واسعتين كاتتا تتوهجان بنظرة طفولية مأكرة وهم متعلقون  
حول النار المتأججة في الموقد يستمعون الى احدى حكايات الأب  
الكثيرة .. وقد تتحدث تلك الحكاية عن ذلك « الأمير » الذي  
عشق ابنة أحد اجرائه الفقراء ، والتي لم تملك ازاء ثرائه الفاحش  
سوى عينين واسعتين امتلكتا قلبه ... ومن خلال النار المتراقصة  
بينهما .. وهما يستمعان الى تلك الحكاية ، كان يلمح عينها  
المتوهجتين ولهب النار ينصب فيهما ، فكان يتجاوز وجهها  
الطفولي الصغير ، ويمد بنظراته عبر الكوة المفتوحة في الجدار ،  
ناظرا الى سماء الشتاء المعتمة ، متخيلا ذلك « الأمير » على هيئة  
فارس يعتلي صهوة حصان أسود كالليل ، مردفا ، خلقه ، حبيبته  
التي اسمها ... اسمها ؟! ولكنها في الحكاية كانت بدون اسم !  
فما المانع أن يكون اسمها « جميلة » كاسم ابنة عمه ؟! ثم ما المانع  
من أن تكون ابنة عمه « جميلة » تضارع حسناء الحكاية جمالا  
وحسنا ؟! .. ما المانع ؟! وكان يعود بنظراته الشاردة عبر الكوة ليجد  
« جميلة » قابعة هناك خلف اللهب الأصفر المتراقص وعيناها



تترصدان وجهه الداهل .. ترى هل كانت تفكر بذلك « الأمير » ؟ !  
.. ولكنه في تلك الليلة البعيدة ، التي تفصلها عنه الآن سنوات  
عديدة لا تكفي اصابع اليدين لعدّها ، استغرب ، بل واستنكر ،  
في سرّه ، أن ينظر إليها بتلك الطريقة الغامضة .. انها « جميلة »  
ابنة عمه وصديقة طفولته ومساعدته التي لا تضارع عندما يجد  
الجد ويبدأ الرعي في الربيع .. تلك المهنة القاسية والمتعبة في الوقت  
نفسه .. فما الذي تغير ؟ ولكن لمّ هذا التساؤل ؟ وهل ينسى  
ذلك اليوم الذي تغيرت فيه نظراتهما لبعضهما ؟

... في ذلك اليوم ! انفردت الذئاب ببقرتهم السمراء ذات  
الرقبة المتهذلة وكادت أن تجهز عليها لولا كلباهما الرائعان « بوجي »  
والكلب الآخر المكنى بـ « الأخرس » ، فعلى ضجة نباحهما وصخب  
المعركة المحتدمة في تلك الأجمة الواقعة قرب الطرف الغربي للقرية ،  
بمحاذاة غابات النخيل الكثيفة ، اتبّه الرجال . وقبل أن تلفظ  
البقرة ، وكانت حبل على وشك الوضع ، انفاسها الأخيرة احتزّت  
سكينة جارهم « علوان » بلعومها المتهدل ، فتدق الدم شاخبا  
من ذلك الجرح الرهيب وامتزج خوار الاحتضار بغصة الألم ، لكن  
اصابع « علوان » الماهرة نجحت ، بعدما تلوثت بالدم في اقتناص  
عجل كامل البنية من الاحشاء الدافئة للبقرة .. كان عجلا داكن  
اللون سرعان ما لفه بسترته وحمله معا .. هو وجميلة ، الى البيت  
لتذكي أمه نارا كبيرة مددوا العجل اليتم قربها .

عصر ذلك اليوم وبعد ما يبع لحم البقرة واستوفى  
الأب ثمنها ، ارتكنوا بمؤخراتهم المتربة على الدكة الممتدة

الى يسار باب الكوخ ، وفي مواجهتهم في الطرف الآخر  
المواجه للباب اتكأ هو الى جذع شجرة التوت قاذفا  
« جميلة » بين فينة وأخرى بنظرة متلصصة من طرف عينه ،  
كاتما ، في الوقت نفسه ، ضحكة كبيرة طلال احتباسها في صدره  
وهو يسمع فحيح « علوان » المصاب بالربو ، لكن تلك الضحكة  
سرعان ما ذابت عندما قذفه الأب بنظرة تأنيب صارمة أعقبها  
بیسمة محايدة ارتسمت على شفثيه الشهوانيتين المشعرتين ، وهتف  
به بصوته المرتفع الرنان :

- « لم تعدا صغيرين يا بني ! .. ست أو سبع سنوات  
وتخضر شفتك العليا .. و « جميلة » وان تكن أصغر منك بعامين ،  
ستجدها خلال الفترة نفسها وقد تبرعم صدرها .. لم تعدا صغيرين  
لتغفلا عن مراقبة رزقنا ليذهب هدرًا .. لولا الكلبان لضاع لحم  
البقرة وضاع العجل ! .. »

وانبرى له عمه مدافعا عنهما ومواسيا أخاه في الوقت نفسه :

- « انه الجوع يا « عبدالغفور » هو الذي يدفع بالذئاب  
قريباً من القرية . قديما لم تكن نلمح الذئاب الا في البراري ..  
والآن ؟ جرب أن تطل برأسك بعد انتصاف الليل خارج كوخك ! ..  
ما الذي تراه ؟ ذئاب سائبة تتلصص بين الاكواخ وكلابنا غافية  
وقد دسّت انوفها بين قوائمها ! .. »

وواصل عمه « عبدالباري » كلامه بعدما شمل الجميع  
بنظرة استغراب جاحظة من عينيه المتلامعتين تحت حاجبيه الكثين ،

وكان وجهه الظامر الجاف قد اختفى خلف ضبابة دخان اسابت  
من منخريه المشعرين :

- « على كل حال لا تحزن فقد استوفيت ثمنها !.. »

لكن أباه « عبدالغفور » انفجر مقهقهأ بضحكته المجلجلة ،  
التي يكاد أن يسمع الى الآن صداها وهو يتردد عبر غابات النخيل  
الممتدة غرب القرية ، وأجاب أخاه بصوت مرح :

- « لا يا أخي .. انا الذي سأواسيك فقد اشترت تلك  
البقرة على اسم ابني « حازم » .. قلت لعلها تمنحه عجلا او اثنين،  
وسنة تعقب أخرى يجمع مبلغاً يكون مهراً لجميلة !.. »

وسحق عمه « عبدالباري » عقب السيكرة التي لسعت  
اصبعه المصفر من أثر الدخان بعدما كادت تنفذ :

- « مهر جميلة ؟! ولكنه ابن عمها !.. لا مهر لها سوى  
رجولته !.. »

وسمعا كل شيء بدهشة وصمت والتقت عيونهما كأنهما  
يريان بعضهما لأول مرة .

وفي يوم آخر ، في كوخ عمه المواجه لغابات  
النخيل ، التي كانت تملأهما بالرهبنة ساعة جنوح الشمس  
للمغيب ، بسبب تلك الأصوات التي هي مزيج من هديل التفخاتي  
وزمجرة الذئاب الشرسة وأصوات أخرى كان الغروب يضيئ  
عليها الغموض . في حجرة ذلك الكوخ ، التي كان باستطاعة



« حازم » أن يلمح من خلال كوة مفتوحة في الجدار ، كتف  
النهر البعيد وبعض اشجار التوت والعناب والغرب المتناثرة هنا  
وهناك ، في تلك الحجرة ذات السقف المنخفض ، كانت امرأة عمه  
تفتح صندوقها الخشبي المرصع بزخارف دقيقة ، تكتنفها رؤوس  
مسامير بارزة أتى الصدا على أغلبها ، وحالما يرتفع الغطاء  
كانت رائحة الهيل والحناء وروائح بعض الثمار المجففة كالتين  
والعناب ، تضوع بشدة تجعل الخدر يسري في جسده . وكانت  
تلك الروائح تمتزج بروائح أخرى كرائحة الصابون « الرقي »  
والاقمشة القديمة ورائحة الخشب العطن . وهناك في أحد ضلعي  
الصندوق العلوي يمتد حوض خشبي ضحل يحتوي على حلي  
امرأة عمه : أساور زجاجية وأخرى من الذهب الكاذب وجلجل  
فضية وحجل ذو عقدة كبيرة بمفتاح دقيق ومكحلة ذات مرآة  
دائرية في الوسط وحلي أخرى كان أغلبها من الفضة ، سوى  
حلي قليلة كانت من الذهب « الذهب الخالص عيار ٢١ ٠٠ »  
كما كانت تتباهى امرأة عمه . كانت تلك الحلي الذهبية القليلة  
تتألف من خاتمين ذهبيين ، أحدهما مرصع بحجر عقيق برتقالي  
مشرّب بعروق بيضاء دقيقة ، والآخر مرصع بحجر شذر أزرق ،  
وفردة قرط على شكل هلال يلتقي طرفاه على فيروزة زرقاء بلون  
السماء . كانت امرأة عمه تكوّر تلك الحلي ملء كفيها ، ومن  
ثم تجعلها تتساقط في ذلك الحوض الضحل ، مستمتعة بوسوسة  
المعدن المتساقط ، ثم تمدّ يدها وبالسبابة والابهام تمسك القرط  
وتغيم عيناها وكأنها تنظر عبر ذلك القرط الى عالم لم يبق منه سوى

ذكريات شاحبة تكاد أن تندثر هي الأخرى في أروقة الذاكرة  
الصدئة ، وكانت تهمس بصوت حالم :

- « انظرا الى هذا القرط !! .. والى كل هذه الحلبي !! ..  
لقد ورثت جميعها عن أمي رحمها الله .. »

وكان صوتها يتهدج منذراً بنوبة بكاء وشيكة ، ولكن فرحتها  
بهما سرعان ما كانت تعيد التوازن الى صوتها ..

- « .. كانت تحدثني عن يوم زفافها لأبي وكيف تجملت  
ووضعت « الديرم » على شفثيها .. كانت زفة رائعة لم تتسها  
القرى المجاورة لسنين عديدة .. وهذا .. انظرا !! .. انه قرط  
ذهبي وقد ضاعت فردته الثانية وكانت - رحمها الله - تحدثني عن  
ذلك اليوم المشهود الذي أضاعت فيه فردة قرطها .. كان يوما  
ربيعيا والسنابل تصل الى مستوى كتفي رجل .. يومها كان الخير  
وفيراً ! .. وكالعادة قرر اهل القرية زيارة ضريح « عبدالله  
الصالح » تيمناً ببركته .. واستعد الجميع : رائحة الشواء والطبخ  
تعبق ، وأعمدة الدخان تتلوى مرتفعة ، والدجاج يصخب بنقيقه  
الثاقب والأيدي تتلقف أثقلها وزنا لتحترز السكاكين رؤوسها عن  
رقابها الهزيلة .. التناير تلتهب واقراص العجين تتقاذفها الأيدي  
وتضوع رائحة الخبز العبقة ، والقرب الجلدية تملأ باللبن ...  
صباح اليوم التالي أعتلى الرجال صهوات الجياد واعتلت النسوة  
صهوات الافراس الولودة البعيدة عن الطيش ، ولكن أمي - جدة  
جميلة - أبت إلا أن تتركب صهوة حصان زوجها .. وركبته وأنا  
بين يديها ، يومها كنت في السنة الاولى أو الثانية من عمري وأنا

لا أتذكر ايما شيء عن ذلك اليوم ، ولكن لكثرة ما رددت أمي تلك الحكاية على سمعي ، بتّ أتصور في بعض المرات بأنني حقا أتذكر ما جرى في ذلك اليوم المشهود !! .. انحدرت القافلة عبر الحقول والبساتين ، وهناك حيث منظر الحقول الياضعة يبهل العين ، والنظرات الكحيلة تلهب الحميّة ، انتشى الرجال ، ومثل يد واحدة ارتفعت أكفهم وانفجرت بصفقة هائلة وصدحت حناجرهم بغناء زاعق ، ولم تشعر أمي الا والحصان يجمع بها والأرض تنفلت من الأسفل والسماء تهتزّ والتلال والحقول تتقاذف على الجانبين وسحابة غبار بأربعة جذور تنبع من تحت الحوافر المنخطفة على الأرض المندفعة الى الخلف .. ولا ترى أمي أي شيء فالسماء والأرض قد تداخلتا ببعضهما والحصى الناعم يتطاير على جانبيها .. وأنا عندما أحسست - كما أخبرتني - بأن كل شيء بدأ يهتزّ ، وأن الذراع ، التي احتظنتني ، قد احكمت تطويقها لجسدي ، مددت يدي وتشبّثت بأذن أمي .. الحصان الجامح انخطف كالبرق عندما أحسّ برخاوة الساقين المشدودتين الى جانبيه ، وأمي عبثاً تشدّ برجليها ويدي تتكور على القرط ، الحصان يندفع الى أرض حرثت في الموسم المنصرم فامتلاّت بالأخاديد ، ويميل الى الجانبين ويكاد يفقد توازنه أكثر من مرة .. تترك أمي عنان اللجام الذي مزق شذقي الحصان دون جدوى وتسك بعرف الحصان المتهدل ، ريدي تنغلق تماما على القرط .. الا أن الفرسان سرعان ما يقتربون ويتناهى لسمعها خب الجياد من الخلف ، بطرف عينها ، دون ان تستدير تلمحهم وهم يتقدمون على جانبيها ومن ثم



يسبقونها ويشكلون قوساً قوامه أجساد الخيول المتلاصقة ، فينطلق  
الطريق الملتهب أمام الحصان .. ورويدا رويدا يهدأ ، الى أن  
يتوقف .. أمي تنزلق عن صهوة منهكة ، ويتحلق الرجال حولها  
.. كانوا مشدوهين لم يستطيعوا أن يصدقوا بأنها استطاعت الثبات  
على صهوة ذلك الحصان الجامح دون أن تسقط طفلتها رغم أنهم  
رأوها بأعينهم ، فجأة ينتبه أبي الى اذن زوجته المدماة وعندها تتذكر  
أمي بآتي كنت متشبثة بأذن فلأبد أن القرط قد شق  
شحتها .. »

وكانت امرأة عمه تصمت وتعيد فردة القرط ، التي كانت  
تقلبها حوال حديثها بين أصابعها ، وكانت تعود الى واقعها كمن  
عاد من رحلة حقيقية ممتعة ، وأنداك فقط كان « حازم » ينتبه  
الى النسيم الندي يهب رخياً عبر الكوة ، حاملاً لمنخريه الواسعين  
روائح العشب والشجر النامي متزجة بالروائح الصادرة من جوف  
الصندوق . وكانت امرأة عمه تمنحها نظرة حب وحنو لتقول  
لها بصوتها العذب :

- « ستكون لك ! .. كلها ستكون لك ! .. ستزينين  
بهذه الحلي يوم زفافك لابن عمك » حازم ..

ستكون زفة رائعة لن تنساها القرى لسنين عديدة ، وأنا  
سأتحدى أباك وأشدّ العباءة الى خصري وأرقص وأرقص الى أن  
ينخلع وسطي .. »

ولكن المخاض تعسر بها ! .. عشرة اشهر مرت وهي حلي ،

وعندما وضعت جبينها الميت ، امتلأ كوخ عمه برائحة النسفة ..  
كان جسمه قد أزرق وتفسخ داخل بطنها .. بعده بأيام ماتت  
امراة عمه ، ولم تمض أيام قليلة وانتقلت « جميلة » ، بعدما هاجر  
أبوها بعيدا ، الى كوخهم وحملها معا صندوقها الخشبي المفتل  
بتلك الزخارف الدقيقة والمسامير الصلبة .. مساء اليوم نفسه  
قال لها :

- « جميلة لم لا تقفين الصندوق ؟! »

ولكنها غصت في نشيج مرير ، ولم يعد يسألها عن ذلك

على الاطلاق ..

صباح كل يوم كان « حازم » يصحو على ضجيج « جميلة »  
وصخبها المفتل ، ومساء كل يوم وبعد أن تخدم جمرات الموقد  
وينسحب الاب ليضطجع هناك خارج الحجرة الوحيدة ، كانت  
جميلة تنسحب نحو الزاوية القصية للحجرة ، وقريباً منها يضطجع  
أخوه حميد ، تعقبه الام ، وقرب باب الحجرة يضطجع هو .  
وحيالما تنفخ أمه الفانوس ليختلج اللهب للحظات وينطفئ فيأ بعد ،  
كان حميد يغص بضحكة مفاجئة يحاول ، عبثاً ، أن يكتمها تحت  
طية اللحاف ، وكانت الأم تزجره ، ولكن دون جدوى ، فقد تذكر  
حميد أحد المواقف المضحكة من الحكاية التي قصها عليهم الأب  
في تلك الامسية .. وفي ليل أخرى ، وبعد انطفاء الفانوس مباشرة ،  
كان حميد يزحف نحو فراش أمه ليلتصق بها مدعياً أن جميلة  
تناكده ولا تدعه أن ينام بسلام .. الا أن صوت جميلة سرعان  
ما كان ينبع من جوف العتمة لتفضحه ، فكانوا يكتشفون بأن سبب



التصاق حميد بأمه هو تلك الحكاية التي رواها الأب فملأته بالرعب... وكان أرباب حميد من أسهل الأمور : يكفي أن تذكر أمامه اسم « الشيخ راضي » ! لتراه يجمد في مكانه وهو ينفذ الزوايا المعتمة بنظرة جوفاء وكأنه ينتصت لصوت الرصاصة التي أطلقها الشيخ وتسف بها ظهر أحد فلاحيه طمعا في زوجته القاتلة... وهناك أشياء أخرى كانت تشحذ خيال حميد وتملاه رعبا... منها ما تردد ، في تلك الفترة ، من أن « أكرم عبيد » الهارب من وجه الشرطة قد أخذ من الغابات القريبة من قريتهم ملجأ له !! ولكن حازم كان مستعدا على تحمل مناكدة جميلة الموهومة ليضطجع قربها ، لا شيء ، بل ليشعر بأفه قريب منها يسمع صوت تنفسها العذب ويلتح - رغم العتمة - توهج عينيها الواسعتين وهما تتلامعان خلف أجفانها التي لا تنطبق أهدابها المعقوفة ببعضها كما لا بد أن تكون كذلك الآن وهي مضطجعة على سريرها في غرفتها التي تعلو سقف غرفته ..

... واستفاق من تأملاته وبدأ مستطيل النافذة وقد ازداد توهجا ، والعتمة قد شفت وانسحبت بعيدا ، نحو زوايا الغرفة ، وإلى الأمام لمح حاجز السرير وقد انسحقت لطخة من ضوء الصباح على حديد اللماع ، ومن خلال القضبان المعدنية المتعامدة تحت حاجز السرير لمح الضلع القريب لمنضدة وضعت عليها صحف ومجلات وكتب قديمة منزوعة الاغلفة ومن تحت طبقة الغبار التي اعتلتها ظهرت مستطيلات ومربعات داكنة قد تكون صوراً طغى عليها ظل غطاء داكن بدا من خلال تكوره وكأنه يضم تحته هيكل كرسي

أو شيئاً من هذا القبيل • وعلى الجدار المواجه كان ضوء الغيش المنسكب من النافذة يطمس معالم صورة حنطت خلف كيان الزجاج الشفاف الذي انعكست عليه صورة النافذة والجائط المرتفع خلف رأسه والجدار الجانبي الذي على اليسار حيث الباب الموارب • ومثل عنكبوت متفرد يشده الخيط الشفاف ينسجبه السري ، عادت عيناه لتواجهها السقف الداكن • هل كان نائماً قبل قليل ؟ لا يستطيع أن يحزم بذلك بل إنه لا يستطيع الجزم من أنه قد أغمض عينيه على الإطلاق ، فها هو على وضعه السابق أشبه بجذع مقطوع ومقذوف على هذا السرير الحديدي الضيق والسقف الموحش ، الذي لم يعد يثن تحت ثقل الخطوات الخرماء ، يواجهه وعيناه المحمومتان تصران على اختراق طبقة القصب والتراب ولكن السقف كان صامتاً • نائمة وشففتها منفرجتان قليلاً واسنانها الدقيقة تومض في الداخل •

واتبه الى صوت رعد بعيد بدا وكأنه صادر من عالم آخر • كانت لطخ زرقاء متباعدة قد انكشفت من السماء الهيلة وندف سحب داكنة اشبه بقطن قديم يبدو من خلال زجاجة النافذة الشوهاء بسبب الرذاذ المتساقط بعدما افتقد المطر حدثه السابقة ، ومن اهتزاز قمم الاشجار المثقلة بالماء ادرك بأن الريح تهب رخية من جهة الشرق •

تناهى لسمعه صوت اصطفاق باب المنزل وخفيف فدمين تترطشان على أرض الممر الممتد امام المنزل والمغطى بطبقة من الحصباء والرمال • • • قد تكون تلك أمه تغادر المنزل لغرض ما ؟

واستغرب منها أن تخرج في مثل هذا الوقت فقد تتماسك السحب  
من جديد وينهمر المطر مرة ثانية !

تذكر بأنه لم يتناول وجبة الافطار ، ولكنه لم يشعر بالجوع  
فقد أصبح من دأبه أن يتناول الافطار في ساعة متأخرة من الصباح  
.. بل أنه وفي مرات كثيرة ، كان يتناول وجبة الغداء مستغنيا عن  
فطور الصباح الذي أصبح من دأب الام اعداده كل يوم بعد ما  
تهدل بطن « جميلة » ...

... كان بطنها مسطحا ونحيلا وكأنه جُبُل من تربة الارض  
الرطبة البنية اللون .. والسرة في الوسط أشبه بأثر قطرة مطر  
ثقيلة ارتسم على طبقة طمي ناعمة .. قالت له بصوتها الطفولي  
الذي طالما استفزه :

- « لا .. لن تستطيع ! .. »

كانت قد كشفت عن بطنها المسطح مستندة على راحتي يديها  
اللتين غرزتهما في الارض المعشبة . احتد « حازم » وأجابها  
بصوت غلبه الاتفعال الطفولي :

- « بل استطيع ! .. »

- « هيا اذن ! .. »

افرد النعجة عن القطيع وقال :

- « انتهي الى الكباش .. اخشى أن ينطحني ! »

أمسكت « جميلة » بالكباش من قرنيه بعدما انزلق ثوبها



الاحمر المزهر الى الاسفل وشمرت بصفيرتها الوحيدة الى الخلف بحركة خاصة كانت أكبر من أن تكون صادرة عن صبية لم تتجاوز الثامنة من عمرها • وتسلى « حازم » بين قوائم النعجة المستكنة ببلادة ، جعل وسطه تحت ضرعها الطافح باللبن ساحبا ثوبه البني اللون ، كاشفا عن بطنه المشابه للون الثوب انداكن ، ولكنه فوجيء بقهقهة مجلجلة وسمعها تهتف بصوت تهشم بين الضحك والصراخ •

- « لن تستطيع .. ها .. ها .. ها ، ألم أقل بانك لن تستطيع ؟ .. انها منبعجة .. سرتك منبعجة الى الخارج مثل ضرع النعجة ! فأين يستقر اللبن ؟! .. »

نهض « حازم » صارخا بغضب وكأنا هي المسؤولة عن انبعاث سرته الشوهاء :

- « وانتِ !! لن تستطعي ! .. هيا .. حاولي .. » للمرة الثانية كشفت بطنها المسطح واندست بين قوائم النعجة المستكنة • الا !نهما فوجئا بصوت ابيه الذي ولج الاجمة حيث الاغنام ترعى العشب :

- « ما شاء الله .. ما شاء الله ! .. اهكذا ترعيان الاغنام ؟! »

وهنا لاحظ الاب ، بدهشة مازجها الغضب ، « جميلة » المستلقية بين قوائم النعجة بوضعية غريبة ، فاتفجر صارخا :

- « .. يا للوقاحة ! .. جميلة .. الا تخجلين ؟! »

واستوت « جميلة » واقفة بارتباك جعل الدم ينحسر عن  
وجهها وتمت بصوت راجف وهي تعدّل من طيات ثوبها :

- « هو الذي .. قال لي أن .. أملاً .. سرتي .. بلبن  
النعجة ! .. »

كادت عينا الاب أن تخرجا من محجريهما وهو يلتفت باتجاهه:  
- « الا تخجل يا ولد ؟ .. انها بنت وانت ولد !! .. الا  
تخجل ؟ ! »

بنت .. وولد ؟ ! .. وما شأن ذلك بما كانا يفعلانه ؟ ..

... أحسّ بوطأة الحمى تتضاعف وبالأحلال الكامل يغزو  
جسده .. انه متعب تعباً قاتلاً بدأ يدب في جسده ، ذيب الموت  
في جسد مشلول ، مذ قذف به على هذا السرير قبل خمسة اشهر  
خلت .. بل انه بدأ يفكر بجدوى الاستمرار العقيم وهذا  
الاحساس المرير بكونه شيئاً زائداً نسيه الآخرون يملأه باليأس ؟  
ولكن الذكريات الجميلة والمريرة في الوقت نفسه والتي أصبحت  
ملكه لوحده ، سرعان ما تنثال في ذهنه واحدة إثر أخرى لتعيد  
التوازن الى وجوده كأنسان محكوم بالانتظار رغم كل شيء ..  
ولا ينسى ايمانه المطلق بالمستقبل الذي لولاه لما وجد نفسه أسير  
هذا السرير الضيق ! .. وقذف جدران الغرفة والباب الموارب  
والسقف والكتلة الداكنة المنتصبه امامه ومجلات وصحف المنضدة  
المثقلة بالغبار والصورة المعلقة على الحائط المواجه والنافذة  
المتوهجة ، قذفها جميعها بنظرة شاملة وهز رأسه وكأنه يوافق



وبقوة على ما يفكر به الآن .. نعم لقد كان يتوقع أسوء مما هو عليه الان ! .. كان يدرك بأن تلك الارض المتهبة والمثقلة بسحب الدخان والغبار والهدير الاصم قد تسحبه سفلا لتوحده بأديمها المتهب . كان الموت يومذاك مسألة اعتيادية لا تحتاج الى فغر الفم ببلاهة مشفوعة بآهة بتراء . كل شيء كان محكوما بقوانين الارض الملعومة بالدمار . بدا الموت اعتياديا مرادفا للشهيق والزفير واعداد السلاح ونزع صمام القبلة اليدوية والارتقاء على الارض عندما تمرق الطائرات المغيرة وانتظار سماع هدير الانفجار الاصم .. ذلك الانفجار الذي قد يصبح الجسد ضمن دائرته المتهبة ، فتتحول الاعضاء المبتورة والعظام المهشمة الى شظايا تسابق شظايا القبلة المنفجرة .. وقد تنطلق قطعة عظم حادة لتجرح جنديا قريبا ، سيتحسس أثر جرحه الى الابد متذكرا تلك الشظية التي أصابته من قنابل الاعداء ! .. يومذاك انسحب من ذهنه المعنى التقليدي للموت واندفع في خضمه بلا تهيب .. ولكنه لم يست !! ..

ومرة أخرى شعر بذلك التعب المريض يدب عبر خلاياه المقدّدة .. انه تعب عقيم لا يشابه التعب الذي يعقب العمل .. وهو تعب مقترن بالمرض ، اما التعب الآخر فما أروع اللحظات التي تعقبه : الخدر اللذيذ يسري عبر الدم الساخن وعضلات الجسد تسترخي الا انك رغم استرخائها تشعر بها قوّة .. انه تعب الشجرة التي تنوء تحت ثقل ثمارها الناضجة .. وحازم مارس العمل منذ كان صغيراً يجرجر اذيال ثوبه في الوحل ، فحالما

أصبح بإمكانه سحب خروف من أذنيه أصبح العسل مرادفاً لطفولته  
الصاخبة تلك :

... صباح كل يوم يلبس ثوبه الصوفي السميك ويدس  
ذراعيه في كمي القصلة العسكرية الواسعة التي كانت هدية  
أحد أبناء عمومته البعيدين فيبدو مثل طائر كبير مهشم الجناحين •  
ويملاً جيوب القصلة العديدة بحففات من التمر الجاف وقطع من  
الخبز البارد السميك • وصوت أمّه يوشوش أذنيه المزغبتين :

- « انه الربيع يا « حازم » فلتبق جسدك دافئاً •• احذر أن  
تدسّ قدميك في الطين لفترة طويلة ، واحذر من أن تعرض رأسك  
للشمس !•• خذ هذا الغطاء • انظر لقد رقعته لك ابنة عمك  
« جميلة » فعاد كما كان •• كن حذراً يا كبدي !•• »

يحتذي حذاءه الجلدي الثقيل ، ويشدّ الحزام العريض الى  
وسطه ، وبشكل طقوسي فخم يتناول خنجره الصغير ذا القراب  
الجلدي الاحمر المرصع بمسامير معدنية براقّة •• يسحب الخنجر  
من القراب فيطالعه الحديد العكر المطفأ •• يغرزّه في الارض الهشة  
ويحركه بسرعة الى أن يسخن الحديد •• ويتوهج النصل الحاد ••  
يعيده الى القراب ويعلقه بحزامه •• ومن ثم يتناول عصاه الغليظة  
ذات الرأس الذي على هيئة رأس ثعبان •• يضعها على كتفيه ويصالب  
يديه على طرفيها يهش الاغنام قاذفاً « جميلة » بنظرة جانبية :

- « ترى هل ابدو بعينيها كراع حقيقي ؟! »

و « جميلة » تشد وسطها الدقيق بحزام ابن عمها الصغير

« حميد » - انها تشده عادة بعد أن تختفي القرية خلف سحابة الغبار التي تثيرها الاغنام ، خشية ان يراها « حميد » فتقع الطامة الكبرى - ولكنها تأبى أن تغطي رأسها • انها تقول :

- « لا يا عمة .. ان شعري الكثيف يكاد أن يكون بمثابة الغطاء لرأسي .. »

وتقذف بضميرتها الوحيدة الى الخلف بحركة خاصة تبدو أكبر من ان تصدر عن صبية في عامها الثامن • « جميلة » بثوبها ذي اللون البهيج عادة - قد يكون أحمر اللون أو أزرقه أو أصفره وبحزامها الدقيق تكاد ان تبدو مثل تلك التي أحبها « الأمير »

- « ترى هل أبدو بعينيهما مثل ذلك الأمير الجميل ؟ » •

فلا يستطيع أن يمنع نفسه عن الابتسام عندما يفكر :

- « أمير بقمصلة عسكرية متهرئة وحذاء • كحذاء ابي قاسم الطنبوري ؟! »

ويعالج الكبح العجوز بضربة مفاجئة من عصاه والكبح يندفع الى الامام ليعتلي مؤخرة إحدى النعاج فيغرقان في الضحك حتى تدمع عيونهما •

ها هو الربيع يكاد أن يتبدى في أجمل صورهِ وكأنه ذيل طاووس اسطوري يغطي السهوب الخضراء والوهاد البعيدة ، التي تتصاعد منها ابخرة الضباب الرمادي ، والجبال الحجرية الجرداء المستدة شرقا • وها هي مستعمرات العشب تكاد ان تغطي السهول



المحدقة بالقرية ، والريح تهب ندية وثغاء الماعز وخوار الابلار  
ينطلق يرادفه رنين الاجراس النحاسية المعلقة برقاب بعضها ...  
طيور الدراج السميكة تنبع فجأة من تحت أقدامها ، من بين  
العشب النامي ، لتدوب في دغل قريب ، ويسارعان الى ذلك الدغل  
محاولين العثور على ذلك الطائر الذي ينوء جناحاه القصيران تحت  
ثقل جسده ، ولكن عبثاً .. وفجأة ينخطف الدراج ليمرق من تحت  
أنتيهما وليختفي في دغل آخر .

في الريع يكون الرعي - عادة - مهنة هينة  
لا تحتاج الى بذل جهد كبير ، فالمطلوب منه أن يهش  
الانعام بعيداً عن الحقول اليانعة ، وأن لا يغفل مراقبتها خوفاً عليها  
من الذئاب التي تمتليء بها غابات النخيل القريبة .. والمراقبة  
بحد ذاتها ليست مشكلة يصعب حلها ، فاضافة الى عينيه الحادتين  
وعصاه الغليظة وخنجره ، الذي لم تسنح أمامه الفرصة المناسبة  
لاستعماله على الاطلاق ، هناك أيضاً عينا « جميلة » الواسعتان  
اللتان لا بد أن تريا أكثر من ذئب واحد !! وهناك الكلبان الرائعان:  
« بوجي » الكلب الابيض المبقع بلطخ بنية ، وهو كلب لا يكف عن  
النباح أثناء الليل وأطراف النهار ، فأى ذئب بليد يقترب من قطع  
يحرسه كلب « نباح » فيسلم ذيله للآخرين ؟! أما الكلب الاخر  
فهو كلب ضخيم ووقور أسود اللون وبدون اسم . وكان صامتاً  
لم ينبح ولو مرة واحدة حتى أنه سمي « بالاخرس » الا أن الأب  
أكد أكثر من مرة بأنه سمعه اثناء مطاردته للخنازير وهو يزمرجر  
كما تزمجر الذئاب ، فقليل انه قد يكون ثمة علاقة سرية بين ذئب



وكلبة !.. ولكن لونه الاسود الناحم كان يثبت بأنه « كلب  
سليل كلب !.. » كان صمت « الاخرس » مشوباً بوقار واضح  
وباحتقار خفي للكلاب الثرثارة - عدا « بوجي » الثرثار الذي كان  
يبادل الود بحكم الزمالة - وكان أن فرض احترامه على أشرس  
الكلاب التي لم تجرأ على التحرش به احتراماً لصمته الوقور وخوفاً  
من حجمه الهائل .. وحتى الذئاب حالما كانت تشم رائحة  
« الاخرس » كانت تدسّ بأذيالها بين قوائمها وتمنح وجهها  
للبراري البعيدة .

باتتهاء الربيع يبدأ العشب بالضمور .. الصيف على الابواب  
والمياه تدفأ والارض تسخن و « حازم » يتخلى عن القمصنة  
العسكرية ، وبعد فترة يستبدل حذائه الثقيل بخفّ جلدي .  
لكنه يظل متشبثاً بحزامه ، انه بدونه كما يقول : « كالعريان  
الذي لا يستر جسده ثوب ! » الحزام يطوق خصره والخنجر  
بقربه الجلدي معلق به وراحة يده تندى وهي مطبقة على رأس  
العصى الذي بهيأة ثعبان ، و « جميلة » تستعيز عن حزام « حميد »  
بجبل جدلته بنفسها ، لقد اكتشف « حميد » اين يختفي حزامه  
الأثير صباح كل يوم !.. وبدون « حياء ! » كما صرحت الام  
فيما بعد .. بدون حياء وبهدوء لم يكن مناسباً لسنه الستة ،  
طوق خصر « جميلة » المستعرة بالضحك ، ومد اصابعه القصيرة  
اللينة وبخفة متناهية أخرج رأس المسمار من الثقب فأصبح  
الحزام في يده ومن ثم طوق به خصره الغليظ الناتيء الى الامام .  
صرخ بها بصوت اصم :

- « لصة ! .. سيكون الجحيم مأواك ! .. »

ومن خلال كركرتها الصاخبة اجابته « جميلة » :

- « الجحيم أفضل من جنة تكون انت بيطنك المتدلي بين  
فخذيك احد ساكنيها ! .. »

واكتفى « حميد » بأن قال لها من بين اسنانه المطبقة بعدما  
منحّب بطنه الى الداخل فارتخى الحزام وكاد ان يسقط على  
الارض :

- « لصة ! »

وبقى الحزام مشدودا الى وسطه حتى عندما كان ينام !

الصيف يلفح الارض بلهيبه .. العشب الاخضر انكش  
على نفسه واكتست وريقاته بخضرة داكنة ، والاوراق الناعمة ،  
التي كانت تذوب بين اشداق الاغنام ، تصلبت وخشن ملمسها ..  
ومستعمرات العشب تراجعت بعيدا عن القرية حيث البراري  
المتوجة ، فازدادت مهنة الرعي صعوبة وهنا تضاعفت أهمية  
« جميلة » ، لولاها لما استطاع الاستمرار منفردا مع القطيع في  
ذلك الخلاء الموحش ! .. معاً تنقضي ساعات النهار ويعودان  
بالقطيع ، عندما تجنح الشمس غرباً ، الى القرية في انتظار يوم آخر  
.. هكذا هما : يطويان المسافات الشاسعة بحثا عن العشب ويرويان  
حكايات مكرورة سبق وان سمعاها عشرات المرات . ولكن  
البراري المتوجة والسماء الزرقاء وثغاء الاغنام وظلال الطيور  
المنخطفة فوق رأسيهما كانت تصني عليها سة جديدة تختلف

بالتأكيد عن الصمت المطبق في جوف الكوخ وهم متعلقون حول النار ، والسقف المنخفض وقد اختفى خلف سحب الدخان الرمادية وصوت ابيه الرنان يدوي بين لحظة وأخرى وهو يقص عليهم القصص نفسها •

وعندما ينضب معينها يسارعان الى ابتكار ألعاب طفولية سرعان ما ينغمان بها تحت زرقاء السماء البعيدة : جميلة تدس بجسدها النحيل بين القطيع المذعور وحازم يجد بحثا عنها ولكن عبثاً فالقطيع يتألف من اعداد كبيرة من الماعز والاغنام والعجول الصغيرة وجميلة أشبه بطائر الدراج المخادع ، تختفي في نقطة معينة لتظهر في نقطة أخرى ، لم تخطر بذهن حازم بأنها ستظهر منها • انه يدس بجسده بين الاغنام فيمتلىء منخراها الواسعان برائحة الصوف الزنخة المشابهة لرائحة غطاء نومه وتسحق الأغنام بأضلاعها الحادة اصابع يديه وقدميه وهو يدب بينها • ولكن جميلة سرعان ما تبرز رأسها الاشعث فوق ظهور القطيع المقبية وتدلّق لسانها الوردي الرطب للخارج زاعقة بصرخة الانتصار التي تجعل الاغنام تكف عن قضم العشب لترفع برؤوسها قاذفة الخلاء المحيط بها بنظرات جوفاء • شيء واحد كان يضايقهما أشد المضايقه ، وهو الظمأ وندرة الماء في البرية وحازم ، وهو يتلمض بشفتيه الجافتين ، كان يستذكر بعض الدروس التي استوعبها في مدرسة المدينة في الشتاء المنصرم والتي تذكر أن الماء عديم الطعم واللون والرائحة •• فكان يستغرب !•• كيف ذلك ؟ فلما القريب من المزارع والحقول له طعم العشب ورائحته ! بل واخضرار لونه !



وماء النهر الجاري يختلف عن الماء الراكد في الغدران والبرك  
المنتشرة في البرية !

في بعض المرات كانا نجلس لولان الاستعاضة عن  
الماء بشربها لبن النعاج . ولكن عشا فحلمنا يلحان غديرا  
أو جدولا كانا يسارعان الى الارتقاء على تخافته ويدسان رأسيهما في  
الماء البارد وعبأ من عبا مزاحمين الاغنام الطامئة وهي تندفع  
بارتيك معكرة الماء الرائق . وبعدما يتويان كانا يتراشقان بالماء  
أو يقذفان ببعضه جرياء . كانت موضع تندرهما الدائم في لجة  
النهر المدوم بين ضفتيه القريبتين ، فسلأ المعزاة البرية بثغائها الحاد  
وكانا قذف بها في نيران الجحيم لا في ماء بارد يخفف من سطوع  
الشمس الساخنة على جريها المتقيح ! .

تضاعف مهنة الرعي صعوبة في الخريف ، حيث الصيف  
خول العشب الى هشيم سرعان ما يتفسخ عندما يتندى برطوبة  
الخريف .

في الشتاء يودع الراعيان الصغيران مهنتهما الشاقة والممتعة  
في الوقت نفسه في انتظار الربيع القادم . الاغنام تنام في الحظائر  
لتجتر القش والشعير وقتات الحبز الجاف ، وحازم يتفرغ لدروسه  
معوذا ما فاته اثناء ادائه لمهامه الشاقة ، ولكنه بعد رجوعه من  
المدرسة يشارك اياه في اعمال الحقل .

قد تقترح راحتا الأب ، فيمسك حازم بدفة المحراث ويصرخ  
في الثور فتسلم الارض الهشة أمام الجديد الصقيل الحاد . ومن



ثم يشد كيسه الى كتفيه ويملاه بالحب و... واحد... اثنان...  
يدس كفه في جوف الكيس ويقذف بحفنة القمح بطريقة خاصة  
تعلمها من أبيه : اليد تنهيا مسبقا وبلحظة واحدة تنفتح راحة اليد،  
مدفوعة في الوقت نفسه بقوة دفع الكتف ، فتطير حفنة القمح  
لتتوزع على اكبر مساحة ممكنة و... واحد... اثنان... خطوة  
... خطوتان... وحفنة حب أخرى .

يبدأ السقي : يرتقي كنف النهر الذي يتفرع منه الجدول  
ويناول أباه المسطرة... يتدفع الحديد في طين القاع قرب الثقب ،  
والماء ينز من الجهة الثانية ، والحديد يتدفع للمرة الثانية بعد ما  
يقذف بالطين بعيدا والماء يشخب... مرة ثالثة... ويتدفع الماء  
مدوّا عبر مجرى الجدول الرطب وتشتلي الشقوق بالماء ، والهوام  
والحشرات الدقيقة تنفلت بعيدا عن التيار الحاد .

الحقل يحضر ويشق عشب ناعلم بكالزغب سطح  
التراب الذي يكتسي باخضرار شفاف سرعان ما يغمرق ويغرق  
والعشب يتفجر من الارض ، وحالما تدفع الريح يتهاوج الحقل  
الممتد على مدى البصر... ولكن الخنازير تغرس أنيابها الحادة في  
الزرع ، فيساعد حازم أباه في الحراسة وينصان هنا وهناك اعوادا  
غليظة ملتقان في قسمها صفائح معدنية تملأ الحقل بمخفقاتها كلما  
هبّت الريح ، فتتفر الخنازير .

حازم يشارك أباه في شؤون الحقل وجيلة تبقى في القرية  
تساعد عمها في أعمال البيت : حلب الأبقار وغسل الاواني في النهر  
القريب وجلب الحطب والسعف من غابات النخيل المستدة غرب

القرية ، واذكاء النار في التنور ، وحازم يدرج ، عندما تجسح الشمس غرباً ، عبر طرقات ضيقة تشق الحقول المثقلة بالسنابل الذهبية عائداً بسعيّة والده الى البيت • انهم يقتربون وعلى يمينهم خلف الغابات الرمادية الملفعة بالدخان والضباب والممتدة على شكل قوس يتكور في وسطه ليزوب طرفاه الهشان ، حيث تقل كثافة النخيل ، في أرض السهل ، تدرج الشمس لتغطس خلف الارض المعتمة • والى الامام في وسط الحقول الخضراء المتساوجة ، تنهض أكمة مديدة تنتصب على حداثها الملطخة بشعاع الشمس الغاربة ، اكواخ القرية الطينية • والاكواخ تتوزع بصورة عشوائية تتخللها حظائر الماشية •

عبر قوس متعرج تترأصف الاكواخ ، بدءاً من الغرب ، قريباً من جدار النخيل الرمادي ، فهناك تبدو جدران كوخ عمه الذي تهدم بعدما هاجر نحو المدن البعيدة ، وبعده ينتصب كوخ « شرهان » ذي الذراع الواحدة ، التي بترت في الحرب العظمى عندما جندته « جندومة » الاتراك كما جندت رجالاً كثيرين توزعوا الان في القرى المجاورة ، بعد كـوخ « شرهان » تتعاقب اكواخ الفلاحين الطينية يسقوفها المنيّة وكواها الدائرية المستوية باتجاه الحقول • ولكن عيني حازم المطوفتين سرعان ما توقفت عند كوخ « زهرة » المعتوهة • انه كوخ يميّز عن بقية اكواخ القرية بلونه الرمادي المبيض • وهذا اللون الغريب جاء بسبب ذلك الطين المتفسخ الذي تصرّ « زهرة » على أن تلي به جدران كوخوا كلما اطل الشتاء برأسه الأشيب ،

متحدية أرادة جيرانها الذين تكاد رائحة ذلك الطين أن تزكم  
 أنوفهم لعدة أيام الى أن يجف . و « زهرة » تبرر اصرارها بأنها  
 رأت ، بام عينيها ، العمال والبنائين وهم يطلون جدران « القصور »  
 هناك في المدينة بالطين الاسود نفسه المشابه لطينها اللهم الا من  
 ناحية التسمية فهناك يسمى « بالاسمنت » فما الفرق اذن؟! وتكاد  
 عينا حازم أن تختفيا بين طيتي جفنيهما المتغضنين بسبب تكور  
 الوجنتين المؤطرتين لشفتين ارتسمت عليهما ابتسامة عريضة .  
 في الطرف الاخر من الاكمة حيث السهب ينبسط ليدرج شرقاً تتخلله  
 قرى تناثرت عبر الحقول المتوهجة تحت شعاع الشمس الغاربة ،  
 هناك يرتفع سقف كوخهم ، وقريبا منه تبدو حظيرة الماشية واضحة  
 لعينيها ، فوقها تدرج ، بانسياب ، كتل دخان رمادية تلتطخ زرقة  
 السماء . الى الاسفل تتوهج نار برتقالية صغيرة على خلفيّة  
 بنفسجية هي التخوم المنخفضة للأفق الشتائي الداكن . وتتكاثر  
 كتل الدخان قريبة من الارض ولكن النار ، التي ألقيت بحزمة من  
 الحطب الجاف ، سرعان ما تنفجر فيتصاعد الدخان عاليا وتخفيف  
 كثافته وتندلع النار من فوهة التنور أشبه بدم تنفجر من جرح  
 عميق .

حازم يطوّف بجرمه الصغير متقدما الى الامام وظاهر  
 يده يمسّ السنابل الخشنة ، وقرص الشمس الملتهب يكاد  
 يختفي ولطخة من الشعاع البرتقالي تتلامع على حديد بندقيّة  
 الصيد المتأرجحة على كتف والده الذي يحاول جهد امكانه موازنة  
 خطواته الواسعة مع خطوات فلاح قميء يسير بجانبه .



عائدان الى القرية والاحاديث المشفوعة بالسعال المتقطع والضحكات الجوفاء ودخان السجائر ذي الرائحة النفاذة ، تشابكت عبر نسيج الصست المخيم • البندقية تتأرجح على الكتف • • ترتفع وتنخفض تبعا لحركات يدي والده التي يحاول عن طريقها تأكيد سيل الكلمات المثال من شفتين شوهمما التبغ الرخيص • كانت الكلمات ترن في الخلاء الذي لا يعكر صفوه سوى رفيف طيور تنخطف من امامهم وصريير جنادب تصمت عند اقترابهم منها لتزعق فيما بعد ، وخوار ابقار بعيدة وزعيق نساء يتردد عبر اكواخ قريتهم والقرى المجاورة • وكانت الكلمات تثير ابتباه حازم ، رغم انها لكثرة ما ترددت على مسامعه ترسخت في ذهنه ، ولكنها تظل كلمات يرغب المرء في الاستماع اليها ، وتظل جديدة جدة الزرع في كل موسم • انها تتحدث عن الارض والزرع والهموم والخيبات وعن الحصاد القادم وموعد مجيء «الملاك» وعن تدمره الذي سيبيده بسبب شحة المحصول ، المحصول الذي لو تضاعف لبقى شحيحا في عينيه اللتين لن يملأهما سوى التراب • وهي كلمات تشرّبت ببساطتهم وصراحتهم ، فهي تقول للاخضر اخضر وللأحمر أحمر • • ولكنها تقول ذلك بطريقة تجعلك تحس بما تحمله كلمة «الاخضرار» من معنى : الزرع • • النماء • • الربيع • • وهي تجعلك تحس بما تعنيه كلمة «الأحمر» • • الدم • • الغضب • • الدمار • ولكن تلك الكلمات تظل حبل بالآمال ، فالعيون التي ترقتب انبثاق ساق البذرة من الارض ، وانتظرت العشبـة وهي تنمو وتزدهر وتتمايل تحت ثقل السنبلة الذهبية ، من المحال ان



تنظر تلك العيون الى الحياة بغير نظرة خضراء خصبة ، ومن المحال بالتالي أن لا تكون كلماتهم حلى بالامال •

وفجأة تنطلق زقزقة غامضة من تحت العشب الكثيف تثير انتباه حازم وينصت بترقب •• أهو بلبل أم عصفور أم زرزور أم قبرة؟! وينصت بحدة بعدما يبطئ من سيره الى أن يتوقف •• يطوّف بنظراته خلال جداري السنابل المرتفعين على جانبيه ، قاذفا الشمس الهابطة بنظرة جوفاء • ولكن عبثاً وكأن الطائر قد ذاب • يكور شفثيه ويطلق من خلالهما زقزقة مشابهة لزقزقة الطائر المختفي ويعقف بعينه نحو الارض وكأنه يتنصت بهما أيضا •

و « بوجي » الذي تقدمهم لمسافة طويلة واختفى في نسيج الحقل المتشابك ، سرعان ما يفتقد صاحبه الصغير فيرجع عائدا نحوه ، متشمما ارض الممر الممتد عبر الحقل الكثيف المتناسك •• ها هو يزمجر بمرح محاولا اثارة انتباه صاحبه الذي يتمن فيما حوله بترقب ، غير آبه لظهور الكلب المفاجيء ، بل انه يقذف نحوه بنظرة جوفاء فيهزّ الكلب ذيله بمرح ، الا ان تلك النظرة سرعان ما تنزلق مهومة فوق السنابل الذهبية ، باحثة عن الطائر المجهول • « بوجي » يتمن باهتمام وحذر في شفثي حازم المكورتين وتلك الزقزقة الغريبة تنساب من بينهما •• ينصب أذنيه ويخفضهما تبعا لتنوع النغمات القصيرة والحادة • ويتضاعف فضول الكلب واندهاشه • وفجأة يجفل بارتعاب عندما تنطلق زقزقة مماثلة من تحت العشب قريبا منه ، فينصب أذنيه باصرار

وتحفز ويزمجر باستياء ، حازم يلاحظ حيرة « بوجي » فلا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك بصخب ، ولكنه سرعان ما يملّ لعبته وتعود عيناه لتتجها الى الامام ، وتكون النار قد خمدت ولكنه يستطيع الان أن يلمح التنور الذي كانت النار تنبثق من فوهته . تلك هي الصبية الصغيرة تنحني نحو فوهة التنور بين لحظة وأخرى . ويشتد ايقاع القدمين المتربتين ، الممر المتعرج يندفع الى الخلف والكلب يمرق أمامه عاققا ذنبه الحلزوني الى الأعلى . وتواصل البندقية تأرجحها على كتف الأب واصداء الكلمات المدومة ترن عبر غابة النخيل الى اليمين وأكواخ القرية الى الأمام . العشب يخف ويفتقد تماسكه متحوّلا الى زغب ناعم يتلاشى بانسياب لتتنصب حدة الاكمة المثقلة بالرمل والحصباء . . جميلة تنتظره قرب التنور وقد توردت وجنتاها بعدما لفحهما لهب النار . يتسمان بصمت ويدها الملفوفة بخرقه تصل الى نهاية مرفقها - لكي لا تلسعها حواف التنور الملتهبه - تناوله رغيته المشبع بالدهن وتمتد اليد الملفوفة الى جوف التنور الملتهب متلقفة الرغيف الاخير ومن ثم تتناول طبق الخوص المثلل بالارغفة الساخنة العابقة برائحة الخبز الزكية ويتلقفهما باب الكوخ المعتم .

انه موسم الحصاد . يقف الاب والام وبعض رجال أنهموا حصادهم قبل أيام . يقفون متراصين أمام الحقل والمناجل المعقوفة تتلامع في اكفهم الخشنة . يتمتمون ببعض الآيات والادعية وينحنون نحو السنابل انحناء خاشعة تأمل بمحصول وفير . المناجل ترتفع ومن ثم تمرق قرية من سطح الارض باعثة في الصمت المخيم

صريرا جافا .. وتتكوم السنابل بين اقدامهم .. حازم وجميلة  
وحميد والصبية الاخرون سرعان ما يتلقفون حزم السنابل ،  
وحزمة فوق أخرى ويتكوم البيدر •

تبدأ دراسة البيدر • حبة القمح تنفصل عن قشرتها • وفي  
يوم آخر تكون الريح فيه رخية ، يسكك الالب بالمذراة ، وعاليا نحو  
السمااء الزرقاء البعيدة تتقاذف حفناات القمح والقش • الحبات  
الثقيلة تسقط على الارض تحت المذراة ، والقش الخفيف يتطاير  
بعيدا ساعة .. اثنتان .. القمح يعبأ في الاكياس •

ومن جهة الغرب ، عبر الطريق المتصل بالمدينة ، من  
خلال غابات النخيل ، يتوهج الحصان الاشهب وفارسه  
المتأرجح على صهوته بكبرياء ، فوقهما تدرج سحابة غبار صغيرة •  
انه « الملاك » صاحب الارض لا صاحب التعب ! .. يهبط عن  
صهوة حصانه بتبلد ونزق • يعطي النزر اليسير لكل فلاح لقاء  
تعبه ، والاكياس الاخرى تردف على ظهور دواب الفلاحين وترسل  
باتجاه المدينة • وقبل ان يودعهم « الملاك » يتذمر كالعادة من  
رداءة المحصول • يدس يده اللحيمة في جيب قفطانه الصوفي الفاخر  
فيرتفع ذيل سترته ويبرز المسدس الانكليزي المتدلي من حزامه  
المرصع بمسامير فضية • يخرج علبة سكاثره الافرنجية • وبأصابع  
غليظة مثقلة بخواتم من الذهب والفضة ينبش في قاع العلبة ليخرج  
سيكارة ذات عقب اصفر يركنها في زاوية فمه الرمادي ، وقبل ان  
يدس العلبة في جيبه يعيدها باتجاههم ، ويمررها بانسياب تحت



انوفهم ، فترتفع الاكف شاكرة له كرمه . تخشخش علب الثقاب  
في أكف أخرى ، ويضوع الجو برائحة الكبريت المحترق . مع  
اول نفثة دخان تنساب من منخريه المعتمين تعبق رائحة غير مألوفة  
لا تشابه رائحة سكائثرهم اللّف على الاطلاق . وللمرة الثانية  
ييدي « الملائك » تدمره لرداءة المحصول . بعد لحظة صمت مشفوعة  
بنظرة آمرة وصارمة في الوقت نفسه ترسم في عينيه المختلفتين  
تحت طيات شحمية بنفسجية اللون ، يفاجئهم بطلبه الغريب :

- « حسنا ... لقد شح الماء في النهر والارض بحاجة الى  
الاستصلاح ، وكما تعلمون فان هذه الاكمة التي تنهض على  
ظهرها اكواخ القرية تبدو كالعين العوراء في أرضي ، لذا قررت  
تسويتها بأرض السهل لغرض استغلالها في الزراعة ... وبطبيعة  
الحال انا لا اطردكم فما بيننا هو الزاد والملح ، لكنني أرجو ان  
تعذروني لموسم أو موسمين فإني ... لن ازرع هذه الاراضي  
وسأكتفي بزراعة اراضيّ الجنوبية ، وسأحاول تنظيف النهر  
وتعميقه ... على كل حال من يرغب في البقاء ليق ... ولكن ليضع  
نصب عينيه : لا زراعة خلال الموسمين أو الثلاثة القادمة ! من  
شاء فليبق فما بيننا هو الزاد والملح ! »

وتقعقع حوافر الحصان الاشهب ويتلامع لبعض الوقت تحت  
شعاع الشمس الى أن تتلقفه عتمة الغابات الكثيفة . حقا ان العين  
لن يملأها سوى التراب ! ..

اذن ما كان مجرد هاجس اصبح حقيقة لا مفر منها . تباع  
الماشية والاب يعد النقود :



- « مائتا دينار !! .. انها ثروة يا ام حازم ! .. الان جاء دور البحث عن الارض .. »

أكواخ عديدة تهجر وتصفّر الريح عبر كواها الموحشة ..  
وتحت انهمار المطر وهبوب الرياح ، تنهدم الاكواخ المهجورة ،  
الجدار الذي يسقط لن يرتفع مرة أخرى . الفلاحون يتوزعون  
عبر القرى المجاورة أو يهاجرون نحو المدينة الممتدة خلف غابات  
النخيل ، والمتسكنون منهم يهاجرون نحو المدن البعيدة . الفلاح  
الذي كان يكتفي بحفنة هزيلة من القمح والتي هي الخمس لقاء  
تعبه ، لم يعد بإمكانه أن يعتاش عليها ، فالاطفال قد كبروا والرزق  
قلّ وهناك مصاريف المدرسة ومصروف متواضع يرسل عقب كل  
موسم الى الابن الكبير الذي يؤدي خدمته العسكرية في المدن  
البعيدة .. كيف لا يسعفونه بالنقود وتلك هي رسائله تحيئهم  
حزينة ... تتحدث عن الغربة والحنين الى الاهل والاصدقاء  
والماشية والقرية ، واللهفة في الاستماع الى دعاء الوالدة الحنونة فجر  
كل يوم .. وتختتم الرسالة بثقب او اثنين خلفتهما سيكارته الملتهبة  
كالتهاب قلبه اليهم .. والام ( الحنونة ) تلطم خديها وتنطق  
بحسرة :

- « ما العمل يا ابا فلان ؟ .. اليس الولد من لحمك ودمك؟  
كيف لا نسعفه بحفنة نقود عساها تبهج فؤاده المكلوم ؟ .. »  
وابو حازم يعد النقود :

- « مائة وثمانون .. انها ثروة لا بأس بها يا أم حازم ! .. »

وبعدما يطوّف بنظراته المتحسرة عبر ارض السهل الجرداء،  
ينظر الى يديه المتجسّأتين ويتمتم بصوت أجوف مخاطبا الام  
والاطفال المتحلقين حوله :

- « أشعر براحتي وهما تتآكلانني ! .. انه موسم الحراثة •

ولكن ما العمل و « الملاك » قال : لا زراعة لموسمين او ثلاثة ! .. هل  
تتذكرين يا ام حازم كيف نطق بتلك الكلمات ؟! كان وكأنه يقول  
بأنه سيمتنع عن تدخين سيكارة او اثنتين ! .. لكم كانت الكلمات  
سهلة في فمه الشبيه بفم جثة ؟! »

تكاد القرية تفرغ .. لم يعد يسمع خوار الابقار أو  
ثغاء الماعز أو نباح الكلاب الا نادرا • « بوجي » اختفى .. هكذا  
غاص قرص الشمس خلف غابات النخيل و « بوجي » لم يعد ..  
اعتلى حازم جدار كوخ متهدم وصرخ بصوت متهدج :

- « بوجي ! .. بوجي .. بوجي ! »

وبرنة فاجعة رددت غابات النخيل صدى الكلمة اليتيمة •  
ولكنه لم يعد .. قالت الام :

- « ستجده صباح الغد امام باب الكوخ ! .. »

ولكن الاب هز رأسه بأسى وقال :

- « لا اظن .. كان كلبا نادرا ولم يكن من عادته الابتعاد  
عن باب الكوخ ليلا ! .. »

وارتسم الاسى ملء عيني حازم ولكنه كذب الحقيقة وقال :

- « قد تصدق أُمي !! »

ولكنه لم يعد صباح الغد ولا في أي صباح ... « شرهان »  
ذو الذراع الواحدة قال بأنه يظن ان العجر الذين مروا بالقرية  
قبل أيام قد اختطفوه ، و اضاف بنبرة الخير المدرك بخفايا الامور :  
- « كان كلبا نادرا ولا شيء يعادل الكلاب الجيدة عند

العجر !! »

حازم تخيل الكلب والطوق المشدود الى رقبته وتخيل  
أشياء أخرى .. ولكن « بوجي » اختفى وبقي الكلب الاسود  
« الاخرس » ملازما لباب الكوخ ، محافظاً على صمته الابدي  
وكأنه شاهد أخرس على كل ما مرّ ..! الا انه حدث تغير يسير ،  
فقد اطلق على الكلب الاسود اسم « كافور » ولكنه لم يكن تغيرا  
حقيقيا ، فحازم يكاد ان يمزق حنجرتة وهو يصرخ :

- كافور !! كافور !!

و « الاخرس » يأنف عن رفع بوزه من بين قائمتيه المتلاصقتين  
على الارض الرطبة !!

فلاحون آخرون يهاجرون .. العربات الخشبية المخلّعة ،  
- المثقلة بامتعتهم البدائية ، والتي تسحبها جياد عجفاء تدأب  
على هزّ ذيولها بصورة متواصلة لتهدش عبثاً الذباب الملتصق بتقرحاتها  
الصديدية - تقعقع على الطريق الممتد عبر غابات النخيل باتجاه  
المدينة . والفخاتي التي بلون الرماد تواصل هديلها الكئيب ،  
والاب يحسب النقود :

- « مائة وعشرون ! .. لن نستطيع شراء تلك الارض ..  
فصاحبها لا يقبل بأقل من مائة وثمانين ! » ..

تفتح الام صندوق زفافها الخشبي لتضع ، في يد زوجها ،  
حليها المتبقية من يوم زفتها • صباح الغد تتحول الحلي الى خمسين  
دينارا :

- « مائة وسبعون .. نحن بحاجة الى نقود قليلة اخرى ! »  
تباع بقرتهم الاخيرة والاثيرة لديهم بثلاثين دينارا :

- « مائتا دينار .. مائة وثمانون لشراء الارض والعشرون  
الباقية لشراء المستلزمات الضرورية لبناء المنزل ! » •

كانت أرضا مغطاة بدغل كثيف متشابك قوامه اشجار غاب  
معمرة واشجار توت وكالبتوس وزعرور وثلاث أو اربع نخلات  
عذراء لم يمس منجل فلاح ، في يوم ما ، هاماتها المغطاة بالكرب  
من الارض حتى جريدها الاخضر ، والاعشاب والحشائش وسيقان  
النباتات الشيطانية المزهرة زادت من تماسك الدغل وجعلته أشبه  
بغابة صغيرة يستحيل على المرء ولوجها دون منجل حاد • وكان  
الطريق الرئيس القادم من الشمال باتجاه الجنوب يطر من أمام  
الدغل ليتفرع منه على جهة اليمين طريق يخترق الارض المعشبة  
باتجاه الغرب حيث غابات النخيل والمدينة • وأمام نقطة تفرع الطريقين  
في الجهة المقابلة ، انتصبت شجرة سدر معمرة يدرج خلفها ،  
بموازاة الطريق الرئيس ، نهر يسمع اصطفاق مياهه الحادة في  
مجرى اخفته سيقان القصب والعليق والحلفاء وشجرات صفصاف



قميئة • كانت أرضا مناسبة رغم ضيق رقعتها • على كل حال لم يكن الاب يرغب باستغلالها لغرض الزراعة ، لأنها أضيق من ذلك ، إنما كان يرغب في بناء بيت طيني بثلاث أو أربع غرف ذات نوافذ عريضة تطل على فسحة مشجرة • كان يحلم ببيت يبنه بيديه الاثنتين ويكون لهم لوحدهم فلا يستطيع اي « ملاك » كان ، طردهم متى شاء •

على العموم من الممكن اعتبار الصفقة موفقة الى الطرفين • فبالنسبة اليهم كانت الارض تقع في موقع وسط بين القرى المجاورة اضافة الى الطريق الرئيس المار من امامها • والمدينة قريبة منها • وكانت الصفقة موفقة لصاحب الارض ، الذي لم تشكل تلك الرقعة المهمة شيئا يذكر امام أراضيه الشاسعة • وهي رقعة لم يكن بالامكان استغلالها للزراعة لكونها مغطاة بالادغال الكثيفة • وبسبب قربها من البساتين كانت تعتبر مرتعا خصبا للخنازير التي تغص بها احراش تلك البساتين المهمة • والاراضي البعيدة التي تفصلها مساحات شاسعة عن اوكار الخنازير لم تسلم من اضلافها وأنيابها ، فكيف بهذه الارض التي لو استدارت الخنازير خارجة من أوكارها لوجدت قوائمها الخلفية مغروسة بها ؟! وكانت فرصة نادرة سنحت امام صاحب الارض ، عندما عرض عليه وكيله ، الذي لا تفارق السكائر ذات الاعقاب الصفراء شفتيه ، مسألة بيعها لاحد الفلاحين بمائة وأربعين دينارا •• وفي مديرية الطابو في المدينة استلم الوكيل المبلغ ووقع على عقد البيع وكاد توقيعها أن يتلوث برماد سيكارته اللعينة •• وعلى كل حال كان

المهم بالنسبة للوكيل هو أن يسارع بدس الأربعين ديناراً الزائدة في أحد جيوب سترته ، ولاحظه « حازم » الذي صحب أباه إلى دائرة الطابو لينوب عنه في قراءة نصوص عقد البيع ، ونبه أباه فيما بعد وهما عائداً إلى القرية إلى ذلك الأشكال البسيط الذي جاء في تلك الفقرة الغريبة المكتوبة في العقد والتي تذكر بأن الأرض المرقمة كذا مقاطعة كذا بيعت إلى ( السيد عبدالغفور عريبي غافل ) بمبلغ قدره مائة وأربعون ديناراً ، في الوقت الذي استلم الوكيل مائة وثمانين !! •• ولكن ذلك المبلغ لم يشكل حاجزاً يحول بينهم وبين فرحتهم بامتلاكهم لتلك الأرض •

••• ولم يستطع حازم أن ي منع نفسه عن الابتسام عندما استفاق من تأملاته ليكتشف بأنه يفكر بـ « تلك الأرض » • وكأن هناك مسافات شاسعة تفصلها عنه في الوقت الذي لم تكن « تلك الأرض » سوى الأرض نفسها التي تستند عليها قوائم سريره الأربع !! ••

هكذا هر منذ ملازمته لهذا السرير قبل خمسة أشهر ، يفاجيء نفسه وقد استيقظ من تأملات متلاحقة شدته إلى ماض بعيد جعل الحاضر ينحسر ليحل محله بكل ما يحمله من حضور ساحق يجعله يتذكر لحظات فريدة مرت به قبل خمسة عشر عاماً أو أقل • وكان يستعيد ما حدث آنذاك بكل دقة ووضوح • والغريب هو أنه كان يعيش تلك اللحظات للمرة الثانية حتى أنه ، في بعض المرات ، كان ينتبه إلى راحتيه وهما تنقبضان وتنبسطان وكأنهما تؤديان عملاً معيناً من أعمال الزراعة كان يفكر به في

اللحظة نفسها !.. بل انه وفي احدى الليالي ، وكان ممتدداً على السرير نفسه ، وجد نفسه ، دون أن يعي ذلك ، ينزلق بتأملاته الى ليلة بعيدة لم يدر كيف خطرت في ذهنه آنذاك !.. كانت ليلة حافلة ، وقد تربح هو وصديقه « خالد » في صدر الخيمة ، والعجريات الفاتنات يكدن ان يمزقن حجب الليل بصهيل غنائهن المبتذل ورقصاتهن الداعرة وقد سال الكحل وامتزج بالاصباغ التي قنّعت وجوههن المنداة بالعرق . وحازم يرى كل ذلك بعينين اثقل الخمر اجفانهما واكسب نظراتهما الذبول والانتشاء ، وكان أن استدار حازم باتجاه النافذة المطلة على عتمة الليل فطالع عينيه وجهه تنطق ملامحه بالسكر والابتذال والعريضة . كان وجهها غريباً أعاده الى واقعه بلحظة خاطفة فانطفأ صخب الرقص والغناء وتناهى لاذنيه صرير الجنادب الزاعقة في هدأة الليل البهيم ، واكتشف بأن ذلك الوجه لم يكن سوى انعكاس وجهه على زجاجة النافذة وقد حدد المصباح المعلق فوق رأسه ملامحه بوضوح على تلك الزجاجة - المرأة !..

لمرات عديدة حاول حازم ، جهد امكانه ، توزيع انتباهه بين الحاضر والماضي ولكنه سرعان ما كان يكتشف بأن توزعه بين قطبين بعيدين يجعله أن يعيش وضعاً ذهنياً مشوشاً ، وذلك كان أمراً بالغ الصعوبة . وها هو الآن وقد صحا من تأملاته وانحسر الماضي بعيداً يحس احساس الحالم المستيقظ من نومه !... اين كان ؟ واية احداث بعيدة تمثلت أمام عينيه ؟! انها مجرد تساؤلات سرعان ما يجرفها تيار الزمن المندفع أبداً الى الامام



لتظل تلك التساؤلات بدون اجوبة ، ان لم تحمل هي أجوبتها  
ضمنا !

وها هو يطوف بعينه عبر مستطيل النافذة ليمنح السماء  
الملطخة بسحب لا تزال تواصل انصبابها باتجاه هوة نافذته ، نظرة  
قلقة تشي بما يعتل في اعماقه من رغبة ملحة بأن يرى الشمس  
تشرق بعدما احتجبت طوال الايام الثلاثة الماضية • وهناك  
عبر ذلك المزيج المؤطر باطار النافذة والمتكون من سحب متخلخلة  
ورذاذ متساقط وقمم اشجار متهدلة ، عبر ذلك المزيج المتجانس  
ببلله المشترك ، كانت عصافير منفوشة الريش تنخطف هنا وهناك  
وتصدح بزقزقة مكتومة خنقتها ضلفتا النافذة المواربتان • وكان  
شعاع الشمس ينسكب ، بين لحظة وأخرى ، على قمم الاشجار  
المتلامعة تحت انهيار الرذاذ ، ليتوارى فيما بعد خلف غيمة عابرة  
تخجب قرص الشمس •

وفي الداخل ازداد لمعان حاجر السرير الصقيل  
ووضحت معالم الكتلة المنتصبة تحت ذلك الغطاء الداكن  
اللون وعلى الصفحة الاولى للمجلة المنبسطة على المنضدة الصغيرة  
وضحت معالم تلك المستطيلات والمربعات الداكنة التي لم تكن  
سوى صور تعتيها كتابات وعناوين بخطوط كبيرة ، وكاست  
فوهة مدفع دبابة تطل عليه من تلك الصفحة مظلمة بسحابة غبار  
ودخان • وكانت الصورة مطبوعة بالاسود والابيض مما أضفى  
عليها طابع صورة قديمة خلت الحياة منها • والى الامام ، على  
الجدار المواجه كانت زجاجة الصورة المؤطرة قد ازدادت تألقا

والصور المضبية التي في الخلف بدت غائمة وغامضة وكأنها  
تتسي لزمان آخر تنهض بينه وبين الزمن الحاضر للغرفة زجاجة  
تعني الكثير .. الكثير بالنسبة لهاتين العينين المطوفتين في هذا  
الفراغ الموحش ! .. والى اليسار كان الباب على وضعه السابق مغلقا  
بصورة متماسكة ، حتى أن حازم لم يصدق بأنه قد فتح في يوم  
ما ، بل بدا وكأنه صبّ صبّا في ذلك الجدار العاري ذي اللون  
البنّي الباهت . وكاد ان يستشف ، رغم الطبقة الخارجية الرقيقة  
للجدار ، هيئة اللبنة المتراسة فوق بعضها في الداخل ! .. كيف  
لا ويدها الاثنتان رصتا العشرات منها ؟ شهران كاملان استنزفا  
جهودهم باستمرار . عشر أيدي عملت معا لتحقيق حلمها المشترك :  
الاب والام وهو وجميلة وحميد .. عشر أيدي حفرت الارض  
واضرمت النار في الدغل وحفرت الاسس وجبلت الطين ووضعت  
لبنة فوق أخرى ليرتفع سقف يستظلون به ..

... كان الاب هو الباديء ، قال :

— من هنا ...

واشار بسبابته السوداء السمكة الى الدغل ، واكمل :

— .. نبدأ ..

كان الدغل المتماسك يواجههم اشبه بجدار عشبي هائل ليس  
في المستطاع النفاذ منه ، ولكن الاب انحنى وأطبق براحة يده  
اليسرى الخشنة على قبضة من سيقان الحلفاء والعليق والسوس ،  
وبحركة افقية سريعة ومتقنة من يده اليمنى المسكة بنجل تلامع

شعاع شمس الصباح على نصله الحاد ، ثلم ذلك الجدار الاخضر  
قريبا من سطح الارض، فتكومت حزمة عشب غليظة بين قدميه ••  
ضربات سريعة أخرى وتوغلت الثلمة داخل الدغل وقريبا من  
سطح الارض بدت بقايا الاعشاب المقصوفة خشنة وناتئة ، وعلى  
الجانبين ارتفع جداران متماسكان قوامهما نباتات وحشائش الدغل  
ولكم ودّ حازم أن يخترق تماسك ذلك الجدار العشبي ليتوغل  
في الاعماق الخضراء حيث الحيوانات السرية تتناسل وتندثر بين  
الجذور الشاحبة البيضاء التي لم تمسها الشمس بضوئها في يوم  
ما ، وبين الاغصان الملتفة على بعضها ، وفي الفجوات الداكنة الفاعرة  
أشداقها في الجذوع الرمادية المتشقة او الجذوع الصفراء التي  
تساقط لحاؤها فسالت عصارتها الصغية الكثيفة عبر عروق  
سطحها الاملس • وعلى الطين الازرق المتفسخ • ولكن يديه  
الصغيرتين كاتتا منشغلتين بتجميع حزم العشب المتساقط ليلقيها  
بعيدا في الارض العراء خارج الدغل •

بعد فترة تقارب الساعتين أطلّ الاب برأسه  
من الجهة الثانية للدغل وبذلك يكون قد حفر ممرا يقسم الدغل  
الى قسمين • بطرف المنجل المخضب بدم العشب الاخضر أشار الاب  
الى القسم الغربي للدغل والذي لا يعادل سوى ثلثه تقريبا ، وهتف  
بصوت أمضه التعب :

– هنا سنبني البيت !••

ويده الثانية التي ادمتها سيقان العليق والحلفاء أشار الى  
القسم الاخر من الدغل ، وقال :



- وهنا ستكون الحديقة ..

كان وجه الاب العريض ، بلامحه الخشنة التي تركت أصابع الزمن بصماتها عبر التعرجات المتشابكة كما تحدد الريح الصخور ، بنضح عرقاً ، وكان الثوب عند الكتفين واسفل البطن وفوق الحزام وتحتته قد تبلل بالعرق . ارتكن بعجيزته المتربة على كومة عشب لم ترفع بعد ووضع المنجل ، الذي أطفأت عصارة العشب اللزجة توهج حديدہ اللماع ، على الارض . سحب كيس تبغہ الأحمر ، المزدان بزهور صفراء دقيقة ، من تحت طية حزامه ، ويدين ثابتين لف سيجارتين ، ناول احدهما للام . كانوا قد تحلقوا حوله : الام تواجهه ، لصقها ألقى حميد ، على يمينه جلس هو وبجانبه جميلة .. ومن وضعه ذاك ، عبر الفسحة المثلثة المحصورة بين ساقى الاب المشنيتين ، ملح حازم الارض التي حلقها المنجل ، وفوق ركبة الاب المكورة ملح سرب طيور متجهة الى الجنوب ففكر :

- « طيور مهاجرة ! .. »

وتذكر وجوه أصحابه الصغار الذين هاجروا مع آبائهم الفلاحين نحو المدن البعيدة ، وكانت شمس الضحى تضرب بأشعتها في كبد السماء التي بدت زرقاء لدرجة لاتصدق .  
بعد لحظات نفث الاب الدخان المحتبس في صدره مصحوبا بآهة ارتياح ، قال :

- أمامنا عمل كثير .. وها هي الظهيرة تكاد أن تزف لتصلينا  
الشمس بشواظها ! .. هيا يا حازم اجلب المسحاة ..

كان ظل الدغل يغطي أرض الممر ، ولكنه كان بنحسـر  
بالتدريج مع ارتفاع قرص الشمس • نهض حازم وأعقبته جميلة  
وقبل أن يخترقا الممر لينحرفا باتجاه شجرة السدر الضخمة هتف  
الاب :

- جميلة اجلبي معك الفؤوس ..

تحت شجرة السدر وجدا المسحاة والفؤوس • المسحاة  
مركونة الى جذع الشجرة الرمادي المتشقق ، والفؤوس الثلاثة تحت  
العباءة الصوفية المرقعة ، والتي كان الاب يملأها بكومة هائلة  
من العشب للاغنام التي بيعت قبل اشهر ..

- جميلة ! ..

جاءهما الصوت من وسط الدغل فأدارا بوجهيهما الى هناك  
وبعيدا خلف الدغل بدت غابات النخيل الزرقاء كأنها ملفعة بسحب  
ضباب خفيف ، وكانت تمتد على شكل قوس هش يحيط بالمدينة  
الرابضة خلف بحر النخيل الازرق :

- جميلة .. تأكدي من النار ! ..

انه صوت الأم ، وتذكرا قدر الطعام ، وكان خلف الشجرة  
وضع على قضيبين حديدين يسندهما من الاسفل حجران لفحتهما  
النار بهبابها الاسود .. النار خامدة وجمرات قليلة تتوهج خلال

الرماد • رفعت جميلة غطاء القدر فتصاعد بخار ساخن لنفح وجهها المنحني الى الاسفل ، وكانت كتل لحم داكنة تطفو على سطح ذلك السائل الاصفر المبقع بلطخات دهنية دائرية تلامع الضوء عليها • أعادت الغطاء ، وكمن تخاطب نفسها تمتمت :

– لم ينضج الاكل بعد ••

تناولت غصنا جافا امسكت به من طرفيه وأسندته من وسطه على ركبتها الناتئة وسحبته الى الخلف ، فقرقع صوت جاف ، تخيله حازم وكأنه صوت تهشم رضفتها •• دستهما تحت القدر وأضافت اليهما أغصانا جافة أخرى وقطع سعف وليف ، فتكاثف دخان أزرق تحت القدر • كورت جميلة خديها وتفتحت سحابة الدخان ، ولكن عبثا فقد تطاير رذاذ الرماد وتوزع في تموجات شعرها المشدود الى الخلف بشريط افتقد لونه الاصلي ، وتكاثف الدخان اكثر من السابق وتفتحت مرة ثانية وثالثة •• انحنى حازم وقرب بوجهه من وجهها ، نفخا معاً وشعر ببشرة وجهه تلامس خدها فأحس بنغزة عميقة ارجفت لحم وجهه • وانبثقت كتلة نار صغيرة من وسط الدخان ، بدت أشبه بوردة صفراء تنمو بسرعة خارقة لتتراقص ، لسننتها العديدة تحت القدر •• عندما رفعت جميلة الغطاء للمرة الثانية ، كان السائل الاصفر ييقبق ، وكتل اللحم تتراقص ، فتحلَّب فم حازم واحس بالجوع ••

– هيا •• اسرعا !••

كان ذلك صوت الاب ، تناول حازم المسحاة من عمودها



الخشبي الصقيل ،وتناولت جميلة الفؤوس الثلاثة ، وأقفا  
عائدين واصطفاق ماء النهر الممتد خلف الشجرة يملأ سمعيهما •  
تساءلت الام وهي تشدّ وسطها بخرقه برمت على شكل جبل :

- اشعلت النار ؟

- نعم •• الاكل لم ينضج بعد ••

ومسح حميد برأسه الاشعث على جنب أمه وماء بصوت  
باك :

- جائع !

فأطلق الاب ، بعدما تناول المسحاة وقذف بيصقة عريضة  
في كفيه ، قهقهة رنانة بدت وكأنها احتبست في صدره لفترة طويلة،  
امسك بحميد من شعره قائلاً بصوت مرح :

- يالك من طفل بكاء !•• الظهيرة لم تأزف بعد والاكل  
لم ينضج وأنت أصغر مما كنت أتصور !•• هيا تناول فأسا  
وكن كأخيك حازم أو كأبنة عمك جميلة ••

استدار الأب عائدا الى بداية الممر الممتد عبر الدغل • كان  
العرق قد جف على ثوبه مخلفا بقعا بيضاء مستديرة وخطوطا  
متعرجة عبر طيات الثوب الرمادي الحائل • قال :

- يجب ان نحرق الدغل اليوم •• وبعد يوم او اثنين نحفر  
أساسات البيت ••

اعترضت الام ، وكانت قد عقلت كوعياها عاليا لتعيد شد  
عصابتها على رأسها بصورة أفضل :

- قد تمتد النار الى الدغل الاخر !!

أجاب الاب وهو يغرز حديد مسحاته في الارض .

- ولِمَ حفرنا اذن هذا المر ؟ .. ثم اننا سنشق جدولا  
نوصله بالنهر فيمتد فاصل مائي بين القسمين و ..  
رفع اصبعه المبلل بعدما دسه في فمه وأكمل :

- و .. لاحظي .. الريح ساكنة ! فكيف اذن ستتقل النار؟  
ونحن كذلك سنكون متأهبين وبأيدينا جريد النخل لترويض  
النار .. ان تعدت حدودها !!

الفؤوس الثلاثة ترتفع ، وفي تلك اللحظة الخاطئة التي  
تجمد خلالها راحتا اليدين المطبقتان على مقبض الفأس الخشبي ،  
في تلك اللحظة حيث الارض المزغبة ببقايا الحشائش تמיד  
أمام العينين المجهدين والشمس تنخطف على حديد الفأس النماع  
في الاعلى ، تضخ الكتفان المتوترتان بقوة مضاعفة عبر الذراعين،  
فتهوي الفأس باندفاع لا يردّ ثلثة ، بجديدها الصقيل ، الارض  
الهشة حيث التراب المفتت يكشف عن أحشائه الرطبة التي تشابكت  
خلالها ببقايا الجذور الدقيقة والاوراق المتفسخة والحصى الناعم .  
الأرض المثلومة تفوح برائحها الطرية ، والفؤوس الثلاثة تتابع  
صعودها وهبوطها ، ومن الخلف يتناهى لاساعهم صوت ارتطام  
المسحاة بكتل التراب ، المسحاة المستقرة بين راحتي الاب تعمق

الجدول وتقذف بحففات من التراب بعيدا فيسمع لوقوعها على  
العشب خشخشة مكتومة ، وبين لحظة واخرى تلتقط أذنا حازم  
صوت ارتطام المسحاة بحجر يصدر عنه صوت معدني جارح ،  
والفأس التي عرقت راحته على مقبضها تصطدم بقطع حصي  
متوحدة بلحمة الارض ، فيتطاير ، أمام عينيه المجهدتين ، شرر  
خاطف ، ويعيد الكرة .. الا أن اباه يزرجه بصوت مجهد :

- ملعون ! .. دعك من احتطاب الاحجار وواصل عملك ..

جميلة أمامه تضرب الارض بفأسها وقد أحتت بقامتها اسفلا ..  
والثوب انحسر عن ساقها المتربتين وخيط دم داكن تلوى على إحدى  
ساقها ، ومن الامام يصله لهاث الام ودقات فأسها على التراب  
الصلب ، وحديد يدب قريبا منها متشكيا بصوت خافت من أنه  
جائع .. وعندما لم يأل جهده لنتيجة ، افترش كومة العشب  
وسرعان ما غط في النوم .. والجدول يمتد ومن ثم يتدفق الماء  
بيطء في البداية ، حتى اذا ما تشبعت الارض به جرى بسرعة ..  
ومن الطرف الاخر يتسرب الماء ليتوغل في أرض حرثت قديما  
فامتلاّت بالاخاديد .. وينتظرون الى أن يطفح الماء على حافتي  
الجدول .. شمس الظهيرة تتعامد فوق رؤوسهم لاسعة مؤخرة  
رقابهم ومنحدرة الى الاسفل لتحدد على الارض ، بين اقدامهم المتربة  
.. ظلالهم الاربعة التي بدت وكأنها انكششت على نفسها لشدة  
القيظ . ومثلما يتكبد الجندي سلاحه قذف الاب بمسحاته على  
كتفه وهتف بهم :

– هيا .. لتتغدى الان ومن ثم نحرق الدغل !! ..

وكان لكلمة « تتغدى » وقعها السحري فقد دبت وشوشة مكتومة في كومة العشب التي تمدد حميد فوقها ، ولم تغفل أذنا الاب عن تلك الوشوشة فناده بصوت مرح :

– هيا أيها البكّاء لقد ازف موعد الاكل !! ..

ودبت الحياة في الدغل ايضا ، فقد بدأت سيقان القصب والحلفاء تتراقص ، فاستداروا برؤوسهم .. فاذا بالدغل ينشق عن كلبهم « كافور » وكانوا قد نسوا وجوده منذ الصباح . نظر الكلب اليهم بوقار – بدا مناسبا لحجمه الضخم – واقترب منهم متشمما الهواء ، ولكن سرعان ما تجاهلهم واندلق لسانه الوردي خارج فكه الرطب وبدأ يهتز مثل بندول الساعة .

قدح الشاي الساخن خير ما يعقب وجبة غذاء جعلت الخدر يسري في الجسد الذي أجهدته العمل الشاق . ولا أروع من تدخين سيكارة فيما بعد : حيث الورقة تستقر بين السبابة والابهام ، وبأطراف اصابع اليد الثانية يؤخذ قليل من التبغ الاشقر ذي الرائحة الحادة النفاذة ، يوضع داخل تقعيرة الورقة ، بطرف اللسان الوردي الرطب الذي لا يزال محتفظا بنكهة الطعام ، تبلل حافة الورقة ، وبحركة سريعة ومتقنة من السبابة والابهام تنطبق حافتا الورقة . تغرس بين الشفتين ، وقطع الحطب الملتهبة الاطراف كثيرة في الموقد .. السيكارة توقد والرئتان المجهدتان تمتلئان بكمية كبيرة من الدخان . لحظات .. ويتدفق الدخان من المنخرين والنهم ..



عندها يكون كل شيء في موضعه الصحيح : ظل شجرة السدر  
الطري رغم حرارة الظهيرة ، والدغل الممتد امامهم حيث البيت  
المنتظر سيرتفع في أحد قسميه قريبا فيصبح مستقرهم آمنا والى  
الابد ، والزوجة المجددة التي تشاركه في تحمل أعباء العمل ،  
والاطفال الرائعون المتعلقون حوله وأعينهم البراقة تنطق بالدهاء  
والبراءة معا . هكذا هجس حازم بما يدور في ذهن ابيه وهو ينتقل  
عبر وجوههم الصغيرة بعينين ثاقبتين هبط حاجباهما باتجاههما بسبب  
وهج الظهيرة . وها هو الاب ينظر باتجاهه ، وبعينين وهميتين  
استعارتهما الذاكرة ، حدّق حازم بوجهه هو : فطالعتة عيناه الضيقتان  
المرتكتتان تحت جبهة عريضة ، وطالعه أنفه الكبير ، المشابه لانف  
الام ، والمتدلي بين شفثيه المكتنزتين المشابهتين لشفثي الاب ..  
حسناً انه وجه يبعث على الرضى بكل تأكيد ! .. وبعيني الاب أنتقل  
حازم الى وجه حميد فطالعه الخدان المتدليان وارنية الانف الصاعدة  
الى السماء وشفثان لم تغسلا جيدا فيها هي بقعة دهنية صفراء تمتد  
عبر زاويتيها . وانتقل الى وجه جميلة الذي تكاد العينان  
الواسعتان ان تقاسما نصفه .. اذن كل شيء في موضعه الصحيح .  
ولكن لا فما هو الاب يتساءل بعدما اتبه الى هذه النظرة الملحة  
والمرتسمة في اعينهم الست :

- حسنا يا أولاد ! .. أرى انكم تبيّتون امرا !!

ها أوضحوا ..

وانبرى حميد صارخا بعدما نفذ صبره !

- نسبح !.. نريد ان نسبح في النهر !... ..

الام لم تعترض وكذلك الاب ، ولكنه أبدى تحفظه في أن  
تشاركهما جميلة في السباحة ، قال :

- وان تكن صبيّة في عامها التاسع ولكنني لا أرغب في أن  
أراها وهي تسبح عارية !.. ..

كحل وسط تقرر ان تسبح جميلة دون ان تنزع ثوبها  
الاصفر .. ..

كان حازم أول من نضا الثوب عن جسده ، وارتقى حافة النهر  
المثقلة بسيقان قصب وحلفاء تخللتها شجيرات صفصاف قمية ، بدت  
بلونها الاخضر المزرق ، أشبه بلطخ تتناثر مع ذلك النسيج النباتي  
الذهبي اللون الممتد مع امتداد حافتي النهر المتعرجتين ، وكان الماء  
في الأسفل يجري سريعا وأشنات خضراء تتماوج على السطح الازرق  
القريب من الحافة ، وأشعة الشمس تنفتت الى شرائح  
زجاجية تتلامع عبر طيات التيار الحاد .

احتوت جسده برودة الماء الجاري وأحس بالقاع  
لزجاً في الاسفل . عندما غمر حازم رأسه تحت الماء  
طلق التيار يجرفه سفلا .. .. وبنبرة سريعة أخرج رأسه نافضاً  
الماء من شعره . وتمسك بكثة من الحشائش المتدلية . كان  
حازم هناك في الاسفل محاطاً بحافتي النهر .. .. وعاليا بدت قبة  
السماء الزرقاء بعيدة بعدا سحيقا ، وللمرة الثانية لمح سرب طيور

تهاجر جنوباً فارتسم امام عينيه المخضلتين بالماء وجه ابيه وامه  
وفكر :

- « ولكن لا !! تلك هي أرضنا .. وايام معدودة ويرتفع  
فوقها منزلنا الذي سنشيده بأيدينا .. وتلك .. تلك مجرد طيور  
مهاجرة ! .. »

وعادت كلمات ابيه عن الارض والعمل والانسان توشوش  
اذنيه المزغبتين .. ولكن قهقهات جميلة وصرخات حميد سرعان  
ما قطعت عليه تأملاته ، وعندما اشرب بعنقه فوق كتف النهر ، أغرق  
في ضحكة مجلجلة ، جعلت شتائم ولعنات حميد ترتفع الى عنان  
السماء ، وكان حميد عاريا كما ولدته أمه فبدا ببطنه الناتيء واليتيه  
المسطوطتين أشبه بكتلة شوهاء لا تحتاج الا لضربة خفيفة لتتدحرج  
اسفلا باتجاه الدغل . وجميلة التي تنفجر في الضحك لاتفه سبب ،  
لم تستطع كبح جماح ضحكتها الصاخبة وهي ترى امامها تلك  
الكتلة الزاعقة تكاد ان تنفجر غيظاً تحت وهج شمس الظهرية ،  
وجاءت ضحكة حازم لتزيد من الطين بلة مما أسقط في يده ولم  
يجد حميد بداً من أن يجابههما بطريقة عملية ، وهكذا ترك الحياء  
جانباً واستقام بجسده - وكان قد تكوّر على نفسه ساتراً وسطه  
من نظرات جميلة الوقحة وتعليقاتها البذيئة - ودفع بوسطه الى الامام  
منذرا اياهما بانه « سيبول ! » عليهما ان لم يدعاه وشأنه ، ورضخا  
لتهديده ، ولكنهما لم يستطعا كتم الضحكات الكظيمة التي كانت  
تنتابهما بين لحظة وأخرى .. وبيطء وحذر انحدر حميد نحو الماء  
.. ولكن القاع العميق سرعان ما جذب به ، ومثل حجر ثقيل يهوي

من علو شاهق ، غاص في لجة التيار وبصعوبة استطاع اخراج رأسه فوق الماء .. الا انه لم يستطع منع فمه أن يشرق بالماء المحبّس في حلقه ، مما جعل عدوّه اللدودين ينفجران في الضحك للمرة الثانية ، وحالما تنشقّ الهواء قذف في وجهيهما بشتائم التقليديّة التي ترداد صداها بين حافتي النهر وفوق التيار الحاد .

جميلة انحدرت نحو النهر أيضا .. الثوب الاصفر القديم المضمّخ بالعرق والغبار تشرب بالماء فالتصق بالجسد النحيل الناتيء .. ها هي وقد انتصبت امامه حيث التيار ينحدر باتجاهه حاملا لعريه رائحة جسدها ... انها تقف منفرجة الساقين والماء يبقبق حولها بصخب ويتشرب القماش الاصفر بالماء فيدكن لونه ويلتصق باللحم الساخن وتتوضح معالم البطن المستديرة ويبرز الفراغ الدائري عند السرة تحت الثوب . ومن الخلف تنطلق صرخات حميدة الزاعقة .. انه يصرخ ويتشبث باغصان الصفصاف المتدلية . ويصرخ كرة أخرى مدعيا بان السمك يقضم اصابعه ، وجميلة تنبري له هاتفة من خلال ضحكتها المهشمة :

- أخشى أن يقضم السمك أشياء أخرى من جسدك ! ..

انها تغوص والماء يصل الان الى الكتفين وقد استندت على راحتها في القاع اللزج . وتبرز رماثا كتفيها ويتوتر عظاما الترقوة تحت الجلد الاسمر المبتل الظاهر من خلال فتحة الثوب العريضة . تقذف برأسها الى الخلف وتمنح وجهها للسماء ومؤخرة الرأس تغوص ... حازم يلح أسفل الذقن والمنخرين المعتمين ..



لحظات ويختفي الوجه .. تاركاً فوق سطح الماء دوامة صغيرة  
سرعان ما تتمزق عندما يبرز الانف فالذقن فالوجه بأجمعه .. الشعر  
تراجع الى الخلف والتصق بالجبين والصدغين وانحدر مع انحدار  
الرقبة .. انه صقيل وكأن جنيات الماء الخفيات قد مشطنه  
بامشاطهن السرية :

- انظر ! .. ان شعري صقيل كشعر عروسة ! ..  
وينبري حميد صارخاً :

- عروسة ! .. عروسة ! .. سأخبر أبي ! ..  
الماء ينفلت من أسر النهر والكرات البلورية تتوهج في ضوء  
الشمس لترتد للأسفل .. ويسمع صوت تقصف اغصان يابسة ..  
فيتوقف الصبية الثلاثة عن الصخب وتجذب السماء الزرقاء انتباههم  
.. دخان كثيف يزحف جنوباً .. حازم يهتف :

- انها النار .. اضرم أبي النار في الدغل ! ..  
جميلة تنفلت أولاً ، تنشق سيقان القصب والحلفاء عن قامتها  
المشربة بالماء لتتحدّر للأسفل ، الثوب الملتصق بجسدها يرسل حفيفاً  
حاداً وحافة النهر تتبلل وخيط ماء متعرج يتبع خط سير جميلة  
راسماً على التراب أثراً رطباً يتصاعد منه البخار .

النار تقعقع زافرة بضراوة خلال اشجار الدغل . الام والاب  
يقفان في طرفي الممر المائي ويبد كل منهما جريد أخضر . ودون ان  
يغفل الاب مراقبة النار المستعرة ، يهتف بحازم بصوت منفعل .:

- هيا يا حازم تحوّل الى الجهة الثانية وشارك أمك في مراقبة النار! .. وانت يا جميلة تعالي هنا .. حسنا .. خذي هذا الجريد ، وحالما يتلقف أيما غصن من القسم الاخر النار اضربه بالجريد فتخمد النار ! .. وانت يا حميد أبتعد ! .. فقط أريدك أن تبتعد عن النار ! ..

النيران تجّار وهي تسري عبر الهشيم سريان الريح في صحراء مفتوحة • الهواء يتخلخل وسحب الدخان البيضاء المزرقة تتصاعد على هيئة كتل منفوشة سرعان ما تفقد تماسكها كلما أُمعنت في الصعود عاليا • و « كافور » يقف مبهوراً واللهب المتراقص يلتمع في عينيه المشدوهتين ولكنه سرعان ما يقفز خلف كتلة بيضاء تنفلت من بين الدغل الملهب • يصرخ فيه حازم :

- أرنب ! .. هيا صده يا كافور ! ..

ويرجع الكلب والخيبة تثقل عينيه ، النار تزحف بسرعة لا تصدق وكأنها تتبع من جسد الدغل • دقائق وتكمل حلقة النار ! .. انها تحيط بالدغل احاطة السوار بالمعصم .. كتلة متماسكة بألف لسان تندلع هنا وهناك وكثافة الدخان تقل مفتقدة تماسكها السابق والنار تتراجع بهدوء ويفتقد اللهب البرتقالي حدته والشمس تغطس خلف قوس النخيل المعتم ، وهياكل الاشجار المتفحمة تنتصب وسط الرماد الملهب الاحشاء ليتساقط بعضهما بخنوع ، وليصمد البعض الآخر بكل تحد • الشمس تغيب تماما ولا يتبقى منها سوى لطخة برتقالية تنتصب كخلفية مناسبة لغابات النخيل المدلهمة • العتمة تزحف من جهة الشرق والسماء تهبط نحو الارض

وتبقى الوجوه الخمسة تتوهج على لهب النار الخامدة : وجه الاب  
الذي ضاعف الاجهاد من حدة ملامحه ، ووجه الام الرمادي الممطوط  
والمحاط بالقوطة السوداء ووجهه هو « حازم » الذي لا يعلم على  
أية هيئة يتبدى في عيني جميلة الناظرتين اليه وقد تشربت وجنتاها  
باحمرار خفيف • ووجه حميد الصغير ولهب النار يتلامع على خديه  
المستديرين وعلى أرنبة انفه الصاعد نحو سماء خلت من أسراب  
طيور مهاجرة •

... وفي الخارج ، خلف مستطيل النافذة ، كانت السماء  
زرقاء مبقعة بندف سحب منخفضة لم يستطع أن يتأكد من مدى  
انحدارها نحو الارض بسبب اضطجاعه على السرير وارتفاع الحافة  
السفلية للنافذة عن مستوى رأسه ، ولكنه هجس بأن تلك السحب  
لا تزال تغطي مساحة واسعة من السماء ، فالشمس ان سكبت بالنزر  
اليسير من شعاعها للحظات ، عادت لتحتجب من جديد • وكانت  
العصافير قد صعدت من حمى اعتراكها بين قمم الاشجار المتمايلة  
بانسياب • • وعصافير أخرى مستوحشة هزمت في معركتها بين  
الاشجار ، تنفلت بقفزة واحدة وباجنحة مفتوحة لا تطرف لتحط  
على قضبان النافذة وتتشبث هناك دون ان تلمح ذلك الجسد المضطجع  
في عتمة الغرفة ، وحازم يحتبس انفاسه في صدره رغم تأكده من  
عدم احساس العصافير بوجوده على الاطلاق • • العصافير المذعورة  
تفغر مناقيرها القصيرة الوردية بانشداه ، والسنتها الدقيقة تهتز  
بعصية والزغب البني يخفق تحت حناجرها ، وأجفانها البرتقالية  
الشفافة تسدل وترتفع بسرعة خاطفة • تستدير العصافير برؤوسها

هنا وهناك لترسل ، بين لحظة وأخرى ، زقزقة ثاقبة فشل زجاج  
النافذة في خنقها ، ومن ثم تتنصت بانتباه وكأنها تنتظر ان تنطلق  
زقزقة مماثلة من بين الاشجار التي طردت منها •

ان اغلب العصافير المهزومة من الذكور ذوي الظهور البنية  
الغامقة المرقطة ولا بد انها افتقدت اناثها في ذلك الصراع المحتدم بين  
الاعصان ، فها هي تتنادى عليها دون ان تحظى بجواب ولكنها  
لن تيأس •• وسرعان ما تنخطف فجأة بقفزة واحدة وجناحين  
مفتوحين فتبتلعها خضرة الاشجار وترتفع الضجة اكثر •

حازم يعود بعينه الى الداخل متلمسا بكفه السطح الخشن  
للجدار البارد •• انه الجدار نفسه الذي استنزف جهودهم طوال  
ذيك الشهرين البعيدين حتى كاد التعب يتسرب الى لب عظامهم  
•• ولكنه كان تعباً رائعا لا يقارن على الاطلاق بما يشعر به الان  
وهو منغمر تحت سيل الهواء الراكد في قاع هذه الغرفة • لشدة  
ما يرغب في أن يدفع بجسده عاليا لتطول يده ضلفة النافذة فيشرعها  
ويغترف الهواء النقي الرطب بملء فمه ومنخريه الواسعين ، ولكن  
الحمى اللعينة والتبلد الذي يعقب الاستيقاظ من نوم محموم وصعوبة  
دفع جسده عاليا ، كل تلك الاسباب مجتمعة اجبرته على الاستغراق  
في خدر اضطجاعه من جديد •

هكذا يظل يجابه ، من على سريره ، وحش الزمن  
الخرافي • الثواني تنطفيء وكذلك الدقائق والساعات  
•• والايام تمر ! ولكن قد تستحيل دقائق الزمن الآخر - الزمن  
الذي في الرأس - الى سنين مديدة لن تتمكن الساعات النابضة



بغناء وآلية من استيعابها !.. ورغم ذلك يظل الزمن الحاضر  
البوابة المؤدية الى الزمن الاخر والمطة على الزمن القادم !.. ووجد  
سؤالا مفاجئا يومض في ذهنه .

- « كم تكون الساعة الآن ؟! »

لولا الغيوم لاستطاع الاستدلال على الوقت عن طريق اشعة  
الشمس الساقطة عبر النافذة على الجدار المقابل : فهناك على زجاجة  
الصورة المعلقة ، تنعكس البقعة الضوئية ، وعندما يكون الوقت بين  
الثامنة والتاسعة فان تلك البقعة تنعكس قريبة من الزاوية العلوية  
المجانبية للجدار الايسر ، وكلما انصرم الوقت وارتفع قرص الشمس  
هبطت البقعة عبر زجاجة الصورة الى أن تغادرها نهائيا بين الساعة  
الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف حيث الشمس تكون قد  
تعاملت على الارض . هناك في القرية القديمة - التي لم يبق منها  
سوى بقايا جدران بعدما هجرها الفلاحون وماتت « زهرة »  
المعتوهة - هناك كانت امه تستدل على الوقت بالطريقة نفسها .

... كانت الكوة القريبة من أرض الحجرة الضيقة المسقوفة  
بأعواد القصب ، تنفتح نحو الشرق . وحالما تطل الشمس برأسها  
الذهبي من خلف التلال المضبية لينصب شعاعها عبر أرض السهب  
الداخنة محددا على الأرض ظلال الاشياء التي تعترض سبيله ،  
كانت بقعة ضوء ترسم على الجدار المقابل للكوة وكأنها شمس  
صغيرة اقتنصتها عتمة الحجرة . وكانت تلك البقعة المتوهجة تهبط  
بطء مع ارتفاع قرص الشمس فتندلق على سترة داكنة اللون معلقة

باستمرار على الحائط ، مخددة الطيات المستقيمة للسترة التي كان  
لونها الداكن يمتص سطوع البقعة المضيئة فيعكر توهج جوف  
الحجرة لبعض الوقت ، الا أن الازرار الدائرية العريضة كانت  
تلتصع تحت حدّة الضوء المنسكب فيشع الوهج على هيئة دوائر  
ملونة اشبه بأقواس قزح تحيط بتلك الازرار • والبقعة الضوئية  
سرعان ما تنحدر أكثر مخلفة السترة لتبتلعها العتمة من جديد ،  
والوهج ينسكب على الحائط الطيني العاري بحدّة فتوضح الشقوق  
المتعرجة المنتشرة فوقه وتلتصع تتف القش الملتصقة بلحمة الجدار  
الذي كان حازم يكتشف فيه القواقع ووسائد الثعابين ، واشعة  
الشمس تمنع في كشفها لخفايا الجدار مظهرة قطع زجاج ملون ، بل  
انها كشفت لعيني حازم ، في إحدى المرات قطعة نقدية ، بادر الى  
انتزاعها ، وبعد محاولات شتى عن طريق الملح والحوامض تمكن  
من انتزاع طبقة الصدا عن تلك القطعة النقدية ، ففوجيء بأن  
النقوش والكتابات المنتشرة على وجهيها تخالف نقوش وكتابات  
النقود المتداولة التي تحمل على احد وجهيها صورة « الملك » وعلى  
الوجه الآخر قيمة القطعة النقدية • على كل حال مما لاشك فيه أن تلك  
القطعة النقدية هي قطعة نقدية فعلا وتلك مسألة لا يختلف فيها انسان،  
أما لماذا تختلف عن النقود المتداولة ؟ فهذا لم يكتشفه الا في المدرسة  
حيث ان تلك القطعة المنبوذة كادت توقعه في مشكلة كان في غنى  
عنها ، فقد اشترى من بائع الباقلاء - الذي هو فرّاش المدرسة في  
الوقت نفسه - صحن باقلاء ودفع له تلك القطعة مؤملا نفسه ان  
يمنحه الباقي ، وكادت ان تسلس داخل كيس نقوده ، لولا انه

انتبه اليها في اللحظة الاخيرة ، ودون ان يضيع وقته أطبق براحة يده عليها واطبق باليد الاخرى على كتف حازم ساحبا اياه نحو غرفة « المدير » . وهناك وبعد محاضرة مطولة عن « جريمة ! » غش الآخرين اكتشف حازم بدهشة ، حسبها المدير دهشة مصطنعة ، بأن تلك القطعة هي من النقود « التركية » الملقاة ولولا صغر سنه لعوقب بشدة ...

وكانت البقعة الضوئية تواصل انحدارها مع ارتفاع الشمس لتزحف على أرضية الحجرة وقد ازدادت استطالة ، وتنساب على حصير عمل من جريد النخيل ، ومن ثم ترتقي سجادة بهت ألوانها ، وتتقرب بالتدريج من فوهة الكوة التي تنبثق منها الى الداخل ، وتتحول الى نصف دائرة ، والنصف الاخر يندلق على حافة الكوة نفسها ، الى ان تذوب بالتدريج وتختزل على هيئة شريحة مقوسة تنسكب على الارض قرب الكوة ، من ثم تختفي مخلفة وراءها ضوءاً هلامياً لا تحده حدود واضحة .. عندها يكون جوف الغرفة مضاء بدرجة شديدة ، فشمس الظهيرة قد تعامت على الارض ، والكوة تتلقف انعكاس الضوء المتوهج .

الساعات تمر والشمس تنحدر الى الجهة الثانية للقرية لتتلقفها غابات النخيل الملفعة بالضباب ، والضوء يعتكر عبر الكوة المظلة على سماء تكاثفت زرققتها ، والشمس تغيب تماما والاشياء تفتقد تماسكها السابق . الليل يدلهم وحازم ، وهو متمدد على فراشه مع الآخرين ، يستطيع أن يهجم موضع الكوة بما يلوح من عناقيد نجوم متناثرة في السماء السوداء ..

فجر كل يوم تكون الام أول من تصحو ، ومن خلال الكوة تشف السماء وتكتسي بلون رمادي عميق تنبض فيه نجوم متفرقة سرعان ما تنطفئ واحدة عقب أخرى • الام تنسلّ من تحت الفراش الدافئ وحازم يحس بجانبه الملاصق لها وقد ابترد • في جوف الكوخ تستعر النار في الموقد وامامها يتربع الأب متحنجا باحتراس وهو ينظف حنجرته • نادرا ما ينام الاب معهم في الكوخ فأعمال الحقل وحراسته تستدعي منه أن يكون قريبا منه ، فينام هناك في جوف كوخ مخروطي صغير عمله من السعف والقش ، له باب من الصفيح يصرّ ويقعقع كلما هبت الريح • أول ما يبادر الاب الى عمله بعد استيقاظه هو لف سيجارة يوقدها من النار التي يصطلي على لهبها ، وحازم يسمع رشقاته الصاخبة من قدح شايه ، تلك الرشقات المصحوبة بضبابه دخان تنبثق من قمه ومنخريه المشعرين ، تتلوى صاعدة لتمرزج عند السقف الاسود بدخان الموقد •

في الصيف ينام حازم مع ابيه وحמיד في الفسحة الممتدة امام باب الكوخ والمحصورة بين الدكة الطينية ، التي على يسار الباب ، والدكة المواجهة لها ، والتي تنتصب قربها شجرة توت ، خلفها ينحدر سفح الاكمة بتقوس بطيء ليلتقي بارض السهل الممهدة على مدى البصر والتي لا يعكر انسيابها سوى خط التلال الجنوبية الرمادية اللون • وجميلة تنام مع عمته في جوف الكوخ صيفا وشتاء •

ان حازم يضطجع عادة تحت شجرة التوت ولن يرضى عن موضعه ذاك بديلا • ولو سئل عن سبب تشبّثه بذلك الموضع ، لما



استطاع ايجاد الجواب المناسب • قد يقول بأن تفضيله لذلك  
الموضع يعود الى الشجرة • ولو قيل له : وما الذى تعنيه شجرة ينام  
المرء تحتها؟! اعط للمرء فراشا وثيرا ولينم تحت شجرة أو صخرة!  
فما الفرق؟ فالنوم يظل واحدا في الحالتين؟ •• ولكن حازم لن  
ينام الا تحت شجرة التوت الاثيرة لديه ، فمذ تفتحت عيناه على الدنيا  
وجد الشجرة تقف بشموخ امام باب الكوخ • وعندما استقام  
بقامته الصغيرة واقما على قدميه الطريتين لاول مرة ليستشرف آفاقا  
أبعد ، وجد الجذع المكين قريبا منه يستند اليه ، ومنذ ذلك الوقت ،  
كلما لفح الصيف الارض بلهيه ، يفرش حازم ، فوق الاوراق  
الصفراء المتساقطة ، فراش نومه ووسادته المتخمة بالريش ، ويضطجع  
يهدوء متسعا لاصوات الليل الغامضة ولصرير الجنادب وخفق  
الاجنحة المكتوم • وما أكثر الليالي التي غفا خلالها على هدهدة  
اصوات الرجال المتحلقين على الدكتين المقابلتين ، مستمعا لاحاديثهم  
الشجية عن الحروب التي خاضوا غمارها وعن جرائم الاقطاع  
والشيوخ • وما أكثر ما تناهت لاذنيه ، وهو بين اليقظة والنوم ،  
كلمات غامضة استغلت على فهمه آنذاك كـ « الملك » و « الانكليز »  
و « الثورة » واستمع ايضا للحكايات التي تتحدث عن تاريخ  
العرب القدماء الحافل بالامجاد والبطولات ••• و « فلسطين »  
كانت أيضا ضمن الابدجية التي لقن بها من تحت الشجرة •

مع انبلاج الغبش الرمادي وانفتاح السماء من جهة الشرق  
على أول خيط ضوء ، يستيقظ حازم وكأنه والشمس على موعد ،  
ولكنه يظل مضطجعا على فراشه وضجة العاصفير المتخاصمة على

الشجرة تنصب في أذنيه • وبعينين مثقلتين بنعاس لا يرد يتطلع  
الى السقف الاخضر المرتفع فوق رأسه • غصن يعلو غصنا ، وورقة  
فوق أخرى تتشابك ببعضها مفتقدة الحدود الفاصلة بينها ، وفجوات  
دائرية تنفتح خلالها تطلّ منها سماء زرقاء لا تشوبها شائبة • والرياح  
تنساب بهدوء فتتلاطم جزئيات السقف الاخضر ، والفجوات الزرقاء  
تبادل مواقعها بانسياب ، فتبدو السماء كأنها تسيل لتتشرب الاوراق  
المستديرة ذات الحواف المتعرجة بدمها الازرق ، والسقف المرتج  
يرتفع ويعلو متلفعا بضباية كثيفة ، وتغيم حدود الرؤية ، والسكون  
المطبق يكتنفه بالتدرّج مثل شرقة لدنة • ولكنه سكون لا يستمر  
طويلا ، فها هو شيء ما يدب قربه وصوت غامض يرتج في تجويف  
أذنيه ، وها هي دفقة الم مفاجئة تلسع جلدة رأسه • • والشرقة  
المطبقة على جسده تختض وتختض ، فيفتح عينيه بارتعاب ودهشة ،  
وسحب الضباب تتبدد • • ها هي العصون المورقة للشجرة تعطي  
وجهه ، وبجانبه جميلة وقد غرست ركبتيها في جنبه حتى كادت أن  
تكتم انفاسه ، وهي تكرر بضحكتها المعهودة ساحبة اياه من شعره  
تارة ومن أنفه أخرى وهازة جسده في مرة ثالثة ، في النهاية يستيقظ  
على مضض وجميلة تنفلت لتتلقفها عتمة جوف الكوخ حيث انها  
تصبح بحماية عمتها ان حاول حازم ايداءها بعدما نغصت عليه نومه •  
وكان خوار الابقار وثغاء الماعز والاغنام ونحضة ابيه المعهودة ،  
وهو ينظف حنجرته ، وشخير حميد ، كانت تلك الاصوات المتنافرة  
مع بعضها سرعان ما تلغي النوم عن عينيه نهائيا ، فيحلق بأنبهار  
الى الشجرة والسماء الزرقاء ، ومن ثم يستوي واقفا على قدميه ،

مستنشقا الهواء العذب ومستشرفا سنابل القمح المتمايلة بانسياب  
تحت شمس الصباح •

ولكنه تنازل عن مضجعه الاثير لـ « أكرم عبيد » المطارد من  
قبل رجال الشرطة ، والذي كان مجرد ذكر اسمه يجعل الدم ينحسر  
ربعا من وجه حميد ، فتسغفه الام بكوب ماء محلى بالسكر ليعود  
الى حالته الطبيعية !! ••

لقد سبقت قدوم اكرم الى القرية حكايات كثيرة بولغ في العديد  
منها ، ولكنها كانت تتفق باجمعها بان اكرم عبيد أتى بعمل خارق ،  
وذلك بتحديه للسلطة والتجائه الى الاحراش •• وفي الحقيقة فانها  
لم تكن المرة الاولى التي تتخذ غابات النخيل ملجأ للهاربين ، فقد  
كانت الادغال والاحراش التي تكتنفها ، مكانا نموذجيا للهاربين  
من الخدمة العسكرية واللصوص المحترفين والمطالبين بالثأر ، أما  
أن يتحصن بها انسان تمرد على السلطة « الملكية » فذلك ما لم  
يحدث قبل اكرم عبيد !!

لم تكن تلك الحكايات جميعها من نسج الخيال ، فحازم واثق  
من أن ما ذكره ابوه عن أكرم صادق بدون شك ، لان الاب بحكم  
ما كان يقوم به من أعمال لقاء أجور معينة في تلك البساتين ،  
كالتكريب والتلقيح وتقليب الارض وتنظيف الانهار التي تطمس  
السيول المتعاقبة مجاريها بالدهلة والغرين ، لم يكن غريبا ان يصادف  
ويلتقي بأكرم عبيد بل انه زوده - خفية - بالتبغ والزاد وارغفة  
الخبز والتمر وما شاكل ذلك أكثر من مرة ! وعلى كل حال فقد بدت

تلك الحكايات في نظر حازم وكأنها تتحدث عن انسان اسطوري ، الى أن حلت تلك الليلة التي لن تغيب عن ذهن حازم على الاطلاق .

كان الشتاء على وشك الانقضاء ، الا ان البرد لا يزال يلنحهم بسياطه ، فلم يكن غريبا على حازم أن يشعر بقشعريرة مفاجئة تهز جسده عندما صحا من نومه على ذلك اللفظ الغريب . . . ولكنه كان واثقا من أن تلك القشعريرة لم تكن بسبب البرد ، بل كانت بسبب ذلك الوضع الغامض الذي فاجأه واطار النعاس عن عينيه . عبر الظلام المخيم في جوف الكوخ ، سمع أمه تعد ، باحتراس وارتباك ، فراشا في قعر الكوخ وسمع أباه ، الواقف أمام الباب المشرع على سماء داكنة تنبض في قاعها النجوم بصمت ووحشة ، سمعه وهو يلهث ، وتخيل حازم بأن حدة غريبة نمت على ظهر أبيه . كانت حدة كبيرة امتدت من رقبته الى ركبتيه . وعندما أمعن النظر ، بعدما تعودت عيناه على الظلام ، اكتشف بأن تلك الحدة ليست سوى كتلة ضخمة تعتلي ظهر أبيه .

وسمعت خشخشة سـعف وحطب أعقبهما صوت احتكاك عود ثقاب . على ضوء النار المستعرة في الموقد برز هيكل الاب المحنى وجثة رجل تعتلي ظهره وخلفهما امتد ظلهما المزدوج باتجاه الباب المشرع ليتوحد بالظلام المنداح في الخارج . برفق وحذر مدد الاب الجثة على الفراش ، وعندها فقط لاحظ حازم بأن بندقية الصيد كانت معلقة على كتف ابيه الذي اسقطها بحركة سريعة من على كتفه فاستقر حزامها في يده ، وعلقها على الحائط دون أن تفارق عيناه الجسد المسجى قرب النار .



بدا ذلك الجسد المستكين وكأنما قد أقحم على الكوخ المتآلف  
مع محتوياته البسيطة : حب الماء الراشح بانسياب في زاوitiesه  
القضية ، وكيس القمح وبجانبه خصاصيف التمر الموضوعة واحدة  
فوق الاخرى وعصارتها اللزجة قد لطخت الارض القريبة منها ،  
وكومة الحطب الموضوعة في احدى الزوايا ، ورأس غزال محنط  
يقرنين معقوفين معلق على الحائط والصور الدينية ذات الالوان الباهتة  
واشياء أخرى أضفى عليها الظلام مسحة غموض . كانت البندقية  
المعلقة على الحائط هي أقرب الاشياء انتماء الى ذلك الجسد . بل ان  
حازم شعر ، في لحظة انبهار مفاجيء ، بأن لهب النار المنداح عبر  
الجدران يوحد ذينك الكائنين المغلفين بالاسرار والغموض :  
أكرم عبيد الاسطورة التي لم يتصور حازم بأنها ستتجسد في يوم ما  
أمام عينيه بهيأة جسد مستكين ، والبندقية التي لم يرها الا وتذكر  
صوت الرصاص الاصم واصداؤه المدوية تتردد عبر غابات النخيل  
للحظات مديدة .

سمع أمه وهي تتسائل بصوت راجف :

— مات ؟!

وكان الاب جاثيا قرب الجسد وقد وضع اذنه على الجهة  
اليسرى لصدره ، استدار بوجهه باتجاههما محدقا في عيني حازم  
قبل أن يجيبها :

— « لا! .. لقد أصابته الرصاصة في الكتف ولو لم التق به  
مصادفة لنزف كل دمه ومات ..! »

واستدار بوجهه نحو الجسد المسجى على الفراش وقال :

- كان يئن تحت الدغل القريب من المطحنة القديمة ويداه قد  
تجمدتا على أخمص بندقيته « البرنو » التي أخفيتا في موضعها ..  
انه لرجل محظوظ لولا ذهابي هذه الليلة لصيد الخنازير التي عاثت  
في حقلي فسادا ، لمات في مكانه دون ان يحس به انسان ! .. ناوليني  
يا أم حازم ملقطا وقماشاً نظيفاً .. اسمعي .. سخني ماء ..  
وحاذري أن توقظي جميلة أو حميد ! .. وانت يا حازم هيا تقدم  
وساعدني .. انظر ! .. انه صاحبنا اكرم عبيد .. لقد اصيب  
برصاصة نسفت كتفه اليمنى ! .. قد يكون هاشم ابو الخيل هو  
الذي اقتنصه ببندقته التي لا تخطيء ! .. اسمع سوف لن تخبر أي  
أمريء بمقدم ضيفنا صباح الغد ؟ اني اعتمد عليك يا بني ! ..

وبحرص وحذر قلب الرجل الجريح على بطنه فانفلتت ، من  
فم اكرم عبيد ، أنثة خافتة كانت اشبه بأنين محتضر ، وكان الثوب  
عند الظهر متشربا بدم جعل القماش يتصلب بعدما جف .

ما انصرفت سوى أيام قليلة والقرية باجمعها عرفت بقصة  
أكرم عبيد ، ولكنهم أحبوه وشعروا وكأنهم حماته بعد ما استنجد  
بهم فكتموا سره عن رجال شرطة السلطة . تطلب شفاء الجرح فترة  
طويلة قاربت الشهرين وكانت فترة كافية لان تربط أكرم عبيد  
بصداقات وثيقة برجال وشباب القرية والقرى المجاورة ، وعرف  
الجميع بأن عريف الشرطة « هاشم ابو الخيل » الذي أذاق القوى  
الوطنية المناهضة للسلطة الملكية الامرين ، هو الذي أصابه ، ولكنه

استطاع أن يتخلص منه بأعجوبة ليختفي تحت الادغال • ولكن سرعان ما القي القبض على اكرم عبيد ورجع حازم ليضطجع في موضعه الاثير تحت شجرة التوت، وكان الصيف قد انتصف • الا انه لم يعد يهنأ بموضعه ذاك ، فعلى الارض المغطاة بالاوراق المتساقطة كان يشعر بأثر ذلك الجسد الذي أقتيد الى السجون المظلمة • كان من الواضح بأن أكرم عبيد قد بذر في أعماقهم بذاره الذي سيبعث في يوم ما • وكأنه مثل شجرة التوت ، ضرب بجذوره الراسخة في أرض القرية • وترسخت صورته في ذهن حازم كرمز للتحدي والثورة •• كما ترسخت لديه صورة « هاشم » - تلك الصورة الغامضة التي لم تتجسد بهيأة معينة لانه لم ير وجهه هاشم في يوم ما - ترسخت في ذهنه كرمز للظلم والطغيان • ولكن الايام تمر والزمن كفيل ببرء الجروح التي لم تندمل ، وحازم ينام كل مساء تحت شجرته ليستيقظ مع انبلاج أول خيط ضوء كأنه والشمس على موعد ، وبعينين خدرهما الكرى يتطلع الى السقف المرتفع فوق وجهه ليغط في نومه من جديد • وكالعادة يصحو للمرة الثانية على كر كرات جميلة الصاخبة وهي تشده من شعره تارة ومن اقفه الكبير تارة اخرى الى ان يستوي جالسا والغضب يكاد يعصف به ، وكالعادة أيضا تنفلت جميلة نحو باب الكوخ حيث عمتها المتسلحة بمكنسة ذاق حازم ضرباتها الموجهة أكثر من مرة •

يقذف باب الكوخ ، الذي يتناهى من خلاله لاذنيه صخب أشياء معدنية تتصادم ببعضها ونقيق دجاجات مذعورة تحاصر في الداخل ، يقذفه بنظرة غاضبة ، غير ان نسيم الصباح العذب القادم



من جهة الشرق حيث الجبال الحجرية البعيدة ، سرعان ما يظنيء  
احتدام غضبه الطاريء ، وبمنظرة تنطق بالتحدي والحزن في الوقت  
نفسه ينظر الى أرض الحقول الجرداء التي امتنع « الملاك » عن  
زراعتها ، ولكن حبات القمح المتخلفة من حصاد الموسم المنصرم لم  
تأبه بأوامره فما هي وقد اينعت وتفجرت سنا بلها الذهبية في بقع  
متناثرة هنا وهناك ، يرفع بعينه نحو شجرته الراسخة ومن ثم  
يستدير متطلعا الى الشرق البعيد حيث الشمس الابدية تمور بلهيبها  
الوضاء • ويستدير بوجهه غربا فتتصب امام عينيه اكواخ القرية  
المتراصة باستكانة واستسلام ، لقد فرغ العديد منها وهاجر الكثيرون  
وتوزعوا عبر المدن البعيدة ، ولم يبق الان سوى حفنة من الرجال  
والنساء والاطفال والبهائم ستهاجر بدورها ، وطالعت عينيه قامة  
« زهرة » وهي تنتقل بين باب كوخها الرمادي وقنّ دجاجها الذي  
كان من اللون نفسه ، فتذكر اخر تصريحاتها المثيرة التي فجرت عاصفة من  
الضحك عند البعض وفجرت الدموع في عيون البعض الآخر ،  
أجابت ، عندما سئلت عن جدوى اصرارها على لبخ جدران كوخها  
بالطين ، اجابت :

— حسناً •• ليتأكد رجال القرية بأنني اشك من انهم يملكون  
بين أفخاذهم •••

ويدها المملخة بالطين الاسود العفن قامت بحركة بذئية  
وأكملت تصريحها الخطير :

— •• ولكنني أنا زهرة سأظل متشبثة بكوخي وقريتي  
وسأخصي أي رجل يحاول تهجيرني ! ••



وينظر حازم الى الامام باتجاه باب كوخهم المشرع مستغربا  
لاستمرار تلك الضجة الصاخبة المتوزعة بين قعقة أوان وأوعية  
معدنية ونقيق دجاجات مذعورة وكأنّ هناك من يحاول الامساك  
بها ، واصوات أخرى مجهولة المصدر ، ما الذي حدث ؟ هل انقلب  
جوف الكوخ رأسا على عقب ؟! ومن جانب الكوخ يطل عليه الاب  
ساحبا وراءه جبلا يطوّق رقبة بغلة بنية اللون عرف بأنها ترجع  
لاحد اصدقاء ابيه من فلاحي القرية ، وكانت البغلة تحرن وتشخر  
بانزعاج عاقمة خطمها المبتل الملطخ بنثار القش • وبصوته الرنان  
يهتف الأب به :

— ما هذا يا ابا الحوازم ؟! • • • دع عنك الكسل وشد وسطك  
وتهيا لنقل الاثاث على ظهر هذه البغلة المشاكسة الى بيتنا الجديد !

— « بيتنا الجديد ؟! » اللعنة ! • • • كاد ينسى بأنهم قد  
اتتهوا من بناء البيت قبل ثلاثة أيام • ولم يبق الان سوى عمل قليل  
مثل لبخ بعض الجدران وتثبيت الشبايك الخشبية والابواب للغرف  
الاربع ، اضافة الى عمل باب من الصفيح للغرفة الصغيرة المنزوية في  
الطرف الخلفي للمنزل والتي ستكون بمثابة حجرة المؤونة والمخزن  
للبيت ! • • • نعم كاد حازم ينسى رغم أن راحته لا تزالان  
متقرحتين والجلد قد انسلخ في مواضع عديدة منهما ! • • • والحقيقة  
انه لولا سهره مساء البارحة لما بعد منتصف الليل لاستيقظ  
صباح اليوم في وقت مبكر دون أن يغيب عن ذهنه ما ينتظره من  
عمل كثير خلال هذا اليوم الذي سيخلد في الذاكرة الى الابد ! • • •

ولكن ما العمل والحكايات والاحاديث التي تبادلها الرجال مساء  
البارحة هشت طائر النعاس عن عينيه ؟!

على الدكتين المواجهتين لبعضهما تحلق الرجال عقب صلاة  
العشاء • انهم الحفنة الاخيرة ممن تبقوا في القرية مؤقتا بسبب  
ضيق ذات اليد أو لاسباب أخرى قد لا تكون مبررة أمام السبب  
الحقيقي الذي جعلهم يؤجلون هجرتهم ولو لبعض الوقت ، الا  
وهو التثبث بالارض التي منها نما لحم اكتافهم وعليها سفحوا  
عرق جهدهم وتعبهم • ولكن الرجال يبقون رجالا ، فها هم يضحكون  
ويصخبون مرتشفين بتلذذ اقداح الشاي الاسود ومدخنين السكائر  
بنهم لا يوصف وكأن الهموم لم تطرق ابواب اكواخهم المشرعة  
أمام الريح والمطر والموت ، في يوم ما ! • • لهم الحق ، كل الحق في  
ذلك - فكر حازم - فالحزن لا يغير من حقيقة ما ينتظرهم سوى  
أن يزيدا قتامة وجهامة ، وعلى كل حال سيبقى الامل شجرة راسخة  
الجدور طالما بقيت القلوب نابضة في الصدور القوية التي تسع  
أشياء كثيرة قد لا تكون الهموم سوى بعضها ! • •

على الارض ، بين الدكتين ، فرشت حصيرة مثلثة الاطراف  
تربعت فوقها « زهرة » المعتوهة وقد صالبت ساقها المستديرتين  
كالقصبه ، ولفت زنديها - اللذين طوقت معصم احدهما خرقة  
خضراء جاءت بها من قماش البيرق المنسوب في ضريح « عبدالله  
الصالح » تيمنا ببركته التي قد تشفيها من داء ( الشقيقة ) الذي  
يكاد يفلق رأسها من حين لآخر - لفت ساعديها حول ركبتيها  
الناتئتين وسيكارة لف نصف محترقة تتدلى من طرف فمها الرمادي •

ان زهرة تبدو وكأنها ندّ لكل هؤلاء الرجال تحدثهم بافتخار  
- رجولي ! - عن ايام صباها وعن الشباب الذين اوقعتهم - لسوء  
حظهم - في شباكها ، والرجال يكركرون بضحكات صاخبة تجعل  
ماقيهم تخضلّ بالدموع •

امتدت الاحاديث لساعة متأخرة من الليل حتى انه اصبح  
بامكان حازم رؤية ( درب التبان ) بوضوح عبر صفحة السماء  
المثقلة بملايين النجوم ، والى الشمال ، فوق سقف حظيرة الغنم  
الخاوية لاحظ حازم ( بنات نعش ) واختهم العرجاء تدبّ في المؤخرة  
لتلحق بأخواتها الست ، بل أن احد الديكة صدح بصياح ثاقب  
متوهماً بأن الفجر آذن بالانتشار • وكانت الام تعد الشاي في الداخل  
وجميلة تحمل الصينية التي توزعت الاقداح المدخنة بالبخار فيها  
باتتظام ، وعند باب الكوخ يستلم حازم صينية الشاي قاذفا ابنة عمه  
بنظرة جانبية مرحة ومن ثم يستدير عبر حلقة الرجال مطوفاً  
بالصينية امام وجوههم بانسياب ، بادئاً بكبار السن فالاصغر ،  
والقدح الأخير يكون من نصيب « زهرة » التي تسارع بصب  
السائل الاسود في حلقتها دون أن تذيب السكر فيه مؤكدة أن  
مخدومها ، الذي كانت تعمل لديه لقاء لقمة الزاد ، كان يشرب  
الشاي بتلك الطريقة ، ولكنها سرعان ما تعقب طريقة مخدومها  
السابق بطريقتها الخاصة ، فتتناول بالملعقة السكر المتبقي في قعر  
القدح متلمظة بشفتيها بانتشاء لا يوصف •

الاحاديث تنتشب وحازم يقبع قرب شجرته متكئاً بظهره الى  
جذعها وخدر النعاس يسري في جفنيه الساخين والكلمات تخفت

بانسياب موشوشة أذنيه المزغبتين وكأنها صدى انحدار السيل عبر  
 حافتي الوادي الممتد شمالي القرية بمسافة بعيدة ، ها هو حازم يرى  
 نفسه معلقا على ذروة عالية ملفعة بضباب ازرق لا يبان من خلاله  
 سوى مياه مزبدة ومتلامعة بغموض تحت ضوء شمس باردة  
 لا تراها العين ، وهدير السيل يأتيه من الاسفل والخلف .. انه  
 هدير أصم لا يردّ ، وفجأة يشعر بنفسه وهو يسقط من حلق  
 فيفتح عينيه على مرأى الرجال المتحلقين على الدكتين ، وهم يواصلون  
 احاديثهم . ويكون حازم قد مال وسقط جانبا بعيدا عن جذع الشجرة  
 ولكن حافة الدكة نسده من السقوط على الارض . السيل يواصل  
 هديره الاصم من جديد ، ومن خلال الضباب الذي يكتنفه ، وهو  
 محاط بسيل مزبد لا يرى بوضوح ، يسمع نداء غامضا يأتيه من كل  
 مكان عبر الضباب والمياه . وها هو ذلك النداء الغامض يقترب  
 ليردد بوضوح فوق التيار الحاد .. انه اسم أكرم عبيد ! .. ينطلق  
 من حنجرة بشرية لتردد صخور الحافتين وغابات النخيل السوداء  
 البليلة والسماء التي لا ترى ، اصداؤه بهدير هائل .. اكرم عبيد ..  
 اكر .. م .. عب .. ي .. د .. والى الامام قريبا منه يرى الشيخ  
 « راضي » وكسريته الانكليزية التي قتل بها ذلك الفلاح المسكين ،  
 الذي كانت كل جريرته أن له زوجة جميلة ، كسريته تلك مستقرة بين  
 يديه وفوهتها تستدير ببطء قاتل باتجاه مصدر انبثاق ذلك الاسم  
 الذي لم يتجسد على هيئة معينة بل بقي مجرد اسم اكتنف السيل  
 والضباب والاحجار والنخيل ! .. وعلى صوت الرصاصة التي تنطلق  
 يصحو حازم من حلمه ليكتشف بذهول - من خلال احاديث



الرجال - بأن ذلك الفلاح القليل لم يكن سوى « عبيد الديوان »  
والد صاحبه القديم « أكرم عبيد » ! ..

.. نعم .. لولا سهرة البارحة لما بعد منتصف الليل لصحا

باكرا •

استوى واقفا على قدميه ، بعدما لفّ فراشه وأمسك به  
تحت ابطه • ولج باب الكوخ فطالعه صرر الثياب والسلال المتخمة  
بأشياء عديدة ، والصناديق الخشبية والسجاجيد القديمة الملتفة على  
بعضها ، وأشياء أخرى لا تعد ولا تحصى ! .. الى اليسار طالعه  
القفص الكبير وكان غاصا بدجاجات فزعات والديك الكبير ذو  
العرف المتدلي ينقر بغضب رؤوس أقرب الدجاجات اليه وكأنهن  
المسؤولات عن حبسه في ذلك القفص الكريه • والى امام في قعر  
الكوخ كان « كافور » متمددا على الارض الرطبة التي رفع عنها  
حبّ الماء ، وكأنه أدرك بغريزته الحيوانية التي لا تخطئ بأنه  
يحق له التمدد - في آخر يوم يغادرون به الكوخ - أنى يشاء !

بعدما تناول حازم افطاره بسرعة خاطفة ، دفع بالبغلة المحملة  
بالامتعة أمامه سابقا الاخرين ، وتهادت البغلة نحو أرض السهل  
الأجرد المتعطش للزرع والماء • • ان وجهة حازم هي الشمال حيث  
الطريق الضيق المتعرج المنساب عبر الارض الجرداء وعبر الحقول  
المثقلة بسنابل القمح الذهبية وعبر القرى سرعان ما سينتهي أمام  
منزلهم الجديد •

مدت البغلة بخطمها الدافئ المتبل الى الجانب

قاضمة حفنة سنابل نبتت في البقع التي كومت عليها البيادر في الموسم المنصرم ، فعالجها حازم بضربة خاطفة من عصاه جعلتها تضاعف سرعتها والوانى المعدنية الموضوعة بين الامتعة بدأت تقفقع بصخب، وجاءه صوت جميلة من الخلف ، انها تناديه باسمه، فأدار بوجهه نحو القرية مثبتا الطرف المتآكل المترب لعصاه التي رأسها على هيئة رأس ثعبان ، فوق اصابع قدميه المحشوتين في خف جلدي قديم • كانت جميلة بثوبها الاحمر المزهر تنحدر عبر سفح الاكمة نحو أرض السهل، وصرة كبيرة استقرت فوق رأسها ويداها ، المثقلتان بمعاصد زجاجية ومعدنية رخيصة تلامعت تحت شعاع شمس الصباح ، ممسكتان بالصرة من طرفيها • وبعينين لا تطرفان شمل حازم القرية الممتدة فوق حدة الاكمة ، بنظرة تأمل طويلة • الى الشرق ، فوق سقف كوخهم وسقف الحظيرة المحدين ، بدت قمة شجرة التوت الخضراء تتمايل بانسياب مع هبوب الرياح الشرقية الجافة • كانت الشجرة توميء الى الغرب الى حيث تنحدر الشمس كل يوم وتتصاعد ارواح البشر كل لحظة • بدت وكأنها توميء لحازم بتحية الوداع الاخيرة ، ولاول مرة شعر بحزن ساحق يكتنفه على حين غرة هائلا أحشاه ، صاعدا عبر جسده ليغص به حلقه مثل حشرة طال احتباسها في الصدر ، ولاول مرة فاجأ نفسه وهو يتساءل بدهشة : كيف نبتت شجرة التوت تلك على حدة أكمة لا يصلها الماء؟! • أية ريح حملت بذرتها؟! وأية أمطار سقتها؟! وأية شمس حبتها بدفئها؟! وبصوت متهدج غلبه الانفعال وجد نفسه يهتف ، وسط استغراب جميلة التي حاذته :

- اصمدي .. اصمدي .. للريح والمطر والشمس ! ..  
واصمدي لوحشة الهجر والنسيان .. ووداعا يا شجرة طفولتي  
الخضراء ! ..

وبعينين غائستين مخضلتين بالدموع لا تكادان تريان الطريق ،  
استدار حازم بوجهه شمالا حيث البغلة كانت قد توغلت الى الامام  
لمسافة طويلة فأصبح بإمكانها قضم السنابل كيفما تشاء . والى  
جانبه تصاعد لهاث جميلة وهي تنوء تحت ثقل صّرتها الغامضة ولم  
يجد حازم بدا من ان يتناولها من رأسها فانقضت يده بشدة نحو  
الارض فهتف من بين اسنانه بصوت غاضب .

- اللعنة ! .. كادت تخلع كتفي ! .. ما الذي تحويه هذه  
الصّرة اللعينة ؟ .. رصاصا ؟ !

- .. لا .. انما تضم حجرا ! ..

وأغرقت جميلة بضحكة لاهثة تفضت بها غبار الحزن الذي  
كاد يكتم انفاسها طوال دقائق الصمت ، ويبد وسوست المعاضد  
في زندها ، بدأت تحرك الهواء أمام وجهها المخضل بالعرق ، وبصوت  
ثاقب صادر عن حنجرة احتبس بها الهواء بسبب الصرة التي امالت  
جسده باتجاهها ، قطع حازم ضحكتها :

- كفى ! .. أتستهزئين بي ؟ !

- كلا .. كلا ! .. انها تضم حجرا .. !!

واختلجت شفتاها بضحكة كظيمة جعلت كركرة حازم تنطلق  
رغما عنه ! ..

تلقفت اقدامهما الطريق ، الذي حفت به السنابل •  
بعدهما تجاوز ارض السهل الاجرد ليدرج عبر حقول القمح العائدة  
لـ «ملاك» آخرين ، وطفقت البغلة تواصل هرولتها وقعقة حملها  
تفرع طيور الدّرّاج والزرّازير والعصافير فتنخطف على هيئة  
سحابة يسمع منها اصطفاق أجنحة تمرق على ارتفاع منخفض لتحط  
بين السنابل الكثيفة من جديد ، الريح تهب رخية من جهة الشرق  
حاملة لهما اصواتا متناثرة ترتفع هنا وهناك على امتداد القرى الشرقية  
الملفعة بنشار غبار رمادي شفيف ، ورائحة العشب ومياه البرك  
الخضراء المنتشرة على هيئة مخاضات موحلة يكتنفها طين الهوام  
والحشرات الدقيقة ، ترغى بكثافة مخدرة ، وعلى امتداد الحقول  
المتراصة بتماسك لا ينقسم ، كان اللون الذهبي هو الغالب ، سوى  
لطخات متناثرة ذات لون أخضر مزرق لسنابل قمح لم تنضج بعد  
كانت سماء الصيف تمتد فوق رأسيهما بانسياب لتتطبق هناك  
أمامهما على الارض ، واشجار يتيمة ، تناثرت عبر الحقول ، تتعامد  
تحت امتدادها الازرق العميق •

ها هي أقدامهما الاربع تصك الارض  
باستمرار والكلاب السائبة تمرق امامهما لتزوي مختفية بين  
السنابل ، وحالما يقتربان من قرية ما تسارع الكلاب بتطويقهما ،  
فاغرة اشدقها الوردية المؤطرة باسنان بيضاء قاطعة ، في وجهيهما  
المرتعبين ، ونباحها الصاخب يكاد ان يصم سمعيهما • لكنها وبعد  
مسافة قصيرة تنقلب عائدة نحو القرية متوقفة بين لحظة وأخرى  
لتنبج خلف ظهريهما متشممة الارض ، ورافعة افخاذها لتبلل العشب



المغرب • جميلة تتنفس الصعداء وتعود وجنتها لتتوردا من جديد ، ولكنها سرعان ما تفاجأ بنباح ثاقب يكاد يأخذ بلبها ، فتستدير جانباً لتكتشف بأن حازم هو الذي يحاول أزعاجها هذه المرة ، ان يدي حازم تتناوبان بحمل الصّرة •• تتعب احدهما فيحولها الى الثانية •• وهكذا ••

ها هي الارض تندفع عاليا لتنتهي بحافة نهر مرتفعة تكتنفها سيقان قصب وحلفاء وشجيرات صنفاف قمية • ان حافتي النهر تنهضان أمامهما على شكل جدار معشب يبدأ من الشمال باتجاه الجنوب ، والطريق الضيق يطر الارض البنية الكالحة ليدرج امامهما بانسياب معتليا صهوة قنطرة تتألف من جذوع نخيل متراصة مغطاة بطبقة تراب صلدة تمتد عبر حافتي النهر ، البغلة تصعد عاليا مخفضة رأسها لتوازن صعودها الحاد ، وحازم يهجم وكأن البغلة ستقذف بحملها ، ولكن ها هي البغلة وقد استوت فوق القنطرة لتتحدّر بصخب نحو الطرف الاخر • حازم يهتف عندما يرتقيان القنطرة الممتدة فوق المياه المدومة والمزبدة في الاسفل :

- وصلنا ! ••

الى الامام ، خلف اشجار توت وعناب وكالبتوس وثلاث أو أربع نخلات مبشرة خلال ارض معشبة ، ترتفع واجهة بيت طيني تتفتح فيها أربعة مستطيلات لم تثبت الشبايك فيها بعد ، وقريبا من اليمين ، وعقب مستطيل النافذة الاولى يواجههما باب أشرعت ضلفتاه وكأنهما ذراعا انسان فتحهما على الآخر في انتظار العناق

عريض مهدته عجلات الشاحنات الثقيلة فاستحال ترابه الى مسحوق ابيض يرتفع على شكل سحابة غبار مع أول هبة ريح ، ان الطريق يمتد باستقامة من الشمال باتجاه الجنوب ، والى يسار المنزل ، في طرفه الجنوبي ، يتفرع من الطريق الرئيس طريق آخر فرعي يتجه غربا نحو المدينة الرابضة هناك خلف قوس النخيل الازرق • الحميم الذي لا فكاك بعده ! • امام الفسحة المشجرة يدرج طريق امام النقطة التي يتعامد فيها الطريقان • وقرب النهر ، تنتصب شجرة سدر ضخمة ذات أوراق داكنة الخضرة وجذع رمادي متشقق •

على الممر المغطى بالحصباء والممتد عبر الفسحة المعشبة ليلتقي بالباب المشرع ، وقف الاثنان • وبعينين مبهورتين ، بسبب انعكاس اشعة الشمس المنصبة بوميض فسفوري ، تطلع حازم الى البقع الداكنة المنتشرة في الجدار والتي لم يجف طينها بعد • ان النوافذ الثلاث السفلية تتوزع على أبعاد متساوية : النافذة الاولى الى اليمين ، تعقبها الثانية وفي منتصف المسافة الفاصلة بينهما ينتصب الباب المشرع • النافذة الثالثة في اقصى اليسار حيث الجدار الامامي يلتقي ، بزاوية قائمة ، بالجانبى • والنافذة الرابعة تعتلي النافذة الثالثة بالضبط • انها نافذة وحيدة تتوسط جدار الغرفة العلوية المنفردة ، واليها أشار حازم قائلاً بصوت مرح :

— تلك الغرفة العلوية ستكون لك ، والتي تحتها لي ••

ما رأيك ؟!

اجابته جميلة وهي تخصوص بعينيها الواسعتين باتجاه البغلة

التي اختفت بحملها بين الاشجار قاضمة بنهم لا يوصف العشب  
الناعم المتوفر بكثافة :

- رأبي أن تلحق بالبعلة قبل أن تسقط حملها !! ••

وبدل أن يسارع حازم نحو البعلة وجد نفسه يفكر وعيناه  
تطوفان عبر الواجهة المتوهجة :

- « شهران من العمل والجهد والنتيجة : ها هو البيت أخيرا  
يرتفع امامي بكل كبرياء ! »

ونظر الى راحتي يديه الخشتين اللتين انسلخ الجلد عنهما  
في أكثر من موضع ! •••

••• ولكنهما ناعمتان ! •• يدان ضخمتان تكادان تكونان  
ثلاثة أضعاف اليدين القديمتين اللتين وضعتا مئات اللبنات فوق  
بعضهما ، ولكنهما الآن ناعمتان ، بل ومتوردتان بعض الشيء وقد  
توزعت الخطوط المقوسة عبر باطنيهما • شعر حازم وكأن هاتين  
اليدين المترفتين بعض الشيء لا تنتميان الى جسده الذي نحتت كل  
عضلة فيه مسارها الخاص : عضلتا الكتف المكورتان والمتماسكتان ،  
كان للتحطيب والامساك بدقة المحراث ، الأثر الفعال في نموهما  
المفرط • عضلة العضد النافرة بصلابة ، كان للتكريب القسـط  
الأوفر في تلك الصلابة • والصدر الواسع العريض والظهر الذي  
على هيئة مثلث ، تماسكا واندغمت عضلاتهما ببعضها تحت ثقل  
خصاصيف التمر واكياس القمح ، والفخذان المكوران ؟ بمسحاته  
الحادة قلب مساحات واسعة من أرض البساتين المتماسكة بسبب

شبكة الجذور الدقيقة التي اكتفت لحمتها ، فكان أن نما الفخذان بهذا الشكل •

وبعينييه المحمومتين تخطى حازم جسده المكور تحت الغطاء الأزرق ، ومن بين القضبان المتعامدة تحت حاجز السرير البعيد طالعه ذلك الغطاء الداكن ، وامامه ملح المنضدة وفوقها المجالات القديمة المنزوعة الاغلفة ، ومن خلال طبقة الغبار التي اعتلتها تطلع حازم الى صورة الدبابة وفوهة مدفعها المتجه الى الامام وقد ظللتها سحابة غبار كثيفة ، وعادت عينا « مصطفى غريب » لتومضا عبر حياد الصورة المطبوعة بالاسود والايض • شعر بهما تومضان بضراوة جعلت سحابة غبار الصورة تنتشر عبر جوف الغرفة ، بل انه استطاع أن يشم رائحة لحم محترق • انه غبار قاتل تكتنفه الشظايا وفتات الصخور واللحم البشري الممزق والعظام المهشمة • وعادت حشرة « مصطفى غريب » تلك الحشرة المصحوبة بدفقة دم انسابت عبر شفتيه ، عادت لترن في رأسه : انني •• اموت •• يا بني •• ايّ موت •• ايّ موت كان ؟! يديه هاتين قلب الجثة على ظهرها فطالعه الاحشاء الزرقاء المندلقة الى الخارج ، وبخار خفيف يتصاعد منها • يديه هاتين أيضا ألصق حافتي ذلك الجرح الرهيب ببعضهما ، وبدأ بخياطته •• وكأن الجثة ترفض أن تستقبله بطن مفعور الاحشاء !! كانت الابرة تنغرس في اللحم الممطوط لتخرج من الجهة الثانية ، وكان الخيط الايض يتشرب بالدم بعدما يخترق اللحم الميت • والجثة تُعَلَب في صندوق خشبي وترسل الى تلك القرية البعيدة المحاطة بمخاضات مياه تغص بأسماء



لم يجرب معها « مصطفى غريب » طريقته الجديدة في الصيد !!  
وحازم يعود الى الخندق ليمارس ، بوله صوفي ، طقوس الانتظار  
المريـر تحت لهيب شمس حزيران التي تلبست شمس الشهور الاثنى  
عشر !! ذلك الانتظار الذي أفقد « مصطفى غريب » صبره !!

كانت السماء الزرقاء تتوهج عبر مستطيل النافذة وكأن الامطار  
التي انهمرت طوال الايام الثلاثة الماضية قد غسلتها من صدئها  
القديم ، وكان شعاع شمس مقرورة ينفذ من خلال اغصان الاشجار  
مخترقا النافذة ليسقط على جدار الغرفة اليسر ، وهناك ، على  
زجاجة الصورة التي بدت وكأنها صورة جندي حنطتها الكاميرا في  
لحظة فرح مباغت ، هناك كانت بقعة الشمس قد انحدرت كثيرا  
متجاوزة منتصف الزاوية بمسافة لا بأس بها ، فأيقن حازم بأن  
الوقت يقارب الحادية عشرة ولم يبق سوى القليل لتتعامد الشمس  
فوق الارض .

كل شيء ساكن الان : الريح هدأت بعدما دفعت بالغيوم الجبلى  
بالمياه ، بعيدا والبيت أيضا ساكن ، وكذلك السقف !! وتطلع الى  
الجدوع الممتدة عاليا .. لا بد انها نائمة !! هكذا هي ومنذ  
شهرها الثالث : أما مضطجعة على سريرها في غرفتها العلوية ، أو  
شاحطة بقدميها فوق السقف وامام الغرف . ولكن أين هي أمه ؟!  
ولم لا يسمع ضجيج مطبخها ؟ لا بد أنها غادرت المنزل في الصباح  
الباكر ، فحازم لا يزال يتذكر اصطفاق قدميها على أرض الممر المبلول  
وحמיד ؟ انه بالتأكيد في العمل الذي سينتهي مع غروب الشمس .  
واستغرب حازم لكونه لم يصح من نومه صباح هذا اليوم على

هدير محرك الشاحنة التي تقف امام المنزل ليقلها حميد متوجهاً الى الجنوب حيث شركة الشحن ! ولكن استغرابه سرعان ما تلاشى عندما ادرك بأن الحمى التي لازمته مساء البارحة هي السبب في عدم استيقاظه ، وكذلك لابد أن صوت انهمار المطر قد طغى على هدير الشاحنة !..

انه يجابه وحش الزمن بصمت ، ها هي الدقائق تنصرم بانسياب وهدوء رغم ما يعتمل في أعماقه من صراع مرير بين ماضٍ ملقح بسحب ضباب ودخان ، صحا منه فجأة ليرى نفسه مقذوفاً على هذا السرير ، وبين حاضر واضح وضوحاً قد يكون فيه شيء من القسوة في بعض المرات ! ولكن المهم هو انه بعيد عن الابهام والغموض . وحازم ان توكأ ، في بعض المرات ، على عكازة الماضي ، فهذا مما لابد منه لأن الماضي كان حاضراً في يوم ما كما أن الحاضر سيصبح ماضياً في الغد ، المهم أن يبقى الايمان بالمستقبل رغم كل شيء .

وكايقاع لحن قديم ألفته الذاكرة ، عادت الخطوات لتتردد فوق السقف من جديد ، وبدأ السقف يئن تحت ثقل الخطوات المصحوبة بغبار خفيف هوّـم بانسياب نحو الاسفل . ان الخطوات تتجه هذه المرة الى اليسار حيث باب الغرفة العلوية الذي سمع الان - من خلال السقف - صوت اصطفاقه المكتوم ولم يعد يسمع أيما صوت .. انها الان فوق سطح الدار ، تنحرف يساراً فتطالعها شجرة السدر في الاسفل ، وخلفها ينساب النهر المختفي بين حافتيه الثقليتين بالقصب والحلفاء والصفصاف . قد تكون الان ولجت فوهة السلم .. وانتظر .. واحد .. اثنان .. ثلاثة . عشرة ، وانتظر

أيضا •• ومن ثم سمع قدميها تشحطان الارض •• واعتكر الخط  
المضيء المستد أسفل الباب الذي انشقّ بارتداد مرتجج بسبب  
الرطوبة التي تشبع بها الخشب •• تقدمها البطن المتكور أولا ثم  
أطلّ عليه وجه تتألق فيه عينان واسعتان اضفت عليهما الامومة  
المرتقبة مسحة دافئة ، الشعر الاسود السبط مشدود الى الخلف  
بضفيرة واحدة بدت وكأنها تشير الى ذلك الماضي البعيد عندما  
كانت تلك الضفيرة تنقذف الى الخلف بحركة خاصة طالما احبها  
حازم •

وقفت في الباب المشرع وخلفها انسكب ضوء الشمس بحدّة  
على الارض المعشبة المحاصرة بسياج طيني منخفض • كان ضوء  
النافذة ينصبّ على وجهها وعلى جسدها المتماسك تحت ثوب اصفر  
فاقع اتنفخت طيتاه الواسعتان فوق الثديين الثقيلين ، وتكوّر بعدما  
اندفع الى الامام ليتماسك ، في ذروة اندفاعه ، فوق قمة البطن  
الناتيء ، ومن ثم انسدل الثوب الى الاسفل باستقامة ليمسّ  
الارض •

اشرعت الباب على آخره وولجت الغرفة قائلة بصوت مروض  
لم يبارحه خدر النوم :

- لقد غلبني النعاس !•• صحت مبكرة ورتبت غرفتي ،  
الا أن النعاس سرعان ما غلبني •• لم يدعني انام الا في ساعة متأخرة  
من مساء البارحة •

واشارت الى بطنها ، ومن ثم أشرقت ببسمة مرتبكة سرعان ما

اختفت لتساءل بدهشة عندما لم تجد قدح الشاي وصحون الافطار  
الفارغة :

- ألم تتناول افطارك بعد ؟!

- لا .. لا أرغب ! .. اين أمي ؟

سحبت الغطاء الداكن المتكور خلف حاجز السرير ، فلمح  
حازم وهو على وضعه السابق ، المسند الخلفي للكرسي الذي كان تحت  
الغطاء ، وكانت المنضدة المنخفضة التي أمامه ، تمنع عينيه أن تبصرا  
أكثر من ذلك • وأجابته وهي تطوي الغطاء :

- خرجت في الصباح الباكر • • لمحتها وانا ممتددة على سريري  
قرب النافذة • أتساءل : لم خرجت في مثل ذلك الجو الممطر ؟!

- جميلة ، هل تعتقدين بان الطريق سينشف عصر هذا اليوم؟  
لشدّ ما أرغب بأن تأخذيني لنقوم بنزهة عبر الطريق الممتد باتجاه  
المدينة ، مراقبين الشمس وهي تختفي خلف غابات النخيل ! • •

- حسناً ! • • ولكن عينيك محققتان ! هل انت مريض ؟!

واحس حازم بحديد السرير باردا تحت دفء راحته  
المسكة به :

- لا .. ابدأ ، انها حمى بسيطة ستزول • •

وقدفت جميلة بالغطاء المطوي الذي امسكت به لفترة طويلة ،  
على مسند الكرسي ، فاندفع قليلا الى الخلف باتجاه السرير وتناهى  
لسمع حازم صرير العجلات الثلاث التي لم تزيث منذ فترة طويلة ،



ففكر بضرورة تزييتهما في أقرب فرصة • ولكنه عندما حاول ان يخبر جميلة بفكرته تلك وجد فكرة اخرى تنبثق في رأسه :

- جميلة •• هل زيتي قفل الصندوق ؟ لقد طلبت منك ذلك مساء البارحة ، سأستطيع فتحه بواسطة سلك معدني ••

كانت جميلة تنظر اليه وهي واقفة بين الكرسي والمنضدة المثقلة بمجلات وكتب منزوعة الاغلفة مغطاة بطبقة غبار :

- ما الذي ذكرّك بذلك الصندوق ؟ خمس عشرة سنة مرت على اليوم الذي طلبت مني فتحه فنشجتُ باكية ! •• ما الذي ذكرّك به ؟ ••

ولم تبك هذه المرة ، بل اشرقت ببسمة كورت وجنتيها فبرزت غمازتان على كل جانب • وكان لجملة « خمس عشرة سنة » صداها الذي تردد في رأسه مثل نداء بعيد غامض انطلق من جوف كوخ تطلّ كوّته على أرض تبعثرت خلالها اشجار التوت والعناب والغرب تحت سماء بنفسجية تميل الى العتمة ببطء وانسياب • انه نداء خافت ولكنه يتغلغل في الصميم مثل رذاذ مطر ناعم يتوغل في اعماق الارض ليرعش الجذور المنسية في القاع المعتم • خمس عشرة سنة ! أيام وشهور وسنون مرت والصندوق هناك - بعد انتقالهم من القرية - في حجرة المؤونة ذات الباب الصفيحي • لولا أمه لما تذكر صندوق جميلة المرصع • لقد ذكرّته به صباح البارحة بعدما رفعت كمية كبيرة من الحطب الجاف لتلقم به نار موقدها فوجدته تحت الحطب • انه الصندوق الذي حالما كانت عمته - أم جميلة - ترفع

غطاءه ، كانت رائحة الهيل والحناء والشار المجففة تضوع برائحتهما الخدرة حتى تكاد تكتم انفاسهم !! وحتى الخشب القديم كانت له رائحته الخاصة وكذلك الاقمشة التي لا بدّ انها اهترأت الان؟! اهترأت؟! وهل تتهرأ الذكريات الجميلة التي لولاها لاستحال العمر الى خراب؟ .. لا ..! ابدا ان تلك الرائحة الحميمة ستظل تضوع وتضوع عبر انسياب الزمن وستظل الاشياء التي احتواها الصندوق صدى لماضي عزيز على قلبه !...

- لا .. من الافضل ان يظل الصندوق مقفلا ! جميلة ..

ولكن لا تدعى العثّ يتأكل خشبه .. انه صندوق رائع !

- حسنا .. سأفعل .. يا لهذا الغبار المتراكم ! ..

ونفضت الغبار عن كتب ومجلات المنضدة فارتفع على شكل سحابة غبار توزعت في اجزاء بعيدة من الغرفة .

- انه بسببك أنت ! .. كلما تحركت في حجرتك تساقط الغبار من سقف غرفتي !

وأنهات جميلة تنظيفها للمنضدة وكان بطنها الناتيء يندلق الى الامام وثدياها الثقيلان يترجرجان مع ابسط حركة تقوم بها .. اقتربت من سريره بعدما امسكت بيدها احدى الصحف القديمة ، وبعدها منحته ابتسامة خاطفة ، بدت وكأنها تعتذر بها عما ستقوم به ، انحنت ، عبر السرير ، نحو النافذة لتمسح بالصحيفة التي في يدها ، الزجاج المندسّى بعض الشيء فانسحق جنب حازم تحت ثقل بطنها الذي انغرس فيه وبدأ يتحرك تبعا لتحرك يدها على زجاج النافذة،

ووجد حازم نفسه يستعيد ، بلحظة خاطفة ، تلك الظهيرة ، عندما  
انسحق العشب تحت ثقل جسديهما وانخطف شعاع شمس تشرين  
في عينيها المشدوهتين وعلى بياض جسدها الناصع ، فهتف بصوت  
حالم :

- جميلة ، هل تتذكرين تلك الظهيرة التي سبقت رحيلي الى  
الجهة ؟

وتجمدت يدها المسكة بالورقة الرطبة المكورة ، فبدت  
وكأنها تستعيد أمرا استغلق على ذهنها ، ولكن وجهها سرعان ما  
أشرق وعادت يدها تمسح الزجاج وتتمت من بين اسنانها :

- يالك من خبيث !! اخشى ان تعدي هذا اللعين ، الذي  
يسحق جنبك ، ببعض خبثك !! كيف لا وهو ثمرة تلك الظهيرة  
التشرينية ؟!

واعتدلت بقامتها بعدما انتهت تنظيف الزجاج ، فتطلع حازم  
اليها ، وسمعها تقول بعدما استدارت بوجهها يسارا :

- لولا هذا الجنين المشاكس لارتقيت المنضدة ونظفت زجاجة  
صورتك ..

وعادت بوجهها باتجاهه متطلعة في عينيه وقالت :

- هل تعلم يا حازم ان عمر الصورة بعمر هذا الجنين ؟!

وكيف ينسى ذلك اليوم الذي سبق رحيله الى الجهة ؟ ..  
كان حازم في ذروة حماسه واخبار العبور الكبير والزحف نحو

المرتفعات المحتلة ، تنثال من المذيع فكان من الضروري جدا أن  
يخلد تلك اللحظات الاثيرة بطريقة ما ، فسارع بعد ما ارتدى  
ملابسه العسكرية للمرة الثانية لاداء خدمة الاحتياط ، سارع  
بالتقاط صورة كبيرة قال بأنه سيحتفظ بها الى الابد ، واستفاق  
من تأملاته على صوت جميلة :

- ها هي عمتي تظهر أخيرا !! يا لهذا الطين الذي لطخها الى  
مستوى منكبيها !! انها تحمل كيسا منتفخا !! هل أعد  
افطارك ؟ ..

- لا .. افتحي احدى ضلعتي النافذة ..

وصر خشب الاطار المتناسك واندفع هواء الخارج الرطب  
ووصلهما صوت اصطفاق قدمي الام على أرض المر ، بوضوح  
وتناهى لسمعهما صوتها وهي تقول :

- هل .. نومه ؟ .. فطر ..

ولكونه مضطجعا وبسبب بعد المسافة لم يستطع استيعاب  
جميع الكلمات التي ضاع بعضها في الفراغ .  
- ما الذي قالته أمي ؟!

- اعتقد انها جلبت كمية من الفطر البري ... ثلاثة أيام  
والرعد يدوي عبر السماء الغائمة !! يقال : انه كلما دوى الرعد  
بشدّة انبثق الفطر من تحت الارض !

- هراء ، انما هو بسبب المطر ..



ووصلهما خفق قدميها من داخل المنزل ، بعد لحظات انشق  
الباب عن وجهها المخدد بالتجاعيد والمحاط بفوطة سوداء ، وولجت  
الغرفة بعدما تركت حذاءها الموحد امام العتبة • كانت تحمل باحدى  
يديها كيسا ممتلئا الى اخره •

- أنظر !! •• سنحصل على وجبة شهية !•• هل أفطرت  
يا حازم ؟••

- سأفطري بفطرك يا اماء !•• لقد اثرت شهيتي للأكل رغم  
هذه الحمى اللعينة ••

وناولت الام كيسها لجميلة ووضعت راحة يدها الباردة  
على جبينه الساخن :

- انك محموم !••

انحنت نحو ضلفة النافذة وواربتها :

- سيؤذيك الهواء البارد !••

ارتكنت بعجزتها العجفاء على طرف السرير وكان وجهها  
قد ازداد استطالة وتدلّى انفها بين شفّتيها بحدّة ، والتجاعيد  
العسيقة غزت ملامحها ، ولكن عينيها الحادتين بقيتا محتفظتين  
بوميضهما القديم ••

- كأن التلال قد استحمت بياه المطر ، وانفطر بعدد الحمى !  
لولا ضيق الوقت لجمعت الكثير منه • ترى كم تكون الساعة ؟  
رفع حازم وجهه نحو الصورة التي كان ضوء الظهيرة قد

اكتسحها ، فلمح البقعة الضوئية المنعكسة على الزجاجاة تكاد  
تغادر الاطار الفضي :

— انها بعد الحادية عشرة بدقائق ! ••

وهتفت الام بعدما استوت واقفة فصر السرير من تحتها:

— يا للهول ! لقد سرقنا الوقت وانا لم أهيء طعام الغذاء

بعد ! •• هيا يا جميلة ساعديني بتنظيف الفطر من الرمل •

وانفلتت الام بخفة خارج الغرفة وتبعثها جميلة بطيئة وثقيلة

فبدت في عيني حازم وكأنها تمور بالحياة والخصب ، وخفق ذيل  
ثوبها الاصفر من خلال فتحة الباب الذي واربتة خلفها •

ومرة أخرى اصبح حازم وحيدا •• وهدأ كل شيء من حوله

•• أمسك بحافتي السرير ودفع بجسده الى الخلف فارتفع نصفه

العلوي بصعوبة ، وانزلت مؤخرة رأسه على سطح الجدار الخلفي ،

وبكوع يده اليسرى دفع الوسادة الى الخلف ، فاستقرت وراء

ظهره ، وبذلك شعر بالراحة •• استطاع ، من وضعه الجديد ، أن

يستشرف على مساحة واسعة تحدت عبر مستطيل النافذة ، فالى

الامام ظهرت لعينه اللتين اكتسحهما وهج الظهيرة ، أرض الحديقة

المعشبة ، وكان شعاع الشمس يتلامع اسفل العشب حيث مياه

المطر ركدت بعدما تشبعت الارض بها وهنا وهناك ، وبصورة غير

منتظمة ، توزعت اشجار عديدة تنتهي برؤوس هائلة تناطح السماء •

وهناك ، خلف الارض المعشبة ، يرتفع سياج طبيعي خفيض قوامه

سيقان القصب والسيبان يمتد بحذاء الطريق الممهّد القادم من

النُّسْمال باتجاه الجنوب • وفي اقصى يسار النافذة ، لمح ممرا مفروشا  
بالحصباء يطرّ الارض المعشبة ليلتقى أحد طرفيه ، غير الظاهر لعيني  
حازم ، بباب المنزل ، وليلتقي الطرف الاخر ، بعدما يجتاز سياج  
النباتات الخفيض ، بالطريق • خلف الممر المفروش بالحصباء تظهر  
أرض معشبة أيضا سرعان ما تنتهي بالسياج • من خلال الاشجار ،  
خلف السياج العشبي ، تطلع حازم الى كتفي النهر المشجرين  
والمتمدين بموازة الطريق الرئيس ، وبعيدا حيث السماء اللازوردية  
تنطبق بانسياب على الافق ، لمح قمما متناثرة لتلال بدت صفراء  
تحت ضوء الشمس الحاد •

عاد بعينه الى الداخل وتطلع مليا الى صورته المواجهة له •  
أنها صورة التقطت باللونين الاسود والاييض ، فبدت نظيفة بصورة  
لا تصدق بعدما رشتها اصابع المصور ، ولكنه يشك ان الوجه  
المحنت خلف الزجاج يشبه وجهه الحي المنسوب على رفبته •  
ذلك الوجه يعود لانسان آخر كان يتصور بأن طلقة مدفع واحدة  
ستعيد الاشياء الى مواقعها الصحيحة !! وارتقت ابتسامة متهككة  
شفتيه المزرغبتين ، ارتفعت يداه وحطت الراحتان الساختان على  
وجنتيه الخشتين : لقد غاب عن ذهن الآخر - عن ذلك الوجه المحنت  
تحت الزجاج - بأنّ طلقة المدفع تلك قد تكون ايذانا بالتراجع ••  
قد تكون تبريرا لخianات ترتكب باسم القضية •• قد تكون تمويهها  
لادوار تؤدي في الخفاء !! •• اما هذا الوجه - وضغط على وجنتيه،  
فأحس بأثر الجرح ، الذي يعود لسته اشهر خلت ، صلبا يتكور  
تحت باطن يده اليمنى - اما وجهه الحقيقي هذا فقد اكتشف اشياء

كثيرة : اكتشف بأن هناك مسافة طويلة تفصل الحلم عن الواقع •  
وهناك آمال عديدة قد يحبط البعض منها •• وكذلك هناك الدم  
والموت !•• وبالمقابل هناك ايضا الحقيقة والامل : الحقيقة التي  
لا مرد لها والتي لا بد لها أن تتجسد في يوم ما على أرض الواقع  
الصلبة ، منبثقة من فوهة بندقية تمسك بها يدان لا تهزان ، تعرفان  
كيف تصوّبان الى الهدف الحقيقي !!•• ويبقى الامل ذلك الشمس  
الخضراء التي قد لا تشرق الا بعد أن تعمد بالدم !••

- « وعلى كل حال - فكر حازم - فاني قد اديت واجبي على  
قدر طاقتي !•• »

وعلى امتداد السرير طالعه جسده المتكور تحت الغطاء الصوفي  
الازرق وفكر ، بعدما منح الصورة نظرة خاطفة :

- « انظر !•• هذا هو انا الحقيقي الذي قد لا يرفضك انت  
- رغم كل احلامك الساذجة - ولكنه ، بالتأكيد ، سيتجاوزك وان  
يكن أسير سرير ضيق ، لانه يؤمن بأنك انت كذلك اسير اطار  
وزجاجة تنبئه بمرور الزمن فقط !!•• انظر !•• انه وجهي الذي  
لم ترتشه اصابع مصوّر !•• واية اصابع تتمكن من ازالة هذه  
الندبة الممتدة على وجنتي اليمنى ؟! •• »

وكم يعتلي ظهر ربوة مستشرفاً الوديان المحيطة به ، طوف  
حازم بنظرة بطيئة عبر جسده الممتد امامه ، بدءاً من الكتفين  
المكورين تحت نسيج القماش السميك ، واللذين ينحدر منهما - كما  
ينحدر النهر من قمة جبل - ذراعان مديدتان تنتهيان بقبضتين



ضخمتين ، والصدر الواسع الذي يلتقي بالبطن المندس تحت الغطاء  
الازرق ، و انتهاء بالفخذين المكورين اللذين ينحدر ، بعدهما ،  
الغطاء على الفراغ ليمس سطح السرير •

الظهير

---



قد تكون الشمس المنخطفة ، بوميض فسفوري ، على العشب ،  
وعلى اغصان الاشجار المتهدلة ، بعدما تشبعت بالمطر ، هي السبب !  
أو قد تكون الحمى المستعرة في عيني المحتقتين وفي رأسي المحموم  
.. أو قد يكون هذا السرير الذي مضت ، على ملازمتي اياه ،  
خمس شهور كاملة ! .. من يدري ؟! قد تكون تلك الاشياء مجتمعة  
هي السبب الحقيقي في اضعاء هذا الهاجس الفاجع المرير على كياني  
كلما اتصف النهار وتلامعت الارض والسماء .

في البداية كان الالم واليأس يطغيان على كل ما عداهما ،



فأصبح فخذاي المتورمان محور اهتمامي . ولكن حالما تخفف الألم ،  
بعض الشيء ، والتأمت الجروح ، اكتشفت بأن ذلك الهاجس الفاجع  
بدأ يلزمني لفترات طويلة . انه يبدأ هكذا : وأنا أنظر عبر النافذة ،  
اكتشف فجأة انّ منظر الاشجار المتعامدة على الارض المعشبة  
المحاصرة بين سياج السيستان والقصب ، وبين الواجهة الامامية  
للمنزل ، الذي أقبع خلف نافذة غرفته القصية ، منظر يتسم  
بالجمود .. بل وبشيء من البلادة ! .. أشجار ثابتة ، تهب الريح  
فتتقاذف جذوعها هنا وهناك ، والعصون تنساب مع التيار الجارف .  
الريح تهدأ والاشجار تسكن باستسلام لتهتز غصونها ، بين لحظة  
واخرى ، بغموض وكأنها تتنفس بطريقة ما . المطر يهطل والاوراق  
تتلامع تحت انسكاب الرذاذ المتواصل ، والسحب تتبدد لتعود  
السماء زرقاء كما كانت ، وآلاف العصافير تعود لتتخاصم بصخب  
بين الاغصان المتشابكة . والتلال المتراحة الى الشرق ، خلف  
الفسحات الظاهرة من خلال جذوع الاشجار وخلف السياج  
الخفيض المنتصب بسحاذاة الطريق ، تبقى هناك في مواقعها مجرد  
تلال جرداء ، تلهبها الشمس بوميضها الحاد صيفا ، ويكسيها الربيع  
بزغب عشب ناعم سرعان ما يجفّ عندما تتشرّب الرمال الندى .  
والطريق القادم من الشمال باتجاه الجنوب ، والذي مهدته عجلات  
الشاحنات الثقيلة فانخفض عن مستوى الارض الهشة المحدقة به ،  
نادراً ما يتبدد سكونه على هدير شاحنة عابرة - وهذا ما يحدث عادة  
مرتين كل يوم ، عدا « الجمعة » : الاولى في الصباح الباكر قبل  
بزوغ الشمس ، حيث الشاحنة الخاصة بالعمل والمتجهة جنوباً تركز

بمقدمتها العارية الجانبين أمام المنزل ، فأستطيع من مكاني هنا ،  
خلف النافذة رؤية « الرادير » المدخن باستمرار • انها تركن  
خلف فتحة السياج مقعقة بصخب في انتظار أخي « حميد »  
الذي يسارع ، وهو ببدلة العمل الزرقاء ، بارتقاؤها مشفوعا بصخب  
صحابه العمال ، ذلك الصخب الذي يهش طائر النوم عن عيني  
نهائيا ، والذي يبدو أن صوت المطر والحمى قد طغيا عليه صباح  
هذا اليوم فلم أصح من نومي ، والمرة الثانية هي بعد غروب  
الشمس ، حيث الشاحنة نفسها والمتجهة شمالا تركن بمؤخرتها امام  
فتحة السياج ليهبط منها « حميد » ببدلته الزرقاء المبقعة بلطخ  
العرق والزيت ، مشفوعا بتحيات الوداع المقتضبة من صاحبه  
العمال الذين نال التعب منهم مبتغاه - انها أشياء ثابتة تتسم بالجمود،  
وهي لحظات متشابهة تتسم بالرتابة • ولو أردت الدقة في التعبير  
لقلت بأنها حالة غريبة - قد اسميها مع نفسي ، في بعض المرات  
« حالة شاذة ! » - تناقض ، وبشكل صارخ ، وضعي الذي سبق  
ادائي للخدمة العسكرية وللخدمة الاحتياط فيما بعد ، وهو وضع  
أقل ما يقال عنه انه بعيد عن الجمود والرتابة •

كانت قدماي تذللان أطول مسافة تفصل منزلنا عن القرى  
الكثيرة المكدّقة به شمالا وشرقا وجنوبا ، والأقارب وأقارب الاقارب  
كثيرون ، توزعوا بعدما تكررت الهجرات من أرض لأرض كما  
تتوزع حفنة رمل تذررها الريح • وهكذا قبل بزوغ الشمس تجدني  
وحيدا منفردا تتقاذفني السفوح والوهاد أو تقتنصني ادغال كثيفة  
مكتنفها الغموض والتوجس ، أو تنحدر بي ضفاف أنهار مدومة

بين حواف مرتفعة اختفت تحت نسيج نباتي متماسك قوامه  
حشائش ونباتات شيطانية مجهولة الاسماء تقاثلت مع بعضها  
بشراسة لتضرب بجذورها في الارض الرطبة الموغلة في القدم  
والنسيان . وما ان يتلقف الجريد الاخضر اول شعاع لشمس  
الصباح حتى تجدني مفترشاً حصيراً بالياً في جوف كوخ ما ،  
والاصدقاء والاقارب ، رجالاً ونساءً محدقون بي ، يسألون عن  
صحة الوالد والوالدة والاخ ، وأخيراً عن صحة الخطيبة « جميلة »  
زوجتي المنتظرة ، وأنا لا أكاد افتح شفتي لأرد على سؤال انبثق  
من فم ادرد لعجوز تشدها بنا قرابة بعيدة أوهى من خيوط  
العنكبوت ، حتى أفاجأ بسؤال آخر عن « الخطيبة ! » ، سؤال  
ماكر ينطلق من شفتين كرزيتين يحيط بهما خدان متكوران على  
غمازتين لم تطلهما الشمس بضوئها في يوم ما ! .. والرحلات عبر  
القرى والادغال والوهاد تتكرر ، ولا اسهل من ايجاد الحجج  
لأجل القيام بها : رزنة من القمح اردفها على ظهر دابة ... و ...  
« ديخ ! » .. ويلسع الغصن الطري مؤخرة الدابة فتنتطلق نحو  
المطحنة سابقة الريح ... يسرّ صديقي الحميم « سلمان »  
قريباً من المنزل ، ودون ان يطرق الباب ، بل وحتى دون أن يقف ،  
ينادي بصوته المبحوح - الذي أورثته اياه رطوبة الانهار  
والمخاضات العامرة بالاسماك - مواصلاً طريقه الى الامام :

- حازم .. حازم ..

قد أكون في المنزل فأردّ عليه ، أو قد لا اكون - وهذا ما  
كان يحصل غالباً - فيبلغ أمي أو جميلة ان التحق بهم فجر الغد

ومعي عدّة « الشغل » وفجر الغد استيقظ مع صياح الديك  
واتوجه نحو المطحنة حاملاً معي شباك الصيد والمسائل الضرورية  
الآخري ، أو قد يخبرهما أن انتظرهم مساء الغد عند القنطرة  
الشمالية قرب دغل « الخندق » فأردف خلف ظهري « كسرية »  
أبي ، مالئاً جيوب سترتي بطلقات « الصجم » واتوجه الى هناك  
لاشاركهم في اقتناص الخنازير التي عاثت في حقول القمح فساداً.  
أو قد يمرّ بالمنزل صديقي الآخر « خالد » وبعد أن يفرق أُمي  
وجميلة بسيل طرائفه ونكاته التي لا تنقطع حتى تخضل أعينهما  
بالدموع وتكاد انفاسهما تتقطع وقد أمسكت كل واحدة منهما  
بجنبها بعدما بدأ بطنها يؤلمها بسبب الضحك المتواصل ، يحدثهما ،  
بصوته الناعم ذي النبرات المتناغمة ، عن آخر اخبار « النهوة »  
والقتل والخطف ، وفي النهاية وقبل أن يغادر المنزل - الذي ترددت  
الضحكات الصاخبة تحت سقفه طوال مكوثه - يخبرهما ، وكأنه  
تذكر أمراً غاب عن ذهنه ، أن انتظره مساء الغد في المقبرة القديمة.  
ونلتقي هناك في الموعد المحدد ، ومن ثم ننحدر نحو مضارب  
العجر !!

وليس هذا كل شيء !! فقد كان أبي فلاحاً ، والفلاح  
الحقيقي لا يشعر بكونه كذلك الا ان توفر لديه شيئان لا ثالث  
لهما : أرض يزرعها كل موسم لقاء حفنة قمح - وأبي لم يتخل عن  
الزراعة في يوم ما وأراضي الآخرين التي بحاجة الى الفلاحة كانت  
كثيرة - وعدد من الماشية ترعى الكلا النامي والمتوفر في كل مكان  
فتمنح العائلة حليبها وصوفها ، وعند الضرورة ، لحمها - وأبي



استطاع أن يشتري بعض الماشية بعد هجرتنا لقريتنا القديمة -  
ولأن أبي كان فلاحا فقد تعددت اعمال الحقل ، كما اتخذ الاعتناء  
بالماشية وجوها عديدة كالرعي وجزّ الصوف والاعتناء بصغار  
الماشية وجرش الشعير وتمليحه في بعض المرات ، وهناك اشياء  
أخرى ، فقد يادرني أبي في احدى الليالي :

- « البقرة الشقراء تخور كثيرا يا حازم .. انه الربيع كما  
تعلم ، وهو موسم السفاد ! .. »

واجيب أبي :

- « حسناً يا أبتاه .. لـ « عويد » ثور هائل سيمنح بقرتنا  
عجلاً رائعاً ! .. ما تقول يا أبي ؟! »

ويوم الغد ادفع بالبقرة امامي متجها نحو الخط الرمادي  
للتلال الجنوبية حيث قرية « عويد » •

انها حياة ابعد ما تكون عن الجمود والرتابة ، ولكنها حياة  
اعتيادية أيضا قد لا تختلف كثيراً عن حياة كثيرين من البشر  
ما زالوا يدبون بأقدام قوية على سطح هذه الارض الفسيحة ، ولكنني  
أراها ، الآن ، وكأنها تلبست لبوسا آخر أكثر سحرا وجمالا ،  
وهذا ما يعيد الى ذاكرتي ما نطق به أبي في تلك الليلة التي اعقت  
تسريحتي من الجيش • قال أبي :

- « .. الاشياء الجميلة لا تستطيع ان تراها على جمالها  
الحقيقي الاّ وأنت بعيد عنها ! .. »

وأبي ما سمعته يوما يطلق بأحكامه جزافا ، فقد كان من عاداته قبل أن يتكلم في مثل هذه المسائل التي هي بحاجة - كما يقال - الى هرش الرأس ، كان من عاداته أن يخصص بعينه أولا ، مضيقاً اجفانهما المجعدة وكأنه يصوب بندقيته نحو هدف بعيد يحتاج الى تركيز شديد ، وبعدها يسحب نفساً او نفسين متعاقبين من سيكارتة اللف ، تهتز تفاحة رقبته الناتئة بانسياب لتنبثق من فمه الكلمات واضحة ، غير ممضوغة ، مصحوبة بضبابة دخان • انّ ابي ، ذلك الصامت الوقور الصلب بقسوة - عند الضرورة - كان نتيجة حتمية لحياة قاسية صهرت فتوته وشبابه وكهولته • لقد جرّب مرارة الغربة ليحارب - مرغماً - مع « الجندمة الانراك » ووجدانه مشدود الى كوخ قميء مشاع أمام الرياح الهابة من الجهات الاربع ، ضمّ هيكلي ابيه المحدودب وأمه الضريرة • لذا كان ابي يتكلم في بعض المرات النادرة بتلك الطريقة التي تجعل المرء لا يستطيع أن يصدق بأنه امام فلاح أمي ، كل مجده في الدنيا هو انه اشترى قطعة أرض صغيرة رفع فوقها سقف منزله المكين !

حينما اعود لتلك الليلة التي اعقبت تسريحى من الجيش ، اجدها ماثلة في ذهني بكل وضوح وكأنها كانت مساء البارحة لا قبل ست أو سبع سنوات ! • وتعود كلمات ابي لترن في رأسي من جديد ، أبي الذي لم يبق منه الان سوى قبر ترابي قميء نظله سدره عجفاء ارتكنت احدى زوايا تلك المقبرة القديمة التي نوسطت غابات النخيل •

كانت ليلة شتائية غائمة اعقبت نهارا عاصفا ، هبت الريح

خلاله من جهة الشرق ، مما حتم عليّ أن أسرع بالسفر خشية  
عطول الامطار . ورغم الحاح اصدقائي الجنود بالبقاء احتفاء  
بالمناسبة ، ذلك الالاحاح الذي انقلب الى ضجيج صاخب لا بد انهم  
عوقبوا بسببه فيما بعد ، فاني شددت حقييتي الجلدية دون ان  
أعي ما كانت تقوم به يداي المرتجفتان ، فقد كان هاجس السفر  
يُنحّ عليّ بصورة غريبة ، وكأن حياتي كانت ستنتهي لو اتني أجلت  
سفرتي تلك ليوم آخر ! ..

لم تمض سوى ساعتين على غروب الشمس  
ووصلت المدينة التي تقع القرى وبيوت الفلاحين  
- وبضمنها بيت ابي - في ظاهرها الشرقي ، حيث السهوب الخصبة  
تبدأ بمحاذاة الغابات ، فتنداح الى الامام بانسياب لتنتهي بعيدا  
عند تخوم التلال الشرقية الملفعة بضبابه رمادية . وحالما صفقت خلفي  
باب السيارة ، التي تقاذفت اجسادنا فوق مقاعدها الخشبية القاسية  
لفترة طويلة ، اخترقت المدينة من اقصر ازقتها المؤدية الى غابات  
النخيل مباشرة ، فولجت احد المرات الكثيرة والمتشابكة عبر  
تماسك الادغال المدلهمة ، متوجها الى المنزل ، حاملا لابي وللآخرين  
وللحقول والنخيل شوق ثلاث سنوات كافرة استهلكتها الغربة من  
عمري ، وليتها كانت الغربة لوحدها ، فهناك كان عار الهزيمة الذي  
كنا نتجرع مرارته كل يوم ونحن متراصفون في جوف خنادق  
رطبة امتدت تحت سماء مفتوحة أمام طائرات العدو الغادر . وكانت  
شمس « حزيران » التي تلبست شمس الشهور الاثني عشر ،

تتلامع على حديد خوذاتنا المنسدلة على عيون تومض بالسخط والغضب .

في تلك الليلة ، ولم يزل وعشاء السفر وتعب الايام المريرة ،  
يثقل كاهلي ، تحلقنا حول النار الكبيرة المستعرة في موقد طيني  
توسط - ولا يزال - أرض الغرفة الصغيرة الممتدة على يمين باب  
المنزل ، والتي كانت بمثابة مطبخ البيت نهارا ، وغرفة نوم والديّ  
ليلا ، فأبي كان يرفض ان ينام - نوم الملوك - على الأسرة المغطاة  
بالافرشة القطنية الناعمة !.. فهناك ، أمام الجمرات المتوهجة تحت  
الرماد ، كان يضطجع ساحبا ، فوق جسده ، عباءته الصوفية الثقيلة .  
مع رشقات الشاي ، وعقب أحاديث متشابكة تنقلت بنا من اطلال  
قريتنا القديمة الرابضة على حدة اكمة - بدت « كالعين العوراء »  
كما قال « الملائك » الذي رغب في تسويتها بأرض السهل ، ولكنها  
بقيت شاهدا على عجزه المطبق - الى حكاياتي عن الجبهة وعن الانتظار  
المرير عقب حرب خاطفة ما استهلكت سوى ستة ايام من ذلك  
الصيف الحزيراني القاسي !.. وكان لحكاية صديقي « مصطفى  
غريب » وقعها الصاعق المؤلم عليهم ، حتى إن أمي ذرفت عليه  
دموعا سخينة . مع رشقات الشاي تنقلت عيناى المتعطشان لتلك  
الملامح المألوفة لدي ، عبر وجوههم : وأول ما طالعني ، كان وجه  
ابي المجعد بأنفه المندفع الى الامام وبشفتيه المكتنزتين ، اللتين  
شوههما الرماد ، والمطبقتين على سيكارة « لف » عملها من حفنة تبغ  
كنت قد دستتها في جيبه حال انتهائنا من العناق ومن تبادل  
القبلات الرنانة ، ومن استغرابه المشوب بالاعجاب والاعتزاز لكوني



قد كبرت ، وتأكيدي المتواصل ، وأنا أربت على ظهره المحدود ب  
بعض الشيء ، بأنه قد استعاد شبابه القديم - وهذا ما كان يناقض  
الحقيقة ، وكان من باب المجاملة ، فقد أيقنت ، تلك الليلة ، بأن  
أبي يقترب من نهايته ، وعلى كل حال كانت نعمة لم نكفر بها لكونه  
قد تخطى السابعة والستين رغم التعب المستمر ورطوبة الحقول التي  
أورثت مفاصله الروماتيزم المزمن - كان أبي يواجهني ، ووجهه  
القديم يتداني ويتعد من خلال السنة النار المتراقصة في الموقد ،  
ويداه الخشتان المتجسأتان اللتان بلون لحاء الشجر القديم ،  
متشابكتان حول ركبتيه • على يمينه كان وجه أُمي الممطوط والمؤطر  
بالقوطة السوداء ، يطالعي بلهفة وترقب كاد يجعلني أظن بأن  
هناك خيوطا خفية تربط وجهينا ، فمع كل استدارة أقوم بها كان  
وجهها يستدير للاتجاه نفسه متحولاً بأجمعه الى عيون مترصدة  
مستعدة لتلبية أدنى إشارة مني •

بجانبتها ، على يساري ، ارتكنت جميلة أمام  
الموقد ، وعيناها الواسعتان منصبتان ، باستغراق لذيذ ،  
على النار ، وقد تلامع خذاها بسبب اللهب المستعر وبسبب نوهج  
فرحتها التي هصرت احشاءها • على يميني ، فوق الموقد ، قبع  
حميد وأرنبة انه المرتفعة تلامعت حتى كادت تقطر زيتا يكفي  
لقلي بيضة ! • • وكان قد غرس ركبته اليسرى في جنبي ، والثانية  
في جنب أبي الذي كاد يلطمه على وجهه أكثر من مرة بسبب  
تلك الركبة اللعينة التي نعصت عليه استغراقه اللذيذ وهو يدخن  
سيكارته اللف •

عقب لحظة صمت طارئة سمعتني اتكلم وكأن لساني نطق  
قبل أن يستشير رأسي :

- وأنا هناك ، حيث الاراضي المتسوجة تدرج غربا ، منغلقة  
على جيوب صخرية ، تختفي ، بين طياتها ، مدافع الاعداء المتربصة  
بنا ، نحن الذين كادت اجسادنا تتعفن في خنادقنا الرطبة ،  
وكادت رؤوسنا تلتهب تحت وميض الشمس المنصب على  
خوذاتنا . وأنا هناك ، كنت وكأنتي اراكم من خلف زجاج مندى  
بالرذاذ : كل شيء قريب وواضح ، ولكنه في الوقت نفسه ، غريب  
بصورة لا واقعية كما يحدث في الحلم . كل وجه وكل نخلة وشجرة  
رأيتها وقد اكتسبت سحرا غامضا . جذوع النخل والاشجار الخشنة  
الناثة كنت ألتمسها في خيالي ولكنها لم تكن كذلك . الطرق  
والممرات السرية المتشابكة عبر الادغال والاحراش ، والتي اخترقتها  
عشرات المرات متنكبا بندقية الصيد أو اعزل الا من جسارتي  
وتهوري ، لشدّ ما شعرت بالندم لكوني لم اقف مترصدا تعرجاتها  
ومراقبا الاشجار التي تحفّ بها غصنا غصنا . كنت اتذكر الخلاء  
المحيط بالمنزل وشجرة الصدر والنهر الذي طالما ابتردنا ، أنا وجميلة  
وحيد ، في مياهه السريعة ، والسهوب المطوفة باستواء حاد شرقا  
لتنتهي بمحاذاة التخوم الصخرية للتلال التي يخرقها ، بعيدا في  
أقصى اليسار ، وادي النهر الكبير حيث المخاضات وعيون الماء  
المنبجسة من الارض الهشة ، وحيث الجداول والانهار المدومة  
تتفرع من هناك . كنت أرى نفسي تحت عتمة الادغال الزرقاء  
المدلهمة ، والشمس لا تستطيع النفاذ الى الارض المعشبة العامرة

بالهوام والحشرات الهشة الدقيقة التي تولد وتكبر وتتزوج وتموت  
خلال اليوم الواحد . متربا مثقلا بالغبار كابن عرس ، اتقدم عبر  
التلال وثوبي ملطخ بالأتربة ونسيج العنكبوت ، والاوراق الجافة  
ملتصقة بشعري الملبد وانا اتوغل في جوف الاكواخ المهجورة  
والجرذان والصراصير والجنادب الخضراء الممتلئة بعصارة العشب  
تتقافز أمامي لتختفي تحت بقايا القش والعشب اليابس . أصحو  
لارى نفسي مقذوفا خلف كوة مفتوحة على الخلاء . اشم الهواء  
الطري أو اتشم الروائح العطنة المبثوثة في الاماكن القديمة  
المهجورة ، والروائح الزنخة في الاسطبلات التي غادرتها الخيول  
مخلقة على الارض المثقلة بالقش وبقايا الروث ، رائحة بولها الحادة .  
أدبّ بحذر قرب القرى المحاطة بأسيجة السيسان والصفصاف  
والحلفاء والعناب ، واسراب كلاب تغر اشداقها الرطبة الوردية في  
وجهي . أتطلع ملياً الى الجداول حيث العين تنفذ خلال الماء الضحل  
مترصدة الحصباء الملونة واسماك دقيقة بحجم اصبع البامياء ، تتلامع  
خلال التيار ، والقرويات المرحات ينحدرون نحو الماء البارد  
كاشفات ، بجسارة وتحد ، عن سيقان مكتنزة راسخة ، تشي  
بالرغاب السرية المكبوتة تحت لفائف القماش المتسخ المثقل برائحة  
العرق الاثوي ، وتحت المآزر الملتفة على اللحم الساخن . .

واستمر لساني يتقافز في فمي والكلمات تتال من بين  
شفتي حتى هجست بأنتي سأغص بكلماتي واختنق ، لكنني  
استطعت في النهاية أن أكبح جماح لساني بتساؤل حاولت أن اختصر  
فيه كل ما اعتلج في صدري :

- أبي ، لماذا تكون الاشياء أكثر جمالا عندما يتعد المرء عنها ؟

فأجابني بهدوء ، نافثا دخان سيجارته من فمه ومنخريه المشعرين  
مخصوصاً عينيه بتركيز حاد وكأنه يصبوب الى هدف معين :

- لأن ذكرى الشيء أجمل من حقيقته !!

وأبي وان كان فلاحاً أمياً ، ولكن لو تهيأت له حفنة تبغ مناسبة وقدر شاي ونار بصطلي على وهجها مدفئاً عظامه المعطوبة ،  
لتكلم بطريقة غريبة طالما أثارت حفيظة اصدقائه الفلاحين السذج ،  
وطالما ملأتني بالدهشة والاستغراب ، بل وبشيء من الفخر .

- لم أفهم يا أبي !!

فقال :

- حسبت أن سنوات ثلاثاً سلختها الحياة العسكرية من  
عمرِكَ الذي تجاوز الحادية والعشرين ، كفيلاً بأن تعلمك أشياء  
كثيرة !!

وتطلع باتجاهي ملياً ، ومن ثم عقف بعينه نحو النار  
واستغرق في تفكير عميق ، خلت وكأنه قد نسينا جميعاً ، ولكن  
تفاحة رقبتة الناتئة سرعان ما تحركت ، وانداح صوته الواضح  
النبرات عبر النار المتراقصة بيننا :

- أنت تذكر ما رويته لك عن « الحرب العظمى » التي خضت  
نمارها مرغماً ككثيرين ؟! يومها كانت البغال وسائط نقلنا الوحيدة ،



فعلى صهواتها كنا نجتاز الصحارى الملتهبة او نفوص بقوائمها الراجفة .  
بسبب البرد والجوع ، في الاوحال الكثيفة كالصمغ ، فتكاد  
تفشل في اخراج قوائمها من ذلك الوحل الذي كان يصل ، في بعض  
المرات ، الى مستوى بطونها ، كان الجوع المزمع عدونا اللدود ،  
فكنا نبيع ، للصوص وقطاع الطرق ، ملابسنا وقبعاتنا - التي كنا  
بأمس الحاجة لها - لقاء وجبة طعام هزيلة . وهناك كانت الامراض  
أيضا ، أمراض فتاكة ذات اسماء غريبة كالحمى الصفراء أو الحمراء  
والطاعون والجذام .. وكانت تحصدنا حصدا فلم يكن غريبا أن  
ترى جثث البغال النافقة بسيقانها المتصلبة بتشنج وبطونها المنتفخة  
المغطاة بغطاء اسود غريب سرعان ما كان يتمزق على شكل خرق لم  
تكن سوى عشرات من الغربان الناعقة بشؤم ، وببطء وغموض  
كانت تلك الغربان تصفق بأجنحتها لتحطّ على اشجار غارية ، لم  
نصدق بأنها أورقت في يوم ما . ولم يكن غريبا أن ترى قرب جثث  
البغال جثث رجال هزيلي الأفخاذ منتفخي البطون ، مقذوفين  
بوضعيات غريبة وقد انكشفت اجزاء من اجسادهم كان يجب أن  
لا تكشف !! .. كنا وكأنا نراهم في حلم كابوسي لا يطاق لا بد لك  
أن تفكر خلاله باصرار : انه حلم .. انه حلم !! لحظة وامسحو ..  
سيهز احدهم كتفي فأتخلص من هذا الحلم الكريه !! .. ولكنه لم  
يكن حلما !! .. تصور يا بني كنا نراهم ولا نوارىهم التراب ..  
أقصد الوحل - لانه لم يكن هناك أيما تراب ! - فلو تأخرنا قليلا  
للحقنا بهم وأصبحنا طعاما سائغا للغربان . في البداية ، وعندما  
ابصرت أول جثة ، ناشدت رفاقي القريين مني في ذلك الرتل المديد

الذي لا أول له ولا آخر ، والذي قوامه بغال متراصة واحدا ، أثر الآخر ، يعتليها رجال صامتون مبقعون بالوحل من رؤوسهم الى ركبهم المغروسة في جنوب البغال ، ناشدتهم أن يساعدوني في أن نوارى تلك الجثة الوحل !.. ولكنهم اولوني آذانا صماء ، فانحرفت عن الرتل باتجاه الجثة ، وعندما أمسكت بيدها محاولا أن أقلبها على ظهرها ، لم أر الا وتلك اليد المتصلبة تنفصل ، بصورة فجائية أرعبتني ، عن الجثة لتستقر في يدي وسائل أزرق كثيف هو مزيج من القيح والوحل الذي تشرب به اللحم التن ، يقطر منها ، ووسط دوامة قهقهات صاخبة انفجرت تحت تلك السماء الصماء النائية شعرت بالغثيان يتصاعد عبر حلقي ، وتقيأت كل ما في جوفي الخاوي ، بل كدت اتقيأ معدتي السقيمة . بعدها لم اقترب من أيما جثة . كنت أوليها ظهري متمماً بخشوع ، على أرواحها المعذبة ، سورة « الفاتحة » .. وذلك كان اضعف الايمان !..

ومن عقب سيكارتته التي كادت تنفد اشعل سيكارة أخرى لفها بأصابعه الماهرة اثناء روايته لتلك الحادثة الفريدة ، يوم سيق مع « الجندرمة » ليشارك في الحرب « العظمى » مع الاتراك . وبعدما انساب من فمه ومنخريه دخان بلون الضباب واصل كلامه :

- قد يصلح ما رويته الان لان يكون حكاية ممتعة !... ولكن تأكد يا بني بأنه .. لم يكن كذلك !.. ابدا .. لقد كان

الموت بأشع صورهِ !.. وهكذا فانك قد ترى وجهك في المرآة  
أجمل من وجهك الحقيقي !

- ولكنني لا أرى وجهي الا في المرآة فما أدراني انه أجمل  
من وجهي الحقيقي ؟!

ومرة أخرى استغرق أبي في تفكير عميق متطلعا ، بعينين  
غائمتين ، لنقطة خلف رأسي ، وكأنه يخترق الزمن بطريقة ما عائدا  
خمسین سنة الى الوراء ، الى أيام فتوته البعيدة التي نضب ماؤها •  
تلك الفتوة الصاخبة المتوزعة بين حياة عسكرية مريرة - كانت اشبه  
بحكم الاعدام - وبين هرب والتجاء الى غابات النخيل لبعض  
الوقت ، وعودة ثانية الى الحياة العسكرية ، عودة مصحوبة بصفعات  
« الجندرمة » • وهرب آخر .. وهكذا طوال عشرة أعوام كاملة •

واستفاق ابي من تأملاته مخوِّصا بعينه نحوي ، قائلا :

- وكذلك الاشياء القريبة ، لا تستطيع أن تراها على جمالها  
الحقيقي الا وأنت بعيد عنها !

ولكنني تساءلت باصرار بعدما اعجبني قوله ذاك عن الوجه  
والمرآة :

- ولكن أيّ بعد بين وجهي والمرآة ؟!

فأجابني بنبرة متهمّة جعلتني اظن ، للحظات ، بأنني لا أزال  
ذلك الصبي الذي يجرجر أذيال ثوبه في الوحل :

- .. المرآة .. أبعد من وجهك المنسوب على رقبتك !..

لم يجانب أبي الصواب فيما قال فما أنذا الآن ووهج الظهيرة  
المندفع من النافذة ، يكاد يلهب عيني المحتقتين ، اعود لا تذكر  
بقعة ما مغطاة بشجيرات السوس وانا اخترقها بتوجس خشية أن  
يдахمني خنزير بري يخفيه الدغل المتناسك ، ولكن ذلك التوجس  
ينقلب ، الآن ، الى ترقب مليء بالانفعال ، ولو حدث وان هاجمني  
وجرحني الخنزير ، في ذلك اليوم البعيد ، لا كتسبت تلك الذكرى  
سحرا وجمالا اكثر توهجا !

عندما عاهدت أبي بأن اتفد « وصيته » لم اكن اتصور بأنني  
ملزم بعهدي ، غاب عن ذهني حديثنا في تلك الليلة التي اعقبت  
تسريحتي من الجيش • ولكن لشدّ ما كنت مخطئاً ؟ • فما أن اسلم  
أبي روحه وواريناه التراب ، حتى اكتشفت بان ذلك العهد قد  
تحول الى دين لا بد لي من ادائه ! • لقد اكتسب صفة القدسية ،  
ويا ويلي من ضميري ان لم اتفذه فيما بعد !! • وهكذا حالما كنت  
أحاول أن اعيد عن عهدي ذاك ، كانت عينا أبي تعودان ، رغم  
الغياب الرهيب ، لتتطلعا في عينيّ باصرار ولترن كلماته في  
رأسي :

- « أوصيك بجميلة • • »

منذ طفولتي ولدي تصور ما - قد يكون مبهماً بعض  
الشيء - عن الموت • انه تصوّر لم يتحول الى قناعة متأصلة ثابتة ،  
والا لخرج عن غموضه وابهامه • ولكنني على كل حال بتّ أو من  
بأنّ القناعات ليست وحدها القابلة للتغيير ، فلكل منا قناعاته التي  
قد لا تكون كذلك لدى الآخرين ، فالحياة بذاتها تحتل التغيير ،



ولكن يظل هناك ، في نقطة ما من الوعي ، اشياء معينة تتكرر بطريقة ما وعلى فترات زمنية قد تطول أو تقصر ، لا يسلك المرء ازاءها تفسيراً واضحاً •

انه تصور مبهم لم استطع تجسيده بهيأة معينة في ذهني • هل أقول بأنني اتصور الموت على شكل انسان او حيوان او شيء من هذا القبيل ؟ • لا ابدا •! اذن فلاقل بأنني اتخيله - مجرد تخيل - على هيأة غمامة غامضة ذات أريج خدر تهبط بطريقة ما لتنسج خيوطها الوهمية بشكل شرقة تكتنف المحتضر ! • وفي لحظة غامضة خارج الزمن - لحظة سرية - يتوحد الاثنان ببعضهما: المحتضر والغمامة ، عندها يكون الموت قد أعلن عن نفسه بقسوة مذهلة •

في ذلك اليوم كانت تلك الغمامة تطوّف باصرار فوق سماء منزلنا المسالم • ولكن احتضار أبي طال ! • كان خداه المجددان قد انخسفا الى الداخل ، ووجهه استطال بصورة غريبة ، وعيناه بدتا وكأنهما من زجاج ، وكان ابي ينظر بهما إلينا ، نحن الاربعة المطلين عليه بوجوهنا على شكل حلقة احاطت به ، وكأننا من قاع بئر عميقة فبدا وكأنه لا يرانا بوضوح ، ولكنه كان يميزنا بحدسه ، ذلك الحدس الحاد الذي لم يفارقه وهو في آخر لحظات احتضاره ، كان يتنفس بطريقة غريبة ومؤلمة وكأن صدره المتشنج على وشك الانهيار مع كل زفير صافر ينطلق منه • ورغم كونه لم يزل حياً • الا انه بدا وكأنه لا ينتمي لعالمنا الذي كنت احسه من خلال دمي المندفع في جسدي بضراوة • قال لي ، بصوت مبجوح غريب صادر

من قاع الحنجرة ، فبدأ صوتاً لا إنسانياً لا يستطيع نسيانه الى الابد،  
قال لي ، بصوته ذاك الذي كاد يطغي عليه بكاء أمي ونشيج  
جميلة ونهضة حميد :

- أوصيك .. بجميلة ..

ووجدتني افكر مع نفسي :

- « ولِمَ جميلة بالذات ؟! »

وكأنه قرأ ما دار بخاطري ، فذلك الاحتضار المرير لم  
يستطع اطفاء قوة حدسه الجبار :

- انها عهدة في رقبتك !.. لقد اتفقنا .. أنا واخي  
« عبدالباري » ...

وتوقفت للحظات ، ولم ادر هل توقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ،  
أم توقف بسبب تلك الغصة التي عصرت حنجرتة عندما تذكر  
أخاه « عبدالباري » الذي ذهب بعيدا وانقطعت عنا أخباره ؟ انها  
لحظات عذاب شجي تذكر المرء بجميع الاشياء العزيزة التي لا يملك  
ازاءها سوى الحسرات :

- لقد اتفقنا انا وعمك .. على أن تكونا لبعضكما !...  
تزوجها يا بني ..

وكما تسقط حزمة من ضياء الشمس من خلال فتحة ضيقة  
في السحب المتماسكة لتتصبّ على بقعة ما من الارض فتتوهج تلك  
البقعة بصورة غريبة وسط الخلاء الداكن اللون ، وجدت ذلك

اليوم البعيد يتجسد أمامي بوضوح : ها هو ابي وذاك عمي  
جالسان على الدكة الممتدة على يسار باب الكوخ ، وهناك آخرون  
قد لا اتذكرهم الان ولكنني اتذكر من بينهم « علوان » الذي  
ذبح البقرة المحتضرة ، وها انذا متكيء بظهري الى جذع شجرة  
التوت اقذف جميلة ، بين لحظة واخرى ، بنظرات خاطفة وانا اكنم  
ضحكة كبيرة احتبستها في صدري بسبب فحيح « علوان » المصاب  
بالربو . نعم تذكرت ذلك اليوم وكيف انقذنا البقرة ذات الرقبة  
المتهدلة ، وهي في الرمق الاخير ، من بين برائن الذئاب ، وكيف  
ذبحناها واقتنصنا العجل من احشائها الدافئة . وكيف سمعنا ،  
أنا وجميلة ولاول مرة ، من اننا سنكون لبعضنا !..

قلت لابي بصوت غلبه النشيج :

- هديء من روعك يا أبتاه .. سأتزوجها !..

ولكنني فكرت ، مع نفسي ، بأنتي غير ملزم بذلك !.. فقد  
كان بيني وبين « الزواج » - وبينني وبين اشياء عديدة أخرى -  
خنادق رطبة وخوذ تتلامع عليها شمس « حزيان » ، وعينا  
« مصطفى غريب » البريثتان لدرجة لا تطاق !.. وان فكرت  
بالزواج فجميلة هي آخر من افكر بها .. ألا تكاد جميلة تكون  
امتدادا لخبيتي ؟ ثم ألا تكاد تكون بمثابة أخت لي ؟!

ولكن ابي ثبت عينيه المحتضرتين في عيني المخضلتين بالدموع  
.. ولم يغمضهما !.. ثبتهما في عيني باصرار .. بل وبقسوة  
بدت اكبر من طاقتي ، أنا القابل للانكسار مثل زجاج مصدوع

بعدهما تشرب دمي بمرارة الخيبة ،.. لم يغمضهما .. ابدأ .. ابدأ  
انه لم يغمضهما .. وكان صدره المتهدم يختضّ بفوضى محسومة  
وكأنه يتشبث بآخر نشقة من هواء العالم المشاع للآخرين ! ..  
كان يتنفس بايقاع مؤلم وشفته اللتان بلون الرماد تنفرجان  
وتنطبقان وفكه يستطيل .. ويستطيل ليستطأ أخيراً على صدره  
وفمه الذي تحلبّ لعاباً بارداً يفرّج بدهشة واستسلام .. واختطف  
الغمامة الغامضة أبي ، ولم يبق بيننا سوى جسده البارد المديد .  
ولكن وميض عينيه المنبثق من خلال اجفانها المشقوقة ، سقط على  
عينيّ واخترقهما كسيوف من نار .. أوصيك بجميلة .. أوصيك  
بجميلة .. أوصيك !!

ومثلما التقت عيوننا ، في ذلك اليوم البعيد عندما سمعنا ،  
لاول مرة ، من أننا سنكون لبعضنا ، التقت عيناى بعيني جميلة  
ووجدتني افكر :

- « أهو قدرنا يا جميلة ان نكون لبعضنا ؟ ام انها ارادة  
الآخرين ؟! .. »

ولكن .. لا .. وجدت نفسي ارفض وبأصرار أن اكون انا  
من يقتحم سور ذلك الجسد الذي بدا لي ، في تلك اللحظة ، محرماً ،  
لا يحق لي مسه .. قلت مع نفسي :

- « قد يلطخ الدم الذي سيتزف ، عندما يتوحد جسدانا ،  
قد يلطخ النقاء المخيم فوق براءة روحينا ! .. قد يلطخ ذلك الدم  
هذه الاصابع التي ما ارتفعت الا للسلام او للعمل ! .. قد يلطخ



ذلك الدم الارض التي ما مرّ ربيع الا وأتت أكلها وان كانت  
للآخرين ! قد يلطخ ذلك الدم ... »

ولكن المسألة كانت أعمق من ذلك .. انها اعمق من أن تكون  
مجرد دم ينزف وجسد ينتهك .. انها تعني التجاوز ، تجاوز اصراري  
بأن جسد جميلة مجرد سور يقتحم ! لِمَ لا يكون جسدها رحما  
يمرع بالخصب والأمومة ؟!

ولكن التجاوز ! .. التجاوز ! .. التجاوز ! ... كيف  
سيتم ؟! ذلك ما كان يحيرني حيرتي من اصراري باستحالة استطاعتي  
أن أمس جسد جميلة ! ..

برعمت اشجار التوت من جديد بعدما نفضت اوراقها القديمة،  
والعشب القديم تلوى شاحبا على أرض الفسحة الممتدة أمام المنزل،  
وتفجرت من وسطه سيقان خضراء مزغبة لعشب جديد واعشاش  
العصافير التي هدلت الريح بعضها ، وجرفت الامطار البعض الاخر،  
سرعان ما عادت اليها العصافير وعمرتها من جديد . وحتى سياج  
القصب والسيبان ، فقد ازداد تماسكا وتفجرت نباتاته بخضرة  
كثيفة ، ومن المؤكد ان مياهها كثيرة اصطفقت بين حافتي النهر طوال  
تلك السنة التي مرّت على وفاة ابي . والغمامة الغريبة تلاشت  
تماما وكأنها لم تظلل سماء منزلنا المسالم في يوم ما ..

كنت في غرفة « المطبخ » واحشاء بندقتي « الكسرية » التي  
فسختها ، مبعثرة أمامي على خرقة مبقعة بالزيت ، وحفنة من طلاقات  
« الصجم » موضوعة على ورقة بيضاء ولهب النار التي اذكتها أُمّي في

الموقد ، يتلامع على اعقابها النحاسية • كان « سلمان » قد مرّ على المنزل عصر البارحة ، وكالعادة ، دون أن يقف ، طلب من أمي أن تخبرني بأن انتظرهم مساء اليوم عند الدغل • وبطبيعة الحال ادركت بأننا سنقتنص الخنازير التي ما أن اينعت حقول القمح حتى عاثت فيها فسادا ، وتلك كانت المرة الاولى التي اخرج فيها للصيد بعد وفاة أبي ، فكان لابد لي من تنظيف وتشحيم البندقية الصدئة التي لم تمسها يد طوال سنة كاملة •

امامي ، في الزاوية القصية ، قبت جميلة منهمكة في غرز ابرتين طويلتين في قطعة نسيج كانت بين يديها ، وقريبا مني كانت كرة خيوط صوفية تتقاذف كلما سحبت جميلة رأس الخيط المتصل بنسيجها ، لقد اصبح من دأبها نسيج مثل هذه المسائل التي قد تكون ذات فائدة لصد برد الشتاء ، وعلى كل حال فالصوف كان متوفرا لدينا تلك السنة ، فقد كنا نملك بضعة رؤوس غنم كانت بعهدة أخي حميد الذي كان يتبرم ، في بعض المرات ، من رعايتها مؤملا نفسه بأنه سيتخلص منها عندما يدعى ، قريبا ، الى الخدمة العسكرية • • وبطبيعة الحال كانت تلك فرصة ذهبية يتيحها لنا حميد لنسلقه بالسنتنا الحداد ، فاقول له بلهجة ناصحة :

- لا تتبرم من رعي الاغنام يا اخي ، فهناك في الجيش توجد اغنام لا طعام الجنود ، وقد يعهدون بها اليك عندما يكتشفون شجرة عائلتك الفلاحية ! • •

وجميلة تبيري له لتضيف بخبث بعدما تزوي ما بين حاجيها  
وترسم في عينيها الجميلتين نظرة جادة :

- لو منحني ابن عمي حميد أذنا صاغية لقلت بأن الرعي في  
الجيش افضل من حمل السلاح !

وحמיד يحتد بطبيعة الحال فيشب واقفا بقامته القصيرة الممتلئة  
ليصرخ بها :

- ولِمَ ذلك؟! .. هل أن حازم كان افضل مني عندما دربوه  
على الرمي بجميع انواع الاسلحة؟!!

وتجيبه جميلة بالجد والوقار نفسها :

- لا .. أبدا! .. ولكن المسألة هي أنه لا بد لهم من منشار  
يطيرون به عقب البندقية لتناسب قامتك المديدة! ..

وانا بدوري اقاطع جميلة لاضيف :

- وما حاجتهم لمنشار؟! هناك بنادق خشبية تناسب قامته .  
وبصعوبة بالغة تكتنم جميلة ضحكتها لتصرخ بانفعال :

- تقول بنادق خشبية؟! وكيف اذن يدافع عن نفسه اثناء  
الهجوم؟!!

- في هذه الحالة هم بحاجة لعدسات مكبرة ليكتشفوه بين  
هؤلاء الجنود العمالقة! ..

وتغرق جميلة في ضحكتها الصاخبة وتصفق بيديها بمرح لتقول  
بصوت لاهث :

– وهل نسيت ارنبة انقه الصاعدة نحو السماء؟! ستلفت  
انظار الاعداء فتصبح هدفا رائعا لرصاصهم!..

وكالعادة ، يتحصن حميد بالصمت امام هذا الهجوم المزدوج  
.. ويتناول عصاه هاشا بها الاغنام نحو الحقول .

كان حميد هو المسؤول عن رعاية الاغنام ، وانا كنت اقوم  
بالزراعة ، اما الارض التي اقوم بزراعتها فكانت تعود لاحد  
« الملاكين » الذين استطاعوا ان يتحايلوا ، يومذاك ، على قوانين  
« الاصلاح الزراعي » ليحتفظوا بمساحات شاسعة من اخصب  
أراضيهم ، وتلك الارض التي كنت أقوم بزراعتها تقع الى الشمال  
من منزلنا بسافة قد لا تتجاوز عشرين دقيقه سيرا على الأقدام .  
وهي قطعة أرض ، وان تكن صغيرة ، ولكنها جيدة ، قريبة من  
النهر تحيط بها أجمات ذات اشجار كثيفة ، ولكن أكثرها اشجار غير  
مشرة نبتت من تلقاء نفسها ، كنت أقوم بزراعتها لوحدي وعندما  
يحين موسم الحصاد ، كنا تتعاون سوية في ذلك . وكانت امور  
المنزل ، بطبيعة الحال ، بعهدة أمي وجسيلة . كان لكل منا عمله  
الذي يؤديه ، وعندما يتطلب ذلك العمل مساعدة الاخرين ، كانت  
أيادينا تمتد ، تلقائيا ، للمساعدة ، وتلك – والحق يقال – صفة  
حميدة غرسها أبونا في اعماقنا ، فطالما كان يردد ، على اسماعنا ، ان  
اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفق ، فكان أن جبلنا على حب العمل  
والتعاون ، فها هي جسيلة بعدما انجزت اعمال البيت ، قبعت في  
زاويتها المفضلة وبدأت بنسجها الذي سيديء جسد أحدنا بالتأكيد.



بعدها سكبت أمي الرز المطبوخ في المصفاة ، فاندلق بخير  
صاحب ، في اناء وضع اسفل المصفاة ، الماء الحليبي الساخن ،  
وتصاعدت سحابة بخار عبقة عاليا ، اعادت القدر على قضيب الموقد،  
ووضعت في جوفه كمية من الدهن ، ومن ثم ألقمت النار بآخر  
قطعة حطب وهتفت بجميلة :

- جميلة .. قومي وحشي قبضة عشب لاجل العجل الصغير  
لقد تأخر حميد ولم يعد بالانعام والعشب ! .. اخشى ان يهلك  
العجل جوعا .. هيا يا حبيبتى ! .. اسمعي .. لا تنسي أن تجلبي  
معك حزمة حطب ..

وانفلتت جميلة من امامي قاذفة بقطعة النسيج وكرة الخيوط  
التي غرزت بها الابرتين ، في جوف كوة في الجدار . ان جميلة قد  
تغيرت كثيرا ، فقد تماسك جسدها بصورة مثيرة واكتست عظامها  
الناتئة باللحم ، وأقسم بانني أكاد اشعر بالارض تهتز تحت وقع  
قدميها كلما مرت بقربي .

سمعتها وهي تصفق باب المنزل ، وخيم ، في جوف المطبخ ،  
صمت مطبق ، كان يتبدد ، بين لحظة واخرى ، على صرير ذلك  
الترباس اللعين الذي أبى أن يستقر في موضعه من البندقية رغم انني  
شحمته بصورة جيدة . وكان نشيش الدهن يسمع من جوف القدر .  
وتبدد الصمت نهائيا على صوت أمي التي بدت وكأنها تكلهم  
نفسها :

- ها هي سنة كاملة تمر على وفاة المرحوم ! ..

وعصى الترباس على الاستقرار في موضعه بصورة مضجرة  
فتضاعف سخطي بالتالي وها هي أمي تعود الى تفنقتها التي حبستها  
في صدرها طوال سنة مرّت بسلام .. ها هي تدخل في صلب  
الموضوع بجرأتها المعهودة :

- لشدّ ما كان المرحوم يتمنى ان يراك متزوجاً ..

وأخيرا آمنت بان هذا الترباس اللعين بدأ يعاندني بصورة  
جدية !.. لشدّ ما رغبت ، في تلك اللحظة ، ان امسك بالبندقية  
من انبوبها ، وبضربة ساحقة اهشمها على شيء ما .. على الجدار  
مثلا .. أو على اطار الباب !.. وفي حالة الضرورة القصوى على  
رأسي !!.. ثم .. ثم .. مالي أنا وصيد الخنازير ؟ هل أنا المسؤول  
عن خراب حقول القمح ؟! أم انني سأستطيع اقتناص الخنازير  
بأكسها بشل هذه البندقية الاثرية التي يعود تاريخها الى زمن  
« العصلي » ؟!.. لعن الله صديقي ! « سلمان » ألا تردعه  
بحة صوته ؟! أم انه بحاجة الى ناين حادين يغرزهما احد الخنازير  
في تفاحة رقبتة فيحتبس صوته الى الابد ؟!.. ثم .. اللعنة .. ما هذه  
الرائحة الخائقة ؟ واستدرت نحو أمي ، فوجدتها تتطلع باتجاهي  
بعينين جامدتين ، انني اعرفها من نظراتها الجامدة بأنها في طريقها  
لفقدان اعصابها . تغلبت على سخطي واغتصبت ابتسامة مفتعلة  
رسمتها على شفتي ، ونبهتها الى الدهن الذي كاد يحترق في  
جوف القدر ، ولكنها عادت لما بدأته وبأصرار اكبر :

- لشدّ ما ارغب بأن أراك متزوجا ولشدّ ما كان والدك

يتمنى ...

ورغم الغياب الرهيب وجدت وميض العينين المسبليتي الاجفان  
يخترق عينيّ كسيف من نار وسمعت صوته يرن في رأسي ..  
أوصيك بجميلة ! .. واجبت أمي ورائحة الدهن أصبحت لا تطاق:  
- ولكنها سنة واحدة يا أماه ! .. فكيف يصحّ لي أن أتزوج  
وقبره لم يجف بعد ؟! ..

وافرغت الرز في جوف القدر فأزّ الدهن الملهب بصخب  
واجابتي :

- لا أحد يخلد .. البقاء لوجه الله يا ولدي ..

وبعدما تترت المصفاة المقلوبة بحافة القدر لتساقط حبات  
الرز الملتصقة بها ، اكملت كلامها :

- ... ثم انك لا تقترف عملاً رديئاً بزواجك من جميلة ..  
وهكذا أقحمت أمي اسم « جميلة » في اللحظة المناسبة واكملت :

- ... بل انك تنفذ عهداً قطعته على نفسك .. ويا ويل من  
يخون الموتى ! ..

حقاً انه عهد قطعته على نفسي ، فكيف السبيل الى غير ذلك ؟

- ولكنها .. ولكنها صغيرة يا أماه ! .. جميلة لم تزل  
صغيرة ! ..

وأطلقت ضحكة متهمكة لتقول :

- هه .. صغيرة ؟ تكاد تدخل عامها العشرين وتقول

صغيرة ؟! من اين اتيت بكل هذا المكر ؟

ولم استطع منع نفسي عن الابتسام رغم الترباس العاصي بين  
يديّ . كان عذري أوهى من خيط العنكبوت ، فقد أصبحت جميلة  
امرأة ناضجة لا ينقصها اي شيء ، ولكنها بقيت بعينيّ جميلة القديمة  
.. تلك الصبية الشقية المرحّة والمقهقهة بسبب وبدون سبب . لم  
استطع النظر اليها كأمرأة ستكون زوجة لي .. يكفي أن أقول :  
جميلة .. لتطلّ عليّ بذلك الوجه الطفولي وتينك العينين الحالمتين ،  
وتلك الضفيرة التي كانت تقذف بها الى الخلف بحركة خاصة ..  
انها جميلة التي كانت تناكدني صباح كل يوم ، تحت شجرة التوت  
فتسلب النوم عن عينيّ ! ..

وعادت أُمي لتساءل ، هذه المرة ، بغضب :

- صغيرة ؟ تزوجها وستمنحك اثنين .. اثنين كل تسعة  
اشهر !! أنا أعرفها ، انها امرأة خصبة كأُمها رحمها الله التي لم تهأ  
بحياتها .. ثم ألم تعاهد أباك بذلك ؟! ..

نطقت بالسؤال الاخير بصوت مرتفع ، فأجبتها باقتضاب :

- نعم ! ..

- اذن تزوجها ! ..

- حسنا .. سأرى ! ..

ولأول مرة أنفجرت أُمي صارخة ، وانا اعرفها : عندما تصرخ  
تكون قد فقدت اعصابها :

- سأرى ! .. سأرى ! .. يجب أن تقرر الآن ! .. ان جميلة

خطيبتك .. ولن تجد أجمل منها ! ..



يا لله !! لم تكن المسألة أن أجد أجمل منها .. بل .. كيف  
افهمها يا الهي؟! وفجأة وجدت الترباس يلين تحت اصابعي لينسل  
بخفة في موضعه !! وعندما استدرت نحو امي طالعني وجهها الذي  
يبدأ مثل بالونة على وشك الانفجار .. وكان لهب النار الخامدة  
ينداح عبر طيات فوطتها ليرتقي ملامح وجهها الغاضب .. ولم أجد  
بدأً من أن ابتسم برضوخ واستسلام لاقول لها بصوت هاديء :

- حسناً !! سأزوجها !!

وسقط فكها بدهشة ، وانقلب غضبها الى ارتباك يمازجه فرح  
طاغ شعّ ملء عينيها :

- حقاً؟ .. ولكن متى ؟ لتحسم القضية يا ولدي !

- بعد شهر .. في هذا الربيع يا أماء !!

وانطلقت زغرودة ثاقبة من فيها العجوز ، رددت الجدران  
الطينية السوداء صداها ، وتلك كانت اول مرة ارى بها أمي وهي  
تزغرد !! وفي اللحظة نفسها دخلت جميلة محتضنة حزمة حطب ،  
وكأنها هجست سبب تلك الزغرودة فقد تقدمت من الموقد لتركن  
امامه حزمة الحطب وجفناها مسبلان بخثر !! ولم أدر هل أن  
ذلك الاحمرار الذي غزا وجنتيها كان بسبب لهب الجمرات المستعرة  
في الموقد ، ام لشيء آخر ؟!

وما هو ذلك الشيء الآخر ؟ هل فكرت بما اعتسل في اعماقها  
يومذاك ؟ .. قد تكون جميلة لم ترفضني مع نفسها ، بل انتي لعل  
ثقة بأنها قد احبتي ونظرت لي نظرتها الى رجلها القادم ، منذ ذلك

اليوم الذي سمعنا به ، من تحت شجرة التوت ، بأننا سنكون لبعضنا !! ولكن لنفرض بأنها رفضت !! فهل كان لرفضها أيما تأثير على ذلك القرار الذي نطق به وشفعته أمي بزغردة ثاقبة؟! لم تكن المسألة قبولها أو رفضها ، بل كان المهم أن أقرر أنا .. وأنا فقط !! والان وانا مضطجع على سريري وسماء الظهيرة تنخطف ، من خلال النافذة ، بوميض فسفوري لا يحتمل ، وبعد كل هذه السنوات التي مرّت ، اعود لذلك اليوم فيتضاعف سخطي تجاه نفسي ، بل واشعر بالرعب من تلك الهيئة التي بدت بها يومذاك ! اية ابتسامة غبية رسمتها على شفتي؟! وأي تعليل غريب كان تعليلي لاحمرار وجنتيها ؟ لِمَ لم يكن ذلك الاحمرار بسبب الغضب ؟ الغضب لاسباب عديدة اولها هو تجاهلنا المطلق لرأيها ، وحتى أن يكن ذلك الرأي مطابقاً لآرائنا !! وقد سألتها ، فيما بعد ، عن ذلك اليوم الذي انطلقت به زغردة أمي ، ولكنها اكتفت بأن اسبلت جفنيها وتحصنت بالصمت وجوابها ذاك كان أبلغ جواب !! وفي الحقيقة لم ادرك خطأي الا في ليلة زفافي ، وحتى ادراكي ذاك كان ادراكا قاصراً ، وبالتالي نان قراري الذي قرّ رأيي عليه ، في تلك الليلة ، كان أيضا قرارا مرتجلا جاء بسبب عيني مخلصتين بالدموع ، كما ان قراري الذي سبقه ، يوم وافقت أمي على زواجي بجميلة ، كان بسبب وجه غاضب ، أو - من يدري - قد يكون بسبب ترباس بندقية !! وحتى قراري الاول فقد كان بسبب وميض عيني محتضر !! أوه ... لقد بدأت اشتط بصورة مربكة ، وقد يعود ذاك لهذه الحمى الآخذة بخناق ، او بسبب هذه الشمس التي ما ان

تعامدت على الارض ، الا وتلبسني هذا الهاجس الفاجع المرير !  
وعلى كل حال يبقى الشيء الاكيد هو أن جميلة قد احببتي كما  
احببتها ، اما ما حدث فيما بعد فقد جاء بسبب ذلك التبدل الذي  
يصيب الانسان في بعض المرات فيفقد حس الادراك السليم •

خلال الشهر الذي سبق زواجي انتهت من اعداد الترتيبات  
اللازمة • وفي آخر يوم بدأت وأمي بوضع اللمسات الاخيرة  
•• وكانت الغرفة العلوية قد أختيرت لزفافنا ••

بدأت أمي تعيد ترتيب بعض الاشياء التي كانت مرتبة على  
احسن وجه في الاساس : ترفع وسادة لتعيدها الى موضعها بعد أن  
تمسحها براحة يدها وتربت عليها بحنان • أو تنفض غبارا موهوما  
عن قطعتي النسيج المعلقين على جداري الغرفة المجاورين ، حتى  
انني بدأت اخشى أن تتمزق تلك القطعتان اللتان اعتر بهما ايما  
اعتزاز !•• أو تزفر على المرأة المعلقة على الحائط ، بشدة حتى  
تجحف عيناها لتمسحها ، بعدما تتندى ، بخرقة في يدها ، ولولا  
ثقتي برئي أمي لمنعتها من الاستمرار بذلك الزفير المتواصل خسية  
أن يغمى عليها !•• وعندما هدأت أخيرا طوفت بنظرها عبر الغرفة  
ومن ثم بدأت تتحدث ، بصوت حالم ، عن الطقوس التي يجب  
اتباعها يوم الزفاف - وبطبيعة الحال امتدت يداها من جديد نحو  
الوسائد والمرأة وقطعتي النسيج ••

- « عشر حبات من الهيل توضع بين اصابع اليدين ، وأمامها  
على كنبه منخفضة ، توضع صينية واسعة تثبت مع استدارتها

شموع مضاءة ، وفي الوسط يوضع اناء مملوء بالحناء ، وكذلك  
توضع كأس لبن واغصان آس او نعناع •

المصحف الكريم مفتوح بين يديها على سورة « يس » وعلى  
احدى الصفحات توضع مرآة صغيرة ، على جانبيها تقف صيتان  
في يد كل منهما صحن به كمية من السكر ، وبين لحظة واخرى  
ترشان عباءة العروس بذلك السكر • حالما ينتهي الشيخ من  
« عقد النكاح » وتجيّب العروس بـ « نعم » تنطلق الزغاريد وتقل  
أم العروس قفلاً - تكون قد احضرته مسبقاً - فوق رأس العروس ،  
وبما أنّ جميلة يتيمة ، وانا اكاد اكون بمثابة أمها بعدما ربيتها  
على يديّ هاتين ، فأنا اذن من ستقل القفل فوق رأسها ••  
ولكنني اعترضت ملتفتا باتجاهها بعدما انتهت من تثبيت ستارة  
النافذة :

- حسناً يا أمّاه ، ولكن خبريني ، رحم الله امواتك ، ما  
شأن القفل بعربي المتواضع ؟!  
واجابتنى ، وهي تعيد للمرة الالف ، مسح المرأة المعلقة  
قرب النافذة :

- يالك من ماكر !•• حقاً لا تعرف السبب ؟!•• القفل يا بني  
سيفتح فيما بعد عندما تنال وطرك !•• هل فهمت الان ؟!  
ولم أدر لِمَ تذكرت ، في تلك اللحظة ، صندوق جميلة  
الخشبي القديم ؟! ولكنني اعترضت للمرة الثانية :

- لا استطيع ان افهم كيف تستطيع الامساك بمصحف به



مرآة ويدين مضمومتين بين اصابعهما وضعت عشر حبات هيل ؟!  
ولكنها لم تجبني هذه المرة بل اكتفت بأن رسمت على شفيتها  
ابتسامة حائرة •

وازحت الستارة جانبا فواجهتني قمم الاشجار المتراصفة في  
الاسفل ، ومن خلال الفسحات المفتوحة بينها ، طالعني حافتا النهر  
المختفيتان تحت غطاء نباتي متماسك ، وخلفهما امتد السهب الاخضر  
الذي يكتسي كلما امعن في البعد بلون بني لينتهي حيث التلال  
الشرقية المتراصفة ترتفع بهيأة جدار بنفسجي خفيض •• الى اليسار،  
عبر الممر المغطى بالحصباء ، رأيت جميلة تدب باتجاه الطريق ويدها  
صفحة فارغة • كانت ترتدي ثوبا بنفسجيا يصل الى كعبيها ،  
وضفيرتها الوحيدة تتلوى كلما حركت رأسها جانبا • تخطت الطريق  
واستدارت يسيرا حيث شجرة السدر ، ومن ثم اتجهت نحو حافة  
النهر واعتلتها في النقطة التي تخفّ بها كثافة الاشجار واختفت  
في الجهة الثانية حيث المياه المدومة • واتبعت الى صوت أمي التي  
بدت وكأنها أبصرت جميلة بعيني المشتتين على النهر :

- الملعونة اصرّت على احباء الماء لتغسل الملابس المتسخة !  
قلت لها : لا يصحّ ذلك يا ابنتي فانك ستزفين مساء الغد لابن عمك  
حازم ، وهناك أمور أخرى يجب ان تشغلي نفسك بها لا أن تغسلي  
الملابس !•• ولكنها اسبلت جفניה ورسمت على شفيتها ابتسامة  
باهتة • هكذا ، بين عشية وضحاها انقلبت ابنة عمك الماكرة الى  
صبية خجولة !••

حقا لقد طرأ تبدل واضح على سلوك جميلة • منذ ذلك اليوم  
الذي انطلقت به زغرودة أمي ، أصبحت تتحاشى النظر في عيني •  
وان جمعنا مكان واحد حاولت بشتى الوسائل والحجج أن تنسل  
هاربة •• اين ذهبت تلك الصلابة والروح المرحية؟! هكذا ••  
اكتشفت فجأة بأن جميلة ليست أكثر من نموذج آخر لامي  
المستسلمة لقدرها • اية قوة ستضعك امامي في يوم ما لنحصد  
بعيني بعضنا بصدق وشجاعة؟ ••

وشاهدتها وهي ترتقي حافة النهر والصفحة الطافحة بالماء  
ترتج فوق رأسها • وتوازن وانسياب بدأت تقتحم الفراغ بجرمها  
البنفسجي المؤطر بخضرة الارض المزغبة ، ومن مكاني ، خلف نافذة  
الغرفة العلوية ، لمحت الماء يترجرج داخل اطار الصفحة المربع •  
ولكنها رأته ، رغم أن رأسها لم يرتفع باتجاهي ولكنني اجزم بأنها  
رأته ، تلك طريقته الخبيثة في النظر : تنظر دون ان يحس الآخر  
ذلك : عندما كنا نواصل العمل في بناء المنزل لحدّ الارهاق ، كانت  
تراقب ابي وهو على قمة الجدار يواصل رصف اللبنة واحدة فوق  
الآخرى ، كانت تراقبه دون ان ترفع وجهها باتجاهه ، فان وجدته  
منشغلا عنها ارتكنت قرب الجدار لترتاح لبعض الوقت ، وحالما  
كانت تنتبه بأنّ ابي قد لاحظ تقاعسها في العمل كانت تستوي  
واقعة لتناولني اللبنة والطين بحمية واندفاع حتى أن بعض القطع  
الصلبة كانت تسقط من يدي وتكاد تسحق قدمي ، ولكنني رغم  
ذلك كنت اغرق في ضحكة اخفيها بسعال متقطع • انها رأته  
وها هي خطواتها تتعثر على الطريق الممهّد وصفحة الماء ترتج بعنف

والماء يندلق منها لينسكب على وجهها ورقبتها وينسلّ عبر فتحة  
ثوبها الى الداخل ..

- اللهم اجعله خيرا ! .. أراك تضحك يا حازم ؟!

واتبعت الى نفسي وانا أضحك وكانت أُمي تعيد فرش الاغطية  
والوسائد من جديد :

- لا شيء .. مجرد طريفة تذكرتها .. نسيتي أن تخبريني  
يا أمّاه عن فائدة حبات الهيل والسكر واغصان الآس والحناء  
واللبن ؟ ..

- انها تجلب البركة لزواجكما .. الهيل ذو رائحة طيبة ،  
اذن ستكون حياتكما طيبة مثل تلك الرائحة باذن الله .. وكذلك  
أغصان الآس فاضافة الى رائحتها الزكية هناك خضرة اوراقها  
وحياتكما تكون مثلها خضراء يانعة واللبن ابيض والبياض هو رمز  
الطهر والنقاء وكذلك ستكون حياتكما حلوة كحلوة السكر ! ..

لم اكن راغبا بعرس صاحب ، ولكن ما العمل ، والاقارب  
والاصدقاء لا يتذكرون قرابتهم ولا صداقتهم الا عندما ينطلق عويل  
فاجع أو زغرودة ثاقبة من بيتك ؟! وهكذا .. عندما رجعت من المدينة  
المتدة غربا خلف غابات النخيل ، بعدما انجزت بعض الامور المتعلقة  
بمثل هذا اليوم ، فوجئت بمنزلنا غاصا بخليط عجيب قوامه نساء  
محدودبات الظهور ، لم أدر في أي قرن ولدن ؟ بل كنت اتصور بأن  
التراب قد غيب أكثرهن ! .. وقريبات كن قبل اشهر مجرد صبايا  
يكاد المرء يشمّ رائحة الحليب من افواههن ، فاذا بهن اليوم



أمامي وكل واحدة تحتضن طفلها الثاني أو الثالث والفوطة المعهودة  
تؤطر وجوههن ، وذيلها يطرّ ، خلف ظهورهن ، على الأرض •

تحلقن حولي وبللن وجنتي اللتين خرجتا ، قبل ساعة ، ناعمتين  
متوردتين من بين يدي الحلاق بللنهما بلعابهن الدافئ واصدء  
قبلاتهن ترن في اذني المحمرتين اللتين اجتث ملقط ذلك الحلاق اللعين ،  
الشعر عنهما • اما لساني فحدث ولا حرج • كنت اديره في  
فمي الناشف واردّ على تحياتهن بشتى الصيغ والاساليب ، وفي  
لحظات الصمت الطارئة ، كنت أدسه في الثقوب الكثيرة المبوثة بين  
اسناني النخرة متذوقا بقايا اكلة اثيره ازدرتها في المدينة • وانهت من  
قرباتي الاثريات لأبدأ بقرباتي الفاتنات ، بدأت انتقل بنظراتي عبر  
وجوههن الملونة وحواجبهن المنتوفة وعيونهن التي شوهاها الكحل  
والهبتها الرغبات الداعرة وهن يتخيلن منظري الاسطوري وانا منفرد  
بضحيتي في ذلك الوكر المنفرد فوق السطح •

في غرفة اخي حميد الواقعة الى يسار باب المنزل ، بمحاذاة  
غرفتي ، جلسنا على الاسرة والارائك المصنوعة من جريد النخل •  
وضاقت الغرفة ، رغم سعتها ، بنا مما اضطر البعض أن ينصبوا  
واقفين على اقدامهم • كانت التعليقات البذيئة تنطلق في جوف الغرفة  
المثقل برائحة الاجساد الزنخة ودخان السكائر • كانت العيون تحديق  
بي بخبث والتعليقات تزداد حدة بمرور الوقت والابتسامة المرتسمة  
على شفتي تضيق أكثر وتقلص بالتدرّج حتى تكاد تنقلب الى  
تكشيرة مقرفة ، ولكن ظهور الشيخ « رمضان » المؤذن وبصحبه  
بعض الكهول ، انقذني مما قد لا يحمد عقباه ، وحالما ولج الغرفة



بوقار ، بدا مناسباً لعمامته المستديرة فوق رأسه بانصياع ، هداً  
اللفظ بعض الشيء ، فتناهى لاذائنا الصخب الآخر الصادر عن  
الغرفة العلوية حيث العروس . كان صخباً منغوماً يصاحبه الدقّ  
على الدفوف والاغنيات المكرورة ، ولم استطع منع نفسي عن  
الابتسام عندما فكرت باحتمال انهيار السقف تحت ثقل الاجساد  
الصاخبة في الاعلى !! ..

عندما أطلت أمي بوجهها من باب الغرفة راجية الشيخ رمضان  
أن « يتفضل ! » استدارت العيون المتلامعة باتجاهي وانطلقت  
التعليقات الشبهة من جديد متناسية ، هذه المرة ، وجود الشيخ  
رمضان . بعد دقائق انطفأ صخب النساء ، فأرهفنا الاسماع : تناهى  
الينا صوت الشيخ وهو يردد بنبرة منغومة :

- .. زوجتك .. من حازم .. ابن .. بمهر معجل قدره  
... ومهر مؤجل قدره ... فان قبلت .. فقولي نعم ... زوجتك  
... موكلي ... قدره ... مؤجل ... قولي نعم ... زوجتك  
... من ... قولي نعم ! ..

وصمت الشيخ .. وفجأة انطلقت الزغاريد .. لا بد انها قالت :  
نعم .. وتخيلت القفل الذي بين يدي أمي وانزلاق اللسان الحديدي  
مصحوباً بتكة خافتة ضاعت في هدير الهلاهل والاغاني ..

قبل أن يودعني الشيخ رمضان صافحني بطريقته الخاصة  
التي ذكرتني بأنتي لم أمنحه « حلاوة العرس » وهكذا انهيت تلك  
المصافحة بأن دست يدي الطليقة المسكة بدينارين مدعوكين ،

بين اصابعه التي اقتنصتهما بحيرية لم تناسب شبكة التجاعيد المنتشرة على وجهه المطوق من الاعلى بعمامة كانت بيضاء في يوم ما !

في ساعة متأخرة من الليل هدأت الضجة بعض الشيء وبقي الاقارب الخلس والقريبات المحدودبات الظهور .. وكذلك بقي الاصدقاء الحميمون وبضمنهم سلمان وخالد . وعندما طلبت منهم أن لا يتجشموا عناء الانتظار - وفي الحقيقة كانت رغبتى الوحيدة أن أنفرد بنفسى لبعض الوقت - ولكنهم أبوا بشم قائلين بنبرة رجولية :

- كيف تركك؟! نحن لك لمثل هذا اليوم !

وتناول بعضهم دفوا مخضبة بالحناء وبدأوا يدقون دقاً رتيباً ، غامزين لي بأعينهم الشبهة . وتحت الحاحهم والاح أمي لم أجد بدا من أن أرتقي السلم متصحباً بتمتمات أمي التي كانت مزيجاً من آيات وسور مبتورة الاواخر وادعية خاصة لا بد انها حفظتها - عن ظهر قلب - لمثل هذه الامسية .

دفعتنى أمي ، برفق ، الى جوف الغرفة المشع على شكل انفجارات ضوئية صغيرة تومض هنا وهناك حيثما ثبتت الشموع ، قرب السرير وتحت المراة وقرب ستارة النافذة المسدلة . وواربت الباب خلفي ..

الى الامام ، في وسط الغرفة حيث الضوء الراءع يشبه يوم بحيرة ، طالعني شبح ابيض ممسك بكأسين زجاجيتين ممتلئتين الى منتصفهما بكمية من الدقيق ثبتت فوقها - في كل كأس - شمعة

بيضاء دقيقة تتوهج بوهن ، لينداح ضؤها الراش تحت القماش  
الايض الشفاف المنسدل على وجه خمنت بأنه لابد ان يكون وجه  
جميلة .

بعدها تناولت منها الكأسين ووضعتهما جانبا ، رفعت النسيج  
الشفاف فطالعني وجه ملون يكاد يشبه وجه ابنة عمي جميلة !  
قبلتها في الجبين ، ففوجئت بالبشرة الباردة لحد الجمد ، ووجدتني  
اتساءل بصوت راعش :

- أتخافين يا جميلة؟! هيا افتحي عينيك لارى اية سعادة  
تشع منهما؟

ورف جنفاها للحظة خاطفة لتسبلهما فيما بعد ، ولكنها كانت  
كافية لان ألمح ، وبوضوح عينيها المتلامعتين ، وأقسم بأن لمعانها  
كان بسبب الدموع المحتبسة فيهما . تساءلت :  
- أفي مثل هذه الليلة تبكين؟!

وارتجفت شفتها السفلى الممتلئة مثل ثمرة فاضجة ، وانفلتت  
دمعتان ، ملطختان بالكحل ، من تحت الجفنين المسبلين . انحدرتا  
بيطء نحو زاويتي الفم راسمتين على الوجنتين المتوردتين خطين  
متعرجين ، في تلك اللحظة فقط تناهى لسمعي قرع الدفوف من  
الاسفل ، كان قرعا غمياً لا يناسب ، على الاطلاق ، وقفنا الحائرة  
تلك وسط ضوء الشموع الجنائزي الشاحب ، وبعيداً .. بعيداً  
من جوف الليل المدلهم انطلق عواء غامض أعقبه بكاء طفل في الاسفل .  
كنا واقفين في وسط الغرفة ، والى اليمين كانت ستارة النافذة

الفستقية اللون تتأرجح بانسياب ، وفي المرآة المعلقة قرب النافذة  
رأيت انعكاس الصورتين المعلقتين على الجدارين المجاورين . .  
وخلف جميلة ، طالعني السرير العريض ذو الكرات النحاسية الاربع  
في الاعلى ، كان غطاءؤه الاخضر الفاتح المطرز الحاشية بزخارف  
زرقاء دقيقة ، مستويا باستقامة وكأنه لم يمر في يوم ما ولم يدفأ  
بحرارة جسد !! وفي منتصف الجدار المستد خلف السرير طالعتني  
قطعة النسيج وقد رسم عليها البيت المقدس بلون ابيض محايد ،  
وفي مقدمة الصورة ظهر بدويان يعتليان سنامي جميلهما المرسومين  
بلون بني غامق مؤطر بخط اسود يكاد يوحد البدوين بهما ، والى  
الخلف ارتفعت سماء رمادية تنتهي بحافة الصورة . . يسارا في  
الفسحة المحصورة بين حافة السرير السفلية والجدار الجانبي ، الذي  
على يساري ، ارتفعت طاولة خشبية مغطاة بغطاء من لون غطاء السرير  
نفسه ، وضع فوقه اثناء معدني مستدير ضحل بعض الشيء ،  
توسطته كأس مملوءة باللبن ، تحف بها شموع بيضاء مشتعلة تتخللها  
اغصان آس خضراء . على الجدار الجانبي امتدت قطعة نسيج ثانية  
توسطها ، وبحجم كبير ، فارس عربي اعتلى صهوة حصان أسود  
رفع قائمته الاماميتين عاليا وتنفخ خطمه بكبرياء ، والفارس ممسك  
بسيف مسلول ، وعلى جبهته صورة هلال ، وبعيدا ، خلف الفارس ،  
اصطف الاسرى « الصليبيون » بشياهم المزركشة وخوذهم ذات  
الصلبان ودروعهم المصفحة ، وعلى جانبي الاسرى ، بحجم اصغر  
من صورة الفارس الاول ، وقف فارسان عربيان آخران في يد  
كل منهما رمح يشير سناناه نحو الارض ، وبدت سماء الصورة حمراء



داكنة الحمرة تتعامد تحتها ، خلف الاسرى ، أشجار نخيل رمادية اللون .

وفي الاسفل كان القرع قد ازداد وكأنّ صبرهم قد عيل وهم في انتظار الدم المسفوك ، الدم الذي يشد سرة الجنين بمشيمة الام ويشدّ الجثة بالأرض ايضاً .

كانت رائحة الشمع المحترق ورائحة الآس والبخور التي ضمخت بها المفارش والوسائد ، تمتزج ببعضها لتعقب برائحة خدرة تكاد تكتم الانفاس .

- انظري يا جميلة ...

ورفعت يدي الاثنتين ، نصبتهما هكذا .. في الفراغ الملطخ بضوء الشوع الكابي ، فبدتا وكأنهما يدان من شمع . واكملت :

- انظري ! .. انهما يدان محايدتان لا تنتميان الى هذا الضوء الداعر ، الذي يكاد يخنقني برائحته الثقيلة ، ولا الى ذلك النقر الغبي ! ..

وتركتهما لتسقطا الى جانبي باسترخاء مؤلم مشابه للشلل ، ورأيت عينيها تومضان من تحت جفنيهما لتنصبا عليهما باصرار . وشعرت بالحيرة من تينك اليدين البريئتين المهملتين على جانبي ، قلت بصوت أقوى :

- هل تصدّقين بأنني أحب ان تظلا مجرد يدين بريئتين ؟!

ورأيت عينيها ترتقيان جسدي بانسياب لا يرد لتستقرا

بنظراتهما على عينيّ اللتين شعرت بهما تؤلمانني لشدة تحديقي في وجهها • وعلى جانبي شعرت بيدي الاثنتين وهما ترتجفان ، وبصوت بدا وكأنه ليس صوتي ، قلت :

– البراءة ليست كل شيء !! • قد يلبس الغباء لبوس البراءة! هل رأيت عيني قتيل ؟! • انا رأيت !! • هناك قرب الخنادق الرطبة رأيت عيني « مصطفى غريب » • كاتنا بريئتين لدرجة لا تطاق !! • البراءة اغتالتنا في الماضي • ولكن ما العمل ويدي هاتان محكومتان بالبراءة ؟! • ما العمل ؟! •

ورأيت عينيها تجمدان بحيرة ، فأدركت بانها لم تفهم ما اعنيه • • ومن الاسفل كان النقر الرتيب يتصاعد عبر دم الليل الاسود اللامتناهي ، وكأنه نبض عالم على وشك الانهيار • كان الومض الهزيل المتفجّر في جوف الغرفة قد فشل تماما في انكار وجود ذلك الليل الذي تشرب بعتمته كل شيء كما يتشرب النسيج بدم القتل •

انحرفت باتجاه النافذة وأزحت ستارتها ، ومن ثم فحست ضلفتها • مع اندفاع الهواء البارد الى جوف الغرفة الخائق ، ارتفع النقر على الدفوف ، ودون ان استدير ، سمعت حفيف ثوبها وشعرت بأنفاسها الدافئة تلفح رقبتني الحليقة • وبعيدا ، في العتمة المخيمة لمحنا نارا تتأجج بحدة وكأنها نجمة وحيدة هبطت من سمائها واختارت الارض • وكانت عناقيد النجوم المتراسة تتلامع في الخلاء الاسود ، وكما حدث في آخر ليلة لنا في القرية ، لمحت في اقصى الشرق ، على يساري « بنات نعش » والاخت العرجاء لا تزال

تحت الخطى لتلحق بأخواتها الست ، وكان « درب التبانة » يطرّ  
قبة السماء . وسعت صوتي ينطلق عبر صمت الليل الجارح المترنح  
تحت وقع ذلك النقر الغبي :

- هناك كنا نرى النجوم أيضا . كانت بيضاء مسالمة ، تنبض  
بوداعة . ولكن النجوم الحمراء لطائرات الاستطلاع سرعان ما تقتحم  
وحدتها لتتوهج بايقاع جارح ، وكأنها عيون وحش يترصدنا باتتباه  
.. كانت طائرات استطلاع الاعداء تحوم فوق رؤوسنا باستمرار ،  
ولأن السماء معتمة ، كنا لا نرى سوى وميض مصابيحها الحمراء  
وهي تشتعل وتنطفئ . كانت تلك الطائرات تمرق عاليا فيصلنا  
هدير محركاتها على شكل دمدمة مكتومة . وعلى الارض كانت  
مدافعنا المزيّنة بصورة جيدة ، صامتة يتأكلها الصدا . كانت القنابل  
الفسفورية تنفجر فجأة فتختفي النجوم تماما ولا يبقى سوى وميض  
متوهج يعرّي التلال والوهاد وظلالنا المشبوحة قرب الخنادق .  
وببطء كان الظلام ينسدل من جديد والنجوم تظهر ثانية ، وثانية  
تعود المصابيح الحمراء لتتوهج بايقاع جارح . ترى ما الذي كنا  
نتظره ؟ هذا ما كنا نعرف الاجابة عنه في البداية ، ولكننا اكتشفنا ،  
فيما بعد ، بان تصورنا ذاك كان محض خيال !.. هل كنا نتظر  
أن يبدأوا هم ؟! ولكنهم بدأوا .. قبل شهر واحد من مجيئنا الى  
الجهة .. في الخامس من « حزيران » بدأوها ، وبسته ايام  
واجهونا بجبهات جديدة امتدت مئات الكيلومترات شرقاً وشمالاً  
وغرباً !..

في النهار كنا نتظر أيضا ، وكانت الشمس تتدلى فوق

خوذاتنا ، وشعاعها الساخن يتلامع على حديد مدافعنا وبنادقنا التي  
تندت اكفنا فوقها .. لقد كاد الانتظار يتحول الى شجرة عقيمة  
ضربت بجذورها في الهواء .

عقب وصولنا الجبهة الشرقية ، بدأنا نحفر الخنادق ، واستمر  
الحفر لفترة طويلة ، حتى اننا كنا نتهكم على ذلك بقولنا بأنه قد  
جيء بنا الى الجبهة لتعلم الحفر لا لنحارب . في ظهيرة احد الايام ،  
وكانت الشمس قد تعاملت على الارض باستقامة ، فبدأ العرق  
يتصبب من جباهنا وترطبت به قمصاتنا الخاكية تحت الابطاط والاحزمة  
والظهور . في تلك الظهيرة سمعته لأول مرة . كان قريبا مني  
يشاركني في الحفر ، ولكنني لم احظه من قبل . سمعته يهتف بي  
وكأنا على معرفة سابقة :

— عمق الحفر يا بني ! .. عمقها أكثر ! .. ما ادرانا قد تصبح  
قبورا لنا ..

لقد نطق تلك الكلمات بطريقة غريبة فيها مسحة مرح  
لا تسجم مع مضمون الكلمات المأساوي .. ولو حاولت ان أقلد  
طريقة كلامه لمئة سنة لما وفقت ! .. عندما استدرت نحوه رأيته  
فتى قميئاً يتكئ على مقبض فأس بطوله ! .. كانت تعطي جبهته  
لمة شعر شهباء ، فبدا وكأن رأسه قد أدخل في أتون ملتهب للحظات،  
وأخرج فيما بعد وقد افتقد شعره لونه الاصلي فلا هو بالاسود ولا  
بالاشقر . اما وجهه فبدا وكأنه رئة خروف مدبوغة . كان من  
الصعوبة القصوى تمييز الحدود الفاصلة بين شعر رأسه وشاربه  
ووجهه . لقد بدت ملامحه وكأنها مندغمة ببعضها بطريقة عشوائية



حتى انه خطر لي ، في تلك اللحظة ، كيف يستطيع حلاقة ذقنه دون  
أن يحز تفاحة رقبته الناتئة ؟! عندما لاحظ أنني قد انتهت اليه ،  
أدار وجهه لناحية ثانية واستمر في توزيع كلماته اللاذعة وجسده  
المبتورة ، التي تتكرر خلالها لازمة ثابتة هي « يا بني » ، عشرات  
المرات ، على الجنود المحيطين به والمنهمكين في الحفر وكانت « يا بني »  
تلك لا تناسب قامته القميئة على الاطلاق ! فوجدت نفسي انفجر ،  
فجأة في ضحك متواصل • وبعيني المخضلتين بالدموع ، لمحتة وهو  
يقذفني ، بين فينة واخرى ، بنظرات « فأرية » خاطفة من عينيه  
الصغيرتين اللتين كانتا بسواد الفحم • ولكنه لم يأبه لضحكي ، فقد  
استمر في توزيع كلماته اللاذعة هنا وهناك •

في احدى الليالي المعتمة بادرني فجأة ودون سابق انذار ،  
حتى انني انشدهت للحظات عندما لفحت انفاسه أذني • كان قد  
اقرب مني دون ان اتبه اليه :

— اراهنك بأننا لن نحارب ! •• انها مجرد لعبة • الحرب  
لا تكون بهذه الطريقة البائسة : أن نظلّ نتظر الى أن يبدأوا هم ،  
لنردّ عليهم ، ولكن بطريقة اخرى : أن نحفر الخنادق ونظل  
نتنظر من جديد ! •• الحرب لا تكون بهذه الطريقة البائسة يا بني  
•• أنظر ! •• لقد بدأوا هم في هذا الصيف الكافر ! •• وبسته ايام !  
سته ايام فحسب •• واجهونا بجبهات جديدة امتدت غرباً وشمالاً  
وشرقاً ••

وطوّف بيده بحركة دائرية مشيراً الى الجهات الثلاث التي  
عناها • سحب نفساً عميقاً من سيكارتة المخفية داخل راحة يده

المكورة ، وعلى وهجها رأيت عينيه الصغيرتين وتلك النظرة الفأرية  
القلقة تتواثب فيهما •

- انها حرب أشباح يا بني ! •• نحن لم نحاربهم ، انما هم  
يحاربون ظلالنا ! ونحن ننتظر •• ( الاوامر ) تقول أن ننتظر ! ••  
انها لعبة مملة تفقد الانسان صبره ! •• أتدري بماذا فكرت ؟!

وعلى وهج سيكارتته التي سحب منها نفسين متعاقبين ، لمحت  
عينيه القلقتين وهما تقذفانني بنظرة متشككة ، وكأنه ندم على  
تساؤله الاخير •• بعد لحظات أكمل حديثه مغيرا الموضوع :

- لا تظنني انسانا يتعجل الامور ! •• أبدا •• أنا صبور صبر  
الجمال ! •• هل تعلم يا بني بأتي صياد ؟ صياد سمك ! •• كنت  
صيادا قبل تجنيدي •• الصيد مهنة تعلم الانسان الصبر • هكذا  
•• تتندى راحة يدك على خيط السنارة المستقرة في القاع •• قد  
يطول الانتظار •• ساعة •• اثنتين •• قد تكون حصيلة يوم كامل  
لا شيء ! •• تعود بساقين خدرها الاثناء طوال ساعات النهار ،  
وبثوب مبلول ملطخ بالوحل وبمعدة خاوية لم تتبلغ سوى بأعشاب  
برية مالحة تقضي على الجوع مؤقتا ، ولكنها قد تبليك بأسهال  
متواصل يكاد يقذف بأمعائك خارجا ، ولا بد لك من لبنة ساخنة  
تضع مؤخرتك فوقها ولساعات طويلة حتى يتوقف ذلك الاسهال  
اللعين مخلفا في امعائك قرقرة فاضحة كأنها قصف الرعد المتواصل •  
كنت صبورا يا بني : اشد الخيط على معصمي واركن نظري على  
الجزء الظاهر فوق سطح الماء ، الذي يتماوج باستمرار حتى يكاد  
أن يصيبني بالدوار •• وفجأة احس بنغزة •• الخيط يهتز ••

أدق النظر .. لا .. انها نفرة خادعة كانت بسبب التيار . وانتظر .. نفرة اخرى .. حسناً انها سمكة هذه المرة .. تنهياً اليد الثانية والجسد المرهق يتحفز فجأة والتعب ينسحب بعيدا .. ونستمر النفزات .. انها سمكة خبيثة تقضم الطعام من الجانب دون ان تبتلعه بكامله لا سحب الخيط بنقرة قوية . ولكن مهلاً فأنا اخبث منها .. انا صبور كالجمل وهي سمكة .. وستبقى سمكة سواء قضمت الطعام من الجانب او ابتلعت به بكامله .. وفجأة ينخطف الخيط .. لقد وقعت في الشرك .. الم اقل بأنها سمكة ؟ بل وسمكة بليدة استسلمت لاغراء الطعام أسرع مما كنت اتصور .. تلك هي اللحظة المناسبة ، وبضربة قوية من راحة يدي المعقوفة بتصلب اتر الخيط .. هكذا .. لقد شكت السنارة في حلقتها . بسرعة خاطفة اسحب الخيط والماء يرتج بعنف وكأن الجن يرقص تحته .. السمكة نقفز بيأس وتتلامع قشرتها تحت سطوع ضوء الشمس . انها النهاية يا عزيزتي .. ضربة محكمة في الرأس والجسد الفضي المتواثب يهدأ . اغطي رأس السنارة بالطعم من جديد واقذف بها بعيدا .. فيف .. وتهوي نحو القاع الاخضر .. وأنتظر من جديد ..

ويسحب اخر نفس من عقب سيكارتته قبل ان يسحقها تحت حذائه الجلدي الثقيل ، ويعود لثرثرته :

- الم اقل بأنني صبور كالجمل ؟ ولكن لو اردت الصدق يا بني لقلت لك بأن الحالة لو استمرت على هذا الوضع فأنني أخشى على رأسالي الوحيد ، الذي هو الصبر ، أن يتخلى عني !



حسنا .. انتي لا أتعجل الامور ، ولكنني بدأت أفكر منذ الان  
بأنتي لو رجعت الى قرיתי فسأغير طريقة صيدي ! .. لك أن  
تساءل : لماذا ؟ ولكنني أقول بأنتي بدأت اشك بجدوى الصيد  
بالطريقة القديمة نفسها . انا في سبيلي الى ابتكار طريقة جديدة ..  
طريقة اسرع وحصادها أوفر !

ورغم الظلام شعرت به وهو يقذفني ، من جديد ، بنظرته  
المتشككة .

وطال انتظارنا في خنادقنا الرطبة حيث شمس « حزيان »  
التي تلبست شمس الشهور الاثني عشر ، تتلامع بقسوة فوق  
حديد خوذاتنا المنسدلة فوق عيوننا التي ترى الاعداء وهم يتبخثرون  
امامنا بصلف واستهتار . كانوا هناك ، في الاراضي المحتلة ،  
ينصبون استحكاماتهم الاسستية ويشقون الطرق المؤدية اليها عبر  
الجيوب الصخرية المنتشرة في التلال . ونحن ننتظر وحديد بنادقنا  
يسخن نهارا ليبرد ، لحد الجمود ، ليلا . كانت طائراتهم تمرق  
فوق رؤوسنا ، على ارتفاع منخفض مفجرة الهواء بهديرها الاصم ..  
ونحن نرفع وجوهنا نحوها لنفاجأ بشعاع الشمس ينسكب في  
اعيننا فنعققها نحو الارض من جديد ونغمس في طقوس الانتظار  
المريز متناسين المدافع المركونة بيننا والمغطاة بأغبيتها الثقيلة المبقعة  
بالزيت ، وكان صديقي الجندي « مصطفى غريب » - وذلك كان  
اسمه - يوشوش اذني مواصلا ثرثرته عن كونه صبورا كالجمل ،  
وعن الصيد وقريته المحاطة بمخاضات عامرة بالاسماك . كان يتحدث  
بحب وشوق ، عن أخواته الثلاث. العانسات اللواتي يكبرنه في



العمر ، وعن مدى تعلقهن به وحبهن له لانه - حسب قولهن -  
« عمود البيت » وكان مصطفى يقسم ، وهو يكر كر بضحكته الصماء  
بأنّ بيتهم بلا عمود ! .. لانه ليس سوى كوخ مقبب السقف  
بحجرتين متلاصقتين . كان يقول بأن الاخت الكبيرة تكاد تكون  
بمثابة الرئيسة المطلقة عليهم ، لها الامر وعليهم الطاعة ، والاخت  
الثانية التي من دأبها جلب الماء من النهر القريب وكذلك الحطب  
وحش العشب لعزّة او خروف كنّ يريّنه كل سنة ليعنه فيما  
بعد ، وكذلك حضور الاعراس والمآتم نيابة عن اختها ، أي انها  
كانت - ويفرق مصطفى في الضحك من جديد - بمثابة وزيرة  
الخارجية ! .. اما الاخت الصغرى - وهنا كان مصطفى ينبهني بأن  
لا أدع كلمة « الصغرى » تشحذ خيالي ، لان تلك الاخت الصغرى  
كانت قد تخطت الثلاثين وكان الشيب قد غزا شعرها المتدلي ،  
من تحت فوطتها ، على شكل فتائل - كان من دأب تلك الأخت  
جمع آخر الاخبار واحداث فضائح وطرائف القرية لتقصها عليهم فيما  
بعد وهم متعلقون حول نار الموقد . اي انها كانت - وهنا كنت  
اقاطع مصطفى لاقول : - ... بمثابة وزيرة اعلام .. ويكر كر  
مصطفى بالضحك من جديد مطبطا على ظهري باستحسان . وكنت  
بدوري اناكده محاولا اثارته ، فأسأله بخبث : وأنت ! .. اية وزارة  
كانت بعهدتك ؟! ولكنه كان يجيبني بمرح : أنا ؟ لقد كنت وزيرا  
بلا وزارة ! .. و .. هه .. هه .. هه يطلق ضحكته الصماء  
القصيرة .

كان « مصطفى غريب » يواصل ثرثرته اليومية ولا ينسى ان

ينوه بغموض ، بين يوم واخر ، عن طريقته الجديدة في الصيد ، تلك الطريقة التي لم يكشف سرها الا فيما بعد . وبطبيعة الحال كانت اللازمة التقليدية « يا بني » تتكرر باستمرار خلال ثرثرته المتواصلة ، تلك اللازمة التي لم تعد تثير انتباهي بعدما تعودت أذناي على سماعها ، لانها بدت كالايقاع الرتيب الذي من كثرة تكراره لا ينتبه اليه احد . ولكنه عندما كان يغضب ويحتد فان تلك اللازمة تكاد تتكرر بين كل كلمة وأخرى . وفي أحد الايام فاجأني . كعاداته ، دون مقدمات وبدا انه غاضب لسبب كنت اجهله :

- ألم أقل لك يا بني بأنني سأفقد رأس مالي الوحيد الذي هو الصبر ؟ .. نعم يا بني كنت متأكدا من ذلك . حسنا .. انا صياد .. أليس كذلك ؟ لا تنظر الى ملابسك العسكرية ! .. والان اتبه ! .. أضف لي مهنة أخرى .. أنا لص ! .. مالك تنظر لي ميلاهة ؟ !

اقول لك : بأنني لص ! .. لقد سرقت مساء البارحة ! .. وقذفني بنظرته المتشككة تلك ، وغادرني بنزق دون أن يكمل كلامه .

وفي آخر يوم رأيت فيه وجهه الغريب الذي بدا وكأنه أخرج من جوف أتون ملتهب ، في آخر ظهيرة ، فوجئت بلكزة في جنبي وعندما التفت بغضب - فاللكزة كانت قد المتني - رأيت «مصطفى غريب » قريبا مني يقذف الخنادق والخيام والجنود بنظرات حذرة

.. ودون تهيد بدأ ثرثرته المعهودة وكأنه يواصل حديثا ما انقطع  
بيننا :

- اتعلم ما هي طريقتي الجديدة؟! أرجو أن تعذرني يا بني  
لأنتي لم اثق بك لحد الان! .. كنت أحاول أن أختبرك ! ...  
تعال !

ولم افهم أي شيء فالامر قد استغلق على ذهني بصورة كاملة  
.. ما هذا الكلام المضرب؟! ولكنه لم يترك لي فرصة للتفكير ،  
فقد سحبني من يدي واجتاز بي الخنادق والخيام ، وهناك حيث  
التراب الذي أخرجناه من جوف الخنادق ارتفع على هيئة نلال  
متراففة ، هناك أوقفني بطريقته العصبية ، وذلك بأن سحبني من  
يدي بعنف ، وعندما اتبعت .. وجدته تحت انفي مقرفصا على  
الارض يراقب الخلاء المحيط بنا بعينين حذرتين ، وعندما قرفت  
بجانبه ، وقد تضاعف فضولي لتصرفاته الغريبة ، رأيت وهو يجرف  
بيديه التراب قرب قاعدة التل • بعد لحظات برزت صخرة كبيرة  
بعض الشيء ، وسمعته وهو يطوف بعينه حولنا بحذر :

- تلك هي طريقتي الجديدة في الصيد !

وسحب الصخرة فظهرت تحتها حفرة ، مد فيها يده الراعشة،  
واخرجها وهي ممسكة بشيء لم أدر ما هو لاول وهلة ، ولكن  
سرعان ما عرفت : كانت قبلة يدوية !! ولو انه اخرج من تلك  
الحفرة أرناب سحرية أو كنزا سريا لما فوجئت قدر تلك المفاجأة  
وانا اراه ممسكا بقنبلة! .. ووجدتني أهتف بصوت ثاقب :

— ما هذا يا مصطفى ؟

فوضع سبابته على شفثيه طالبا مني الحذر • فأعدت سؤالي السابق بصوت خافت لم تبارحه الدهشة :

— ما هذا يا مصطفى ؟!

ودون ان يرفع سبابته عن شفثيه أجابني بصوت خافت ملوحا بالقبلة في اليد الاخرى :

— انها طريقي الجديدة ! • لقد أفقدني هذا الانتظار الممل الصبر يا بني ! • اعتقد بأنني لو عدت الى قريتي لما استطعت الصيد بطريقي القديمة البطيئة لحد الموت ! • سرقت هذه القبلة ! • وسأسرق غيرها • • وهناك في المخاضات المنتشرة حول القرية والعامرة باسماء كثيرة • • هناك سأقذف بقبلي ! كل اسبوع وانسف بركة هكذا • • • •

ونزع صمام القبلة :

— بوووم ! • أقذف بها في اللجة فيطفح سطح الماء بأطنان من السمك • • ما رأيك ؟!

وفي تلك اللحظة المشحونة بالقلق والرغبة ، وقبل أن أجيبه ، قرقع الهواء على هدير سرب طائرات مرقت فوق رأسينا ، على ارتفاع منخفض مجتازة حاجز الصوت ، ف شعرنا وكأنها بدأت تقصفنا ، وبقفزة واحدة عبرت الساتر الترابي ولم أجد نفسي الا وانا في قعر خندق • • ومن موقعي ذاك رأيت مصطفى يتوالب في أثري بطريقة



خرقاء مربكة ، وفجأة رأيت يتعثر والقبلة تنفلت من يده باتجاهي ، وبصورة غريزية وجدتي أنبطح لالتصق بالقاع الرطب ، وفي نفس اللحظة سمعت الهدير الاصم لانفجار القبلة ، اعقبه سكون مطبق . مددت رأسي فوق الحافة ، فرأيت سحابة الغبار والدخان ترتفع عاليا ومصطفى متكوم على وجهه . ولم اشعر بالجنود الذين بدأوا يتوافدون نحوي ، انما كنت اسمع لغتهم وكأنه صادر من عالم آخر لا يمت الى الواقع بصلة .

عندما قلبت « مصطفى غريب » على ظهره انقذت يداه على جانبيه بصورة عشوائية وكأنهما يدا حثة . كان بطنه مفعور الاحشاء وقميصه متشربا بالدم حول الفتحة الرهيبة التي خلفتها شظية مرقت أفقيا فكشطت جدار البطن الرخو ، وكانت امعاؤه الزرقاء النابضة قد اندلقت الى الخارج وبخار خفيف يتصاعد منها . الأمر المدهش هو انني اكتشفت بأن مصطفى لم يمت بالتو واللحظة ، رفعت رأسه بين يدي ، ورأيت السماء النائية تتلامع في تينك العينين اللتين كانتا تنظران ، ولاول مرة ، بنظرة ثابتة لا تطرف .

لم تكن عيناه تنظران الى شيء معين ، بل بدتا وكأنهما تنظران الى كل الاشياء التي ارتفع امامها حاجز المستحيل . وفتح شفتيه ليتكلم ولكن دفقة دم مفاجئة انفجرت في فمه فاحتبس الكلام في حنجرته . وعندما حاول ان يتكلم للمرة الثانية بدأ الدم يتدفق من زاويتي فمه ليسيل على يدي ومن ثم يتساقط بهدوء وصمت على الارض الساخنة ، وسمعته يفح بصوت على وشك الانطفاء :

- انني .. اموت .. يا بني ! ..

ورغم احتضاره الخاطف المرير بدا وكأنه عرفني .. وشعرت  
برقبته ترتخي بين يدي وجفناه ينسدلان قليلا ولكن السماء النائية  
ظلت تتلامع في عينيه البريئتين لدرجة لا تطاق ! ..

بيدي هاتين خطت الجرح ، وعلبت جثته في صندوق خشبي  
أرسل الى قريته حيث كوخه الذي « بدون عمود » وثلاث اخوات  
عانسات يستحلفن بعضهن - عند الضرورة - بحياة اخيهن في النجبة  
الصامتة ! .. وحيث المخاضات الطافحة بسمك لم يجرب معه طريقته  
الجديدة في الصيد ! ..

... انظري يا جميلة .. انهما يداي اللتان تندتا بدم  
« مصطفى غريب » ! .. قد يكون دمه ذاك هدر بغياء ، ولكنني  
كنت اشعر به على يديّ لفترة طويلة . لم امد يدي الى « القصعة »  
التي كانت تتوسطنا ثلاث مرات في اليوم ، الا وتخيلت أصابعي  
ملطخة بدمه ! .. ولشدّ ما كنت اخشى ان افقد صبري مثله وأن  
تكون نهايتي بدون جدوى . كان حلمي اكبر من ذلك الواقع المرير  
الذي شدّني الى تلك الخنادق الرطبة طوال الاشهر الخمسة او الستة  
التي اعقبت الخامس من حزيران .

واتبعتها الى قرع الدفوف يخفت بالتدريج وكأن اصابعهم  
تخدرت بعدما نقرت لفترة طويلة . وعلى قاعدة النافذة طالعتني  
يداي المسترخيتان بحياد واستسلام وكأنهما يدا جثة ، وأمامي كان  
الليل الملعوم بالصمت والانتظار يواجهني بصلافة وتجدد لا قدرة لي

على مواجهتهما ، كنت كمن تلقى ضربة ساحقة على فكه تردد صداها في لا وعيه المرتج ، فافتقد القدرة على المواجهة والتحدي ، ومن مكاني ذاك ، وانا اواجه الليل ، شعرت برمحي الفارسين المرسومين على قطعة النسيج وكأنهما مصوبان نحو مؤخرة رأسي الحقيقه ، بل كدت اشعر وكأنني أصبحت احد بدويي الصورة الجانبية •

قبل ان اغادر الغرفة سمعت صوتي الخدر يجرح الصمت المخيم باسترخاء :

– جميلة •• لنعد كما كنا •• ولننس ذلك النقر الغبي •

عندما غادرت الغرفة لمحت من خلال فرجة الباب الذي لم ينطبق بعد ، جميلة ، بثوبها الابيض الذي بدا غير قابل للمس على الاطلاق ، واقفة هناك في مواجهة الليل المنادح امامها بصمت وهدوء •

في الاسفل ، ودون ان اقتبه الى العيون المحدقة بي ، وقد ارتسم فيها تساؤل اخرس بليد ، أرمأت لصديقي سلمان وخالد وصفقنا خلفنا باب المنزل ، وبصمت واصرار انحدرنا نحو مضارب العجر •

هل كان قراري في تلك الليلة : بأن نرجع كما كنا وكأنما لا تربطنا تلك الرابطة الابدية ، هل كان قراري ذاك صائبا ؟ ثم ، ألم أكن قاسيا ، بعض الشيء ، مع جميلة ؟ ما الذي ربط موت « مصطفى غريب » بليلة زفاني ؟ أما كان الاولى بي أن أدع تلك الليلة تسر بسلام دون اثاره شجون ظننت باتني قد دفنتها هناك



في أرض الجبهة الصامته عقب تسريحي ؟... واسئلة عديدة اخرى  
طرحتها على نفسي طوال السنوات الاربع التي اعقبت زواجي  
بجميلة ، كنت ، مرة ، أجيب بـ « نعم » واخرى بـ « لا » وثالثة  
لا أجد أمامي غير الصمت . لم اكتشف السر آنذاك لقد تلبستي  
حالة غريبة كادت تضعني على حافة هاوية الجنون : كان وميض  
عيني « مصطفى غريب » البريئين لدرجة لا تطاق يلوح لعيني أني  
ذهبت ، بل وتحول النهار الى عذاب يشدني بتلك الظهيرة التي  
مات فيها ، وتحول الليل الى حلم كابوسي مديد مثل صرخة تتردد  
اصداؤها بين الف جبل ، ولولا أعمال الحقل التي استنزفت كل  
جهدي لما عرفت بالنهاية التي كنت سأنحدر باتجاهها . عندما  
مات مصطفى بين يديّ حزنت بطبيعة الحال حزن أي أمرىء يفقد  
عزيزا ، وتأملت كثيرا لتلك الميتة التي كانت بلا جدوى ، وكان  
حزني ذلك كحزن ملايين البشر الذين لا يملكون ازاءه سوى الصمت ،  
ولكن الغريب هو أن ذلك الحزن ظل مدفونا في اعماقي طوال  
الفترة التي انقضت على موته ، مثل جمرة خبت تحت الرماد ،  
ليتنفجر فيما بعد ، ومتى ؟ في ليلة زفافي بالذات ! على كل حال ،  
المهم انني هجست ، بما يشبه اليقين ، من أن جميلة قد تفهمت  
وضعي في تلك الليلة ، بل بدت المسألة وكأننا على اتفاق غير معلن  
بأن لا نعود لذكر ما حدث ، وليس هذا فحسب ، بل انما عدنا كما  
كنا وانفرد كل منا بغرفته ، ولولا أمي لما تذكرنا بأننا متزوجان على  
الاطلاق !

طوال الاشهر التي اعقبت زواجنا ، كانت أمي تلحّ في البحث



والتقصي عن سبب افراد كل منا بغرفته ، وعندما لم يأل جهدا  
لنتيجة ، بدأت تئن وتتوجع لاعنة هذا الزمن الذي سيواريتها  
التراب دون ان تكحل عينيها برأى حفيدها ، وهي التي كانت  
تحلم بحفنة احفاد « ملاعين » يسلأون عليها وحشة شيخوختها ..  
وعندما منحناها آذاناً صماء ، ارتكنت بدورها ، الى الصمت وكأنها  
وافقت على مضض ، الدخول ضمن اتفاقنا غير المعلن ! ..

... من يدري ؟! قد تكون الشمس المنخطفة بوميض  
فسفوري خاطف هي السبب في اضعاء هذا الهاجس الفاجع المرير  
على كياني كلما انتصف النهار وتلامعت الارض والسماء •

ها انذا مضطجع على سريري اكاد اشعر بالوسادة التي خلف  
ظهري وكأنها قدت من صخر ، بل انني احس بالهواء الذي اتنشقه  
وكأنه تحول الى كيان كثيف لا يمنح نفسه بسهولة مثلما يتنفس  
المرء من قاع بئر بدون قرار •

عبر مستطيل النافذة تطالعي اشجار الفسحة وظلالها  
المستديرة افترشت العشب وقد أحاطت بالجدوع الراكنة بصمت  
واستكانة ، والعصافير المتخاصمة هدأت أخيرا بين الاغصان الكثيفة .  
انها تنطلق ، بين لحظة واخرى خارج دائرة الظل الرمادي فتخفق  
أجنحتها بوداعة تحت ضوء الشمس لتمرق بخفة فوق العشب ،  
أو تهوّم بحيرة قرب النافذة • وعبر السماء السحيقة تنخطف  
عصافير أخرى نحو المدى الازرق الذي لا تشوبه شائبة بعدما كدت  
اظن ، خلال الايام الثلاثة الممطرة ، بأن هناك ، في بقعة ما من الارض  
« نوحاً » جديدا يعدّ « الفلك » ! ..

الظهيرة تنداح بانسياب فوق العشب والشجر والتراب ،  
وتهوّم عاليا عبر امتداد السماء ، وهناك ، حيث حافة النهر المثقلة  
بغطائها النباتي المتماسك تدرج جنوبا ، هناك يومض الشعاع  
الاربيض فوق الاغصان المنحنية نحو المجرى الرطب العميق  
ليتسرب سفلا وليتلامع عبر طيات التيار الحاد .

لم ترتبط الظهيرة في ذهني بتلك التي مات فيها « مصطفى  
غريب » فحسب ، بل هناك ظهيرة أخرى كادت تمحو عن ذهني  
ما خلفه موت مصطفى من شجون تحولت بمرور الايام الى دَين  
قديم لا بد لي من ادائه .

كان ذلك قبل ستة اشهر ، وكنت ، كالعادة ، اعمل في  
تهيئة الارض للحراثة . لقد اصبحت ألازم الحقل بصفة مستمرة .  
وحتى بعد الانتهاء من الحصاد ورفع البيدر كان لا بدّ لي من  
طواف يومي أتفقد به أرضي التي اصبحت ملكي . انه احساس  
بهيج أن تستلقي على العشب ، ومن خلال السيقان الخضراء الخشنة  
التي تحز وجهك تشم الهواء المندّى بعبق الأرض الرطبة .

ان قطعة الارض التي كنت أزرعها في السابق ، لقاء حفنة  
قمح لا تغني عن جوع ، أصبحت لي ، ولم يعد باستطاعة « الملاكين »  
التعايل على قانون « الاصلاح الزراعي » الذي طبق بصرامة ،  
فألقم هؤلاء الجشعون حجرا أثقل ، والى الابد ، اشدّاقهم الشرهة  
التي لم تعرف الشبع والاكتفاء طوال حقبة طويلة .

قد تكون تلك الارض مجرد رقعة ليست بالواسعة ، ولكن

ذلك لا يهم ، ليست المسألة سعة الارض أو ضيقها ، بل هي تلك الصميمة التي تشدني لارض لا يذهب تعبى فيها هدرا • انها أرضى ، وانا اعرفها شبرا شبرا ، أعرف أن ذلك الجزء القريب من النهر والذي يمر به ماء الساقية أول ما يمر لسقي الحقل ، يصلح لزراعة الخضروات ، لان ترابه نظيف خال من الاملاح • والجزء الذي الى اليمين يصلح لزراعة السمسم ، فأرضه رملية وظليلة أيضا تتخللها اشجار برية نست من تلقاء ذاتها • وتلك الرقعة التي الى اليسار تصلح لزراعة البصل لانها تقع في نهاية الحقل حيث الارض السبخة • وتلك الرقعة المغطاة بالحصباء ؟ انها لا تصلح لزراعة أي شيء •• ولكن ذلك لا يهم فالوجه الفاتن لا يخلو من عيب ما ، ولو أن الارض زرعت بأجمعها بالقمح لاخفت الحسنات والمساوى •• فالقمح نبات متواضع ينبت أنى يذر •

اضافة الى أرضى هناك مزارع جماعية أساهم بزراعتها مع الفلاحين الآخرين • لم تعد الحياة كما كانت في الماضي ، يوم كان الملاك يجيئنا ويقرر تهجير الفلاحين لان تلك الاكمة التي بنيت فوق حذبتها قرينتنا تبدو « كالعين العوراء » في أرضه ! •• لا •• لم يعد « الملاك » يخب على صهوة حصانه الاشهب بكبرياء وصلف عقب انتهاء الحصاد ليعطي لكل فلاح حفنة قمح هزيلة لقاء تعب موسم كامل ، وليتذمر بعد ذلك - بعد ان يخرج علبة سكائره الاجنبية مظهراً مسدسه الانكليزي المتدلي من حزامه •• وبعدما ينفث من فمه ومنخريه دخانا ذا رائحة غريبة لم تكن تشبه رائحة سكائرنال الف - ليتذمر من شحة المحصول •• لا •• الفلاح اليوم

على قدر جهده تكون حصته ، وهنا أشعر بالاسى والحزن لآبائنا الذين لم ينصفوا في حياتهم ، ولكنني أعود لاهزّ رأسي بعنف وأتساءل مع نفسي : ألسنا نحن امتدادا لهم ؟! ان انبجست الينايع من أرض صخرية ، وان اعترضت السدود والمخاضات سبيل الانهار المدومة الى الامام ، فهذا هي الارض الرحبة الممتدة مثل راحة اليد حيث الماء يطوف في زواياها الاربع بيسر •

كل عام ، وخلال شهر تشرين أعدّ الارض للحراثة : أجثت النباتات الشوكية والاعشاب الاخرى ، وبعدها أكوّمها اضرّم فيها النار • واطلق الماء نحو الحقل •• اسبوع او أكثر وتكون الارض الرطبة مهيأة لاحتضان سكة المحراث •

جميلة تنتقل ، كالعادة ، بين الحقل والمنزل تساعدني قدر امكانها في الحقل ، وتدير مع أمي شؤون البيت • انها أشبه بشيء نابض لا تجده الا وهو يتقافز هنا وهناك • مرة أصادفها في الخلاء تسحب كومة حطب بقدر حجمها ثلاث مرات • أو اراها وهي تحش العشب ، أو تنخطف من تحت أنفي ويدها صفيحة لتجلب بها الماء من النهر القريب •• ومن ثم اسمع وقع خطواتها فوق سطح الدار وهي تنشر الملابس التي انتهت من غسلها ، ولا تكاد تنتهي من ذلك حتى اسمعها وهي تطلق صرخة صادرة من حظيرة الاغنام التي ليست سوى كوخ طيني يقع في الطرف الشمالي من المنزل ، وعندما اسارع الى هناك أراها وقد شمّرت عن ذراعيها وهي تساعد عنزة أو نعجة تضع حملها •

والاغنام ، اضافة الى عملي في الحقل ، أصبحت بعهدتي بعدما



التحق حميد ، عقب تسريحه من الجيش ، بالعمل في شركة تقوم  
بشحن الحصى والحجارة من الوهاد المنتشرة جنوبا والمغطاة بطبقات  
عميقة من الحجارة التي جرفتها السيول ، وبواسطة شاحنات ضخمة  
ترسل تلك الحجارة اما لرصف الطرق أو لمعامل الاسمنت • ان  
رعاية الاغنام ليست معضلة صعبة ، فان عددها لا يتجاوز العشرين وهي  
لا تحتاج الى أكثر من صغير حاد لتتطلق مهرولة أمامي بمرح حال  
مغادرتي للمنزل ، وفي الاجمات المحيطة بالحقل اتركها ترعى طوال  
النهار •

في تلك الظهيرة ، قبل سنة اشهر ، كانت شمس تشرين قد  
انحدرت قليلا عن سمت الرأس فمالت الظلال الى الشرق • رفعت  
يدي عن المحراث الخشبي ، بعدما انتهيت من حراثة نصف الارض ،  
ووجدتني أفكر •

- « قد يكون آخر موسم احث به الارض بواسطة هذه  
الاداة البدائية ! .. »

وتلك الفكرة ملأتني بالبهجة ، فقبل أيام سمعنا ، في مقرّ  
« الجمعية الفلاحية » ان « المكننة » ستعم أبعاد مناطق الريف ،  
ذلك ، لعمرى ، حلم طالما راودنا نحن الفلاحين ، ما أجمل وأروع أن  
ترى تلك « التركترات » الجبارة وهي تدسّ بأنيابها الحديدية  
الحادة في لحمه الارض التي لم تعمل بها المحاريث الخشبية سوى  
خدوش ضحلة • ان هذه الارض متعطشة لتلك الانياب القاطعة  
التي تنغرس عميقا لتصل الى التراب البكر ! ..

كانت الريح اشبه بتنفس رضيع ، تهب من جهة الجنوب حاملة معها أصواتا ودمدمات غامضة - قد تكون صادرة من هناك ، حيث يعمل حصيد - لقد نال التعب مني ، حررت رقبة الثور من النير ، وهو ثور أسود بقرن مكسور يعود لاحد أصدقائي الفلاحين ، وياله من صديق يملأ العين ! .. قبل ايام ونحن في مقر « الجمعية » ذكرت الصعوبات التي تواجهني هذا الموسم فقد اقترب موعد الحراثة وانا لا أملك ثورا ، ففوجئت بصديقي ذاك وهو يدق على صدره قائلا باعتزاز •

- أنا عندك ! .. حالما أنتهي من حراثة أرضي سيكون ثوري تحت تصرفك ! ..

ووجدت كلمات أبي تخطر في ذهني :

- « اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفق ! .. »

انه شعور جميل أن ترى هذا الاخاء الذي يشدك الى الآخرين ..

لقد بذل الثور جهودا هائلة أثناء الحراثة ، فكلما اعترضت كتلة جذور متماسكة طريق المحراث ، شد الثور بجسده الى الامام غارزا قوائمه القوية في الارض .. و .. طق .. اسمع صوت تهشم الجذور والمحراث يثلم الارض بانسياب ..

قلبت المحراث رأسا على عقب وحاولت جهد امكاني أن احدث سكتة بواسطة مبرد أعلقه في حزامي عادة لمثل هذه الامور .. حتى الحديد لا يستطيع الصمود امام الجذور المتشابكة تحت قشرة

الارض الهشة ! انها جذور شجيرات الصفصاف والغرب والتوت  
والزعرور وشجيرات برية اخرى نمت كيفما اتفق ، فالنهر قريب  
والارض رطبة تغري الاشجار بالنمو والتكاثر .. صدق من قال :  
الماء أصل كل شيء حي !

كانت خطوط الحرث تتدرج أمامي باستقامة وكتل التربة  
المقلوبة الرطبة تفعم برائحة صميمة ، يشمها المرء في الاشياء العزيزة،  
وبعيداً حيث الشمس تسطع بحدة ، تصاعد بخار خفيف وكأن الارض  
المقلوبة بدأت تتنفس بعد طول اختناق .

كان الجو لايزال دافئاً وشمس تشرين تسطع بحدة وظلال  
الاشجار تدعو المرء للاضطجاع على الارض المعشبة المحاطة بشجيرات  
متناسكة ، تمتدّ على شكل قوس يلتقي طرفاه بحافة النهر المرتفعة،  
مكونا معها جيها سرياً ، وهناك كنت اضطلع بأمان مسرحاً  
بنظراتي ، من خلال الفسحات الشوهاء بين الاشجار ، نحو  
الاطراف البعيدة للحقل . قريباً مني ، طفق الثور يطوّف بجرمه  
الكبير متلقفاً بشفتيه الخشتين الرطبتين العشب .

تأخرت جميلة ، انها تأتي ، عادة ، ومعها صرة الطعام بعد  
ساعة من سماعها لاذان الشيخ « رمضان » الذي يؤذن عادة فوق  
سطح كوخه في قرية صغيرة تقع الى الجنوب ، وهي قرية لا يكاد  
المرء يحس بوجودها بسبب تلك التلال المحيطة بها . وصوت الشيخ  
« رمضان » يدوي في البرية بوضوح بفضل حنجرته القوية - تلك  
الحنجرة التي اوقعته بمشاكل غرامية فاضحة ايام شبابه بسبب  
الصوت العذب الذي ما كان ينطلق أيام الحصاد ، حتى كانت الرقاب



تستدير نحو مصدره ، والشباب يهتفون بمرح : انه رمضان ابو  
البنات .. هكذا كان يلعب يومذاك ، لابد أن له اليوم حكاية حب  
جديدة ! -

الظل والعشب والريح سرعان ما أغرتني بالاستجابة لحكم  
سلطان النوم ، التعب الذي انهك جسدي طوال ساعات الصباح  
ترجّع في مفاصلي بايقاع مؤلم ، والصمت المطبق تردد في سمعي  
بطنين أصم . بين فينة وأخرى كنت استيقظ على هسيس شفق  
الثور الممتليء بالعشب . وكان الثور يدبّ بالقرب مني ملصقاً  
منخريه الاسودين في الارض ، وذنبه الطويل يتأرجح باستمرار  
هاشاً به الذباب المحوم فوق عرقه المنداح بين اضلاعه البارزة  
وقبل أن أنزلق في هوة الكرى من جديد لمحت الثور ينسلّ خارج  
الاجمة متوغلاً في الاحراش القريبة . ولم أدر كم نمت على وجه  
التحديد ، ولكنني أتذكر بأنتي كنت أحلم بارغبة خبز ووجبة غذاء  
محترمة لم اهنأ بها ، فعلى صوت رصاصة انطلقت ، وكأنما فوق  
رأسي بالضبط ، وجدنتي أقفز مستويا على قدمي وكأن قوة  
خفية قد سحبنتي للأعلى ، وأول فكرة خطرت في ذهني هي أن  
أحدهم قد قتل الثور ! .. الا انني سرعان ما لمحت ، من خلال  
الاشجار ، وهو يحك قرنه المكسور على جذع شجرة وقد انتفخ  
جنباه بعدما ازدرد كمية عشب هائلة .

لو لم أكن نائماً وفوجئت بصوت الرصاصة لما انتبهت اليها  
على الاطلاق . تلك مسألة اعتيادية أن يسمع المرء صوت اطلاق  
عيارات نارية بين وقت وآخر فالاحراش والبساتين قريبة ، وهي



تغصّ بالخنازير التي لكل فلاح معها الف ثأر ، ولو طاف انسان  
عبر القرى والبيوت المنتشرة هنا وهناك لما وجد كوخا واحدا يعدم  
بندقية أو اثنتين ! الحياة في البرية تتطلب الاعتماد على مثل هذه  
المسائل ، فهناك حراسة الزرع وقنص الخنازير والصيد • مذ فتحنا  
أعيننا على الدنيا وجدنا أباءنا او اعمامنا او اخواننا صيادين لايشق  
لهم غبار ! •• والى الان لا أزال اذكر رأس غزال محنط بقرنين  
معقوفين ، كان معلقا على جدار كوخنا ، ذلك الغزال ، كما عرفت  
فيما بعد اصطاده ابي ببندقية قديمة كانت تملأ بالبارود من فوهتها!  
الا أن ذلك الرأس ضاع منا ، مع الاسف ، يوم نزوحنا عن القرية  
••• ولم أسترسل في تأملاتي أكثر من ذلك ، فقد انطلقت رصاصة  
أخرى من جهة الشرق ، أعقبها ثانية من جهة الغرب وثالثة من جهة  
أخرى ، ومثل مطر عاصف يفاجيء المرء في البرية على حين غرة  
فيصيه بالذهول ، انفجرت العيارات النارية من كل جانب وترددت  
اصداؤها عبر البرية وغابات النخيل •• ما الخبر؟! لقد انشدهت  
ولم أجد ايما تفسير لهذه المعضلة! •• هل هي حفلة زفاف ؟  
وسرعان ما أبعدت هذا خاطر عن ذهني ، أي زفاف والرصاص  
ينطلق من كل مكان؟! كان صوت العيارات من الشدة بحيث جعل  
الثور يكف عن حك قرنه المكسور والاغنام المبعثرة بين الاجمات  
سرعان ما احاطت بي وهي تتنفس باضطراب وتمد رؤوسها في  
شتى الاتجاهات ونظرة جوفاء حائرة قد ارتسمت في اعينها الصفراء  
المستديرة •

أمام عجزى الكامل عن تفسير ما سمعت وبسبب الجوع الذي

بدأ يعصر معدتي ، لم أجد بداً من أن أقتل الوقت بلف سيكارة  
سرعان ما اوقدتها وقذفت الاغنام بكل ما وجدته في متناول يدي  
من اغصان وكتل تراب الى أن ابتعدت عني وانتشرت بين الاجمات  
من جديد . وكان صوت العيارات قد انطلقاً منذ فترة ولكنني كنت  
احس به يتردد في رأسي ولففت سيكارة ثانية ، ولم أكد اوقدها من  
عقب الاولى حتى انشقت الاشجار عن قوام جميلة وصرة الطعام  
تأرجح في يدها . بدت وكأنها قطعت المسافة بين البيت والحقل  
مهرولة ، فتوجست بوقوع أمر ما وكان صدى العيارات لا يزال  
يتردد في رأسي ، ولكن حالما اقتربت مني ووجدت وجهها المتورد  
يطفح بالبشر والفرح ، انسحب خوفي بعيداً وعاد ذلك التساؤل  
الملح عن سبب انطلاق الرصاص ، عاد يتردد في ذهني . بادرتني  
جميلة قائلة بصوت لاهث ، وبعدما وضعت صرة الطعام في متناول  
يدي واستلقت أمامي على العشب وصدرها المتماسك تحت طية  
ثوبها الاحمر المزهر ، يرتفع وينخفض بصورة مثيرة :

- حازم .. لن تصدّق ما سأقوله لك !! .. لا بد انك

جائع ؟

ووجدتني أتساءل بلهجة ساخرة :

- لن اصدق ماذا ؟ لن اصدق بانني جائع ؟!

وأغرقت في ضحكة مهشمة جعلت نهديها يرتجان باشتهاء ..

يالها من خبيثة !! .. اية لعبة هيأتها لي ؟! .. ورفعت صوتي :

- جميلة بالله عليك خبريني بالمسألة .. ما هذا اللف

والدوران ؟ ..

استندت على أحد مرفقيها فانسدت فوطتها جانبا ، وهناك  
حيث يياض اللحم المشربّ بحمرة خفيفة ، خددت اشعة الشمس  
الظل الفاصل بين فلقتي الشدين المتماسين • وبعدما اكتست  
ملامحها المنداة بالعرق ، بجدية صارمة ، قالت :

– لقد اندلع القتال !! ••

ووجدتني اتساءل مع نفسي « أي قتال ؟! » وقذفتها بنظرة  
جوفاء ••

– الجيوش العربية هاجمت من الغرب والشمال !! •• هناك  
بيانات عن سير المعارك تزداع بين فترة واخرى ، تتخللها موسيقى  
وأناشيد حماسية !! ••

في البداية شعرت بذهول كاد يتحول الى حالة غيوبة ،  
ومن خلال الفوضى التي اكتسحت ذهني للحظات ، كنت أسمع  
صوت « مصطفى غريب » يتردد في اذني بصدى موحش :

– « انها حرب اشباح يا بني ! •• الحرب لا تكون بهذه  
الطريقة البائسة • أن نضلّ نتظر الى أن يبدأوا هم ! •• انظر ! ••  
لقد بدأوا في هذا الصيف الكافر •• وبسته ايام واجهونا بجبهات  
جديدة امتدت غربا وشمالا وشرقا ! •• الحرب لا تكون بهذه  
الطريقة البائسة يا بني ! •• »

بعد ذلك شعرت وكأنني استيقظ من حلم كابوسي مديد مثل  
صرخة تتردد اصداؤها بين ألف جبل ، وقد رفعت عن عيني غشاوة  
عكرة •• الاشياء تتوهج أمامي بوضوح ساطع •• ها هي جميلة



وكأني أراها لأول مرة .. وها هي الأرض المعشبة والأشجار تحف  
بها من كل جانب ، وتلك هي السماء زرقاء كما لم تكن من قبل .  
وعدت بعيني نحو جميلة : انها تتطلع نحوي بثبات وتحفز ! ..  
انها الحرب اذن ؟! .. وتذكرت العيارات النارية التي انطلقت قبل  
قليل ، ولو كانت بندقيتي في متناول يدي لاطلقت مثلهم طلقة في  
الفضاء معبرا بها عن فرحتي وأنا أسمع بخبر اندلاع هذه الحرب  
التي طال انتظارنا لها ! .. وفجأة شعرت بقلبي يهبط في صدري ! ..  
حتى أن جميلة انتبهت الى بياض وجهي الذي انحسر الدم عنه ،  
وتساءلت مع نفسي بخوف :

- « لكن من الذي بدأ ؟ .. من الذي بدأها أولا ؟ » وكأن  
جميلة استجابت لتوضيح ما دار في ذهني :

- مالك ؟ لقد غاض الدم عن وجهك ! .. الا تصدق ؟! بعد  
ظهيرة هذا اليوم .. السادس من تشرين هاجمت الجيوش العربية  
واكتسحت مواقع الاعداء ! .. طائراتنا المقاتلة في الجبهة الغربية  
تساهم الان في القتال ! .. الا تصدق ؟!

... ولكنها باضجاعها المثير المتحفز ، تحفز نمر يتهيا للنو ثوب  
والصراع ، جعلتني اصدق !

بدت جميلة ، من خلال العشب الذي كاد يغطي الجزء  
الملاصق من جسدها للأرض بدءا من قدميها وحتى تقوس خصرها  
للاعلى ، بدت وكأنها انبثقت من خلال التربة المهيأة للحراثة  
والزراع . كانت مستلقية هناك أمامي كما كانت الأشجار منتصبة



على جانبي وفوق رأسي • لم تبد كشيء طاريء أقحم على تلك  
الاجمة المستعرة بوهج الشمس ، انما كان من الواضح انه لولا  
وجودها هناك لحدث خلل كبير ما امكن تلافيه بأي حال من  
الاحوال •

كان الثوب الاحمر المزهر قد انحسر فوق الركبتين بمسافة  
تكفي لان اتصور مدى امتلاء واستدارة الفخذين المتماسكين  
•• لم يكن يبدو من قدميها ، المغمورتين بالعشب ، سوى ذلك  
البروز المتورد الذي يعتلي عظمة الكاحل الدقيقة ، ولم يد من  
الساق التي في الاسفل غير بياض باهت كاد يكون اقرب الى  
لون رمادي جاء بسبب الظلال والعشب ، اما الساق الثانية فقد  
كانت تسطع بحدة تحت ضوء شمس الظهيرة • عقب اندفاع  
الركبتين الى الامام ينحرف الفخذان المنفرجان قليلا للداخل ،  
وكان بياضهما يعتم بالتدرج كلما توغلا تحت طية القماش ، الا  
انها كانت عتمة متوردة بعض الشيء ، بسبب انعكاس لون الثوب  
الاحمر ، ولكن هناك بعيدا في العمق كانت العتمة تتخثر باضطراد  
مثل عتمة دغل يكتنفه الغموض والتوجس • وفي الخارج كان  
الثوب يتكور باندفاع فجائي ، فوق بروز الحوض الرحب ، وبعده  
ينحني بانسياب لينسدل فوق انحناء الخصر الرهيفة التي سرعان  
ما تدرج بالصعود للاعلى حيث الصدر المستند على مرفق اليد  
المفروس في العشب • كانت انحناءة الخصر اشبه بجذع شجرة  
يتقوس عاليا لينتهي بالاغصان المثقلة بالثمر • وكانت القوطة  
السوداء قد انحسرت جانبا فسطع بياض الصدر ووضح الظل

الفاصل بين فلقتي الشدين • وهناك ، في الزاوية التي تلتقي بها  
الرقبة بالصدر ، في تلك الزاوية المتوترة تحت ثقل الجسد المشدود  
للارض واندفاع الرأس للأعلى ، هناك كان عرق نابض ينتفض تحت  
الجلد •• كنت اتلمس بعيني دفقات الدم المتعاقبة باستمرار ••  
كان يدق •• يدق •• يدق •• وكان دقا مستفزا يغريني باجتراح  
التجربة المثيرة التي بدأت تسحبني ضمن فوضاها المربكة •• لم  
يعد باستطاعتي البقاء في مكاني مراقبا عن كثب ذلك الدق المثير  
دون القيام بعمل ما يرفع حاجز الصمت الممتد ما بيننا •• ولكنني  
وأنا اراقب ذلك العرق النابض وجدتني استعيد حادثة قديمة وقعت  
لي في الايام الاولى لالتحاقني بالخدمة العسكرية : لقد شاء سوء  
حظي أن يكون سريري قريبا من سرير جندي يملك ساعة منبهة كان  
يضعها على المنضدة التي بين سريرينا • وعندما لم يعد السكوت ممكنا  
بعد ليال مؤرقة قضيتها بشق الانفس ، قررت مفاتحته • وفي تلك  
الليلة قلت له ، وانا اراقبه وهو يملأ ساعته اللعينة :

— ما حاجتك لهذه الساعة ؟!

فتساءل باستغراب ، وكان قد انتهى من ملئها وبدأت اصابعه  
تبحث عن مفتاح جرس التنبيه :

— وما شأنك انت ؟!

ما شأني ؟! يا هذا الغباء !•• ولكنني سيطرت على اعصابي  
واجبته ببرود :

— مجرد فضول ••

اجابني بلهجة عملية بعدما اهتدى الى مفتاح المنبه واخذ  
يضبطه على الساعة الرابعة صباحا :

- لأصحو على رنين جرسها في الوقت المحدد فأبدأ بتلميع  
حذائي وحلاقة ذقني ، واثمياً فاكون متواجدا في الوقت المحدد  
في ساحة العروض !!

يا للصفقة !! كان الاجدر به أن يقول « لاحلق ذقني  
والمع حذائي !! » على كل حال أغمضت عيني لاعنا شياطين  
الارض الزرق التي بدأت تصخب في رأسي .. قلت له :

- ولكنك تستطيع حلاقة ذقنك وتلميع حذائك في المساء !

أجابني يروود واصابعه تدير مفتاح جرس التنبيه الى آخره  
وكأنه يسحب وتر قوسه لينطلق السهم الى ابعد مداه :

- لو حلقت ليلا لطالت لحيتي في الصباح !!

اللجنة !! هل توجد لحية تنمو خلال خمس او ست ساعات ؟  
ولكنني ، وبقدرة قادر ، سيطرت على اعصابي وقتلت له بلهجة  
خفيضة حاولت بها اخفاء انفعالي الذي قد يبدو من خلال ارتجافه  
صوتي :

- ولكنك تستطيع الاستيقاظ دون الاعتماد على مثل هذه  
.. وأشرت الى الساعة دون أن الفظ باسمها الذي بدا بغیضا على  
لساني بشكل لا يصدق . وتساءل بعدما انتهى من ملء مفتاح  
المنبه الى آخره :

- كيف ؟!

- كما يستيقظ الجنود عادة !

- لكن نومي ثقيل ، فأخشى ان يفوتني موعد التدريب  
فأعرض نفسي للعقوبة !

قلت له بلهجة مصالحة :

- حسنا .. تستطيع الاعتماد عليّ .. سأوقظك في الوقت

المحدد ! ..

ولكن اللعين ابي الا أن يستفزني أكثر :

- وان لم تستيقظ انت في الوقت المناسب ؟!

حقا انها لحجة دامغة ضاعفت سخطي تجاهه :

- اللعنة ! .. ولكنني سأستيقظ ، بطريقة ما ، في الوقت الذي

تريده ! ..

وهنا انتبه الى الساعة التي انتهى من ملء مفتاحيها فبدأت  
تكتك في يده بنشاط وتحد ، ووضعها على المنضدة التي بين  
سريرنا اي على بعد ذراع واحدة من وسادتي ، واستدار نحوي  
متسائلا باستنكار •

- ولم كل هذا الاهتمام بسواعيد نومي واستيقاظي ؟ انها

لمسألة غريبة ! ..

غبي .. كان اغبي انسان التقيت به على وجه الارض ! .. الى



الان وهو لم يكتشف السبب الذي دفعني الى أن اضيع معه  
كل هذا الوقت !.. اجبته واذا احاول لآخر مرة السيطرة على  
اعصابي التي بدأت تدق في صدغي .. وعندما تدق هناك اكون  
في طريقي الى حالة اشبه ما تكون بالجنون ..

- انه بسبب الساعة !..

فتساءل بغباء فظيع :

- الساعة ؟ ولكنها توقظني في الوقت المناسب !

وأخيرا لم يعد باستطاعتي الصبر أكثر من ذلك فصرخت به  
بصوت هائل انفجر في حنجرتي التي اثبتت بصورة قاطعة لا تقبل  
الشك ، بأنني سليل « عبدالغفور » ذي الصوت الرنان :

- ولكنها بدقاتها الرتيبة لا تدعني انام طوال الليل !

وعندما رأيته ينظر لي ببلاهة من لم يفهم ايما شيء ، وجدت  
يدي تنقذف فجأة بحركة خاطفة نحو الساعة التي طارت عبر  
سريره وارتطمت بالارض فارتفع رنين جرسها على غير انتظار !..

... ولكن هناك ، في تلك الزاوية المتوترة باشتهاء ، كان  
لنبض الدم ايقاع آخر بدأ يغريني ، بقوة لا ترد ، لأمدّ يدي  
متلمسا بها ذلك الكائن الغريب المنتفض تحت الجلد !.. ان ذلك  
الدق المستمر بدأ يغرقني بتوتر ساحق هجست ، خلاله ، وكأن  
دمي أخذ يتجاوب مع ذلك العرق النابض تجاوب الصدى للصوت !  
لم يخطر في ذهني بأنني سأجد يدي وهي تحط باصرار غريب ، على

انحناء تلك الزاوية ! ولكنني فوجئت بها هناك ، تتحسس بانشداه ،  
ذلك الشيء المنتفض في الداخل ! .. وكنا وكأنما انبجست ، عبر تلك  
المسافة الفاصلة ما بيننا ، قوة ساحقة بدأت تتجاذبنا باضطراب لتوحد  
بعضنا نهائيا ! .. وانسحب كل ما حولنا من ارض وشجر وسماء  
وريح .. انسحب كل ما حولنا بعيدا وبقيت واياها كائنين بدائيين  
تتحكم بهما غريزة الجسد ! .. وكان ذلك العرق يدق .. يدق ..  
يدق وبعنف تحت راحة يدي . وكان اللحم ، كما توقعت ، دافئا  
بشكل غريب يغري الاصابع بأن تتوغل عبر تلك المنحدرات الغامضة  
بحثاً عن النبع الذي ينطلق منه ذلك الايقاع المستفز .. كنت وبكل  
وجودي اندفع وراء تلك اليد التي تمررت ، وبشكل نهائي ، على كل  
قيد كان يشدها بي ! .. وهناك حيث اللحم يندلق في كل اتجاه  
بتحد وغموض ، شعرت بالدق يدوي بشكل لا يصدق .. أحسست  
بقلبها ينتفض تحت كفي مثل عصفور ذبيح .. وتساءلت مع  
نفسي : هل هي تلك الارادة الغامضة التي شحذها الانتظار المرير  
طوال السنوات الست الماضية حتى اصبحت ارهف من الحافة  
الفاصلة بين الحياة والموت ، تلك الحافة التي يستوي عندها كل  
شيء ؟ وقلت أيضا : ام انها القوة الغامضة التي انفجرت أخيرا  
لتعلن عن نفسها بوضوح بعدما اصبح الضغط فوق الاحتمال ؟  
وتساءلت أخيرا بتوجس : أهى الارادة ام القوة ؟ ام انها الاثنتان  
معا ؟ وان كانت كذلك فهل سيكون الانطلاق الى الامام والى ابعد  
مدى ؟ أم انه مجرد شوط محدود ؟! ذلك هو ما كان يحيرني في  
الحقيقة ! .. ولكنني ، وكما تخيلت ، شعرت بذلك الكائن يفيض

عن كفي .. افتح اصابعي على آخرها ولكنه كان يفيض باستمرار  
.. قلت : اليد الواحدة لا تكفي .. ومددت يدي الثانية ...  
ولكنهما كانا يندلقان في كل اتجاه ! .. ان حاصرتهما فجأة وظننت  
انني اسرتهما أخيرا ، فوجئت بهما يفيضان خارج أسر الاصابع ! ..  
كانا كائنين متمردين بشكل لا يطاق . وكانت ذروتاهما الناتئتان  
تتشنجان باستمرار مثل برعمين ، بحجم رأس الخنصر ، توترا بعنف  
فوق عصارة النسغ المتفجرة تحت قشرتهما الرقيقة .. وكانت  
كفاي قد اصبحتا مثل حيوانين ضارين يفرسان اللحم باستمرار  
ويبحثان عن المزيد ! .. هل كانا يبحثان عن غابة عذراء لم تطأها  
قدم ؟!

وكان الحيوانان الصاخبان ينحدران باستمرار وهما يحلمان  
بتلك الغابة ! .. وكما يحدث في الحلم ، تراءى لعيني المبهورتين  
سهل أجرد تحاذيه ، من جهة الغرب ، غابات نخيل اضفى الغروب  
عليها الغموض ، وقريبا منها انتصبت اكمة اعتلتها بقايا قرية مهجورة  
.. ومن خلال ذلك الخراب الشامل تراءت لي شجرة توت وحيدة  
تسيل مع هبوب الريح غربا حيث الشمس تختفي كل يوم وارواح  
البشر تتصاعد كل لحظة ، كانت الشجرة تهتز بانسياب وكأنها  
توميء لي بتحية الوداع .. وتناهى لسمعي خب خافت كان يتصاعد  
باستمرار ومعه بدأت الاكمة والقرية والنخيل تختفي ببطء وهدوء  
... وبعيدا .. بعيدا .. تحت شعاع شمس قديمة ومض حصان  
أشهب اعتلى صهوته فارس مديد القامة .. طرّ الحصان السهل  
الاجرد الذي كاد يختفي خلال ذلك الشعاع الغريب ، ولكنني



بقيت أسمع خبئه وهو يترجع في سمي بصدى موحش ومعه  
تصاعد صدى نقر رتيب بدأ يدق .. يدق باصرار ، وكان الليل  
قد خيم وملايين النجوم بدأت تنبض بصمت . كان ليلا شاسعا  
جرّحت صمته مصاييح طائرات الاستطلاع الحمراء وهي تشتعل  
وتنطفئ .. وتشتعل باستمرار .. وفجأة دوى هدير أصم اعقبه  
صوت انفجار هائل واختلط في ذهني كل شيء : الليل اصبح نهارا  
والشمس سطعت بحدة على حديد خوذة متراصفة عند حافة خنادق  
رطبة .. ولم أدر كيف وجدت نفسي هناك انظر لكل ما حولي  
بدهشة وغضب ، وبندقتي ، المستكنة بين يدي بحياذ ، باردة  
لحدّ الجمد ! .. ومع الدوي المستمر وجدتني اتطلع عن كئيب  
في عيني جندي قميء القامة استلقى بين يدي باستسلام . كان له  
وجه غريب بدا وكأنه أدخل في جوف أتون ملتهب فاندغمت ملامحه  
بعضها ! .. ولمحت في تينك العينين اللتين كاتتا تتطلعان في وجهي  
بثبات ، سماء نائية افتقدت لونها الازرق القديم . شعرت بأنني  
أعرف ذلك الجندي . قلت مع نفسي : ترى من يكون ؟ كنت على  
ثقة مطلقة من انني اعرفه ، ولكن من هو ؟! وتطلعت في عينيّه  
ملياً كاتتا عينين بريئتين لدرجة لا تطاق ؟ .. وفجأة عرفته : انه  
مصطفى غريب ! ..

وكما يستيقظ النائم فجأة ، اتبعت الى نفسي لارى جميلة  
مستكنة بين ذراعي وهي تحدّق في وجهي بعينين مثقلتين بالانشداه  
والنشوة ، وكانت شمس « تشرين » تومض فيهما بشكل لا يصدق  
وعلى جسدها المندى بالعرق وعلى العشب الذي انسحق تحت ثقل



جسدينا كانت الشمس تسطع ايضا !! وكان صدى ذلك النقر  
الرتيب لا يزال يتردد في سمعي ، ومعه كنت اسمع النقر الجارح  
الأصم الذي انطلق قبل ساعة عبر القرى والذي انطلق هناك في  
الجهة .. وعلى حين غرة سمعتني اهتف بفهم تحلب لعابا ولسان  
تقافز في كل اتجاه مثل أفعى تمردت نهائيا على الايقاع الرتيب  
لمزار الحاوي :

- جميلة .. ان كنت ارفض النقر الرتيب المتسم بالغباء ،  
فأنا مع النقر الاخر .. النقر الاصم الجارح الذي قد يلوّث  
الجسد بالدم ولكنه يوقظ الاحساس بالالم في اللحم الميت  
لتتفجر الحياة فيه بعنف وضراوة !! ..

وكنت لا ازال المح الشمس تومض في عينيها وكانت السماء  
زرقاء كما لم تكن من قبل . وهناك على رقبتني المنداة بالعرق  
شعرت بالشعاع الساخن يلسعني باستمرار .. وكان العرق الذي  
غمر جسدي يسيل ليمتزج بعرق جسد جميلة ويقطر باتجاه الارض  
المهيأة للحراثة والزرع .. ولاول مرة اكتشفت بأن جميلة ليست  
مجرد جسد بارد تمتد بيني وبينه شمس حيران القاسية وخنادق  
رطبة عشش العفن فيها طوال ست سنوات ، وعينان بريئتان لدرجة  
لا تطاق !! .. شعرت بجميلة رحما يمور بالخصب والامومة !! ..  
وصدقت بأن الحرب قد أندلعت هناك !! ..

الحمد لله





جنت الشمس غرباً ، فأصبح في الامكان النظر الى قرصها  
البرتقالي الملهب الذي بدا ، من خلال الاشجار المنتصبة امام المنزل  
وكأنه سيهبط ببطء وهدوء ، ولكن باصرار لا يرد ، فوق سقف  
المنزل . كانت الواجهة الامامية مغمورة بظل كثيف يمتد حتى  
منتصف أرض الفسحة العشبية ، الا انه لم يستطع طمس بقع رطوبة  
داكنة اللون انتشرت خلال الطلاء الطيني للواجهة التي انفتحت فيها  
أربع نوافذ ضيقة قياسا الى ارتفاع وامتداد الجدار . النافذة الاولى  
الى اليمين يعقبها باب خشبي موارب ، تتعاقب بعده نافذتان اثنتان،



والنافذة الرابعة تنفتح فوق النافذة الثالثة بالضبط . ان باب المنزل  
يجنح الى اليمين ، لذا فان الممر الممتد امامه يقسم الفسحة المعشبة  
الى قسمين غير متساويين ، فالذي على اليمين يكاد ان يكون مربع  
الشكل تشمخ فيه أربع أو خمس اشجار ، ويمتد منه شريط ضيق  
يحيط بالجدار الجانبي للمنزل . في ذلك الشريط ينتصب كوخ  
مهجور تداعى سقفه جانبا ، ومن الواضح بأنه كان في يوم ما حظيرة  
للماشية او ما شابه ذلك . اما القسم الذي على يسار الممر فانه يكاد  
يكون ثلاثة اضعاف القسم الاول ، وهو مستطيل الشكل يتفرع  
منه شريط واسع بعض الشيء يحيط بالجانب الايسر للمنزل .  
تنتصب في هذا القسم اشجار معمرة كثيرة تتوزع بين التوت  
والكالبتوس والعناب والزعرور وثلاث او اربع نخلات قمئية  
تكاد تختفي تحت غطاء نباتي متسلق . وهناك بضعة اشجار توت  
تنتصب عبر الشريط الممتد الى يسار المنزل . حول الفسحة المعشبة  
يرتفع سياج منخفض قوامه سيقان القصب المورقة ونباتات السيسبان  
.. وهذا السياج يحيط بالفسحة من ثلاث جهات وينفتح امام  
الممر المرصوف بالحصاء ، الذي ينحني برفق ليلتقي بحافة الطريق  
العريض القادم من الشمال باتجاه الجنوب . ان عجلات الشاحنات  
الثقيلة قد مهدت هذا الطريق فانخفض عن مستوى الارض المحدقة  
به من الجانبين .

الى يسار المنزل يتفرع من الطريق العريض طريق  
آخر يدرج باستقامة ، عبر أرض مزغبة بالعشب ، باتجاه غابات  
النخيل المتماسكة على شكل جدار رمادي يرتفع تحت قـرـص

الشمس الهابط باستمرار • امام تعامد الطريقين ، في الجهة الثانية ،  
تشمخ شجرة سدر هرمة تشابكت غصونها وأوراقها القديمة ذات  
الخضرة الداكنة مع الاوراق ذات الخضرة الشفافة والتي تفتحت مع  
قدوم هذا الربيع فبدت مثل كتلة متماسكة بإمكانها الصمود امام  
العواصف والامطار • اما الجذع الرمادي الغليظ فقد تشقق  
لحاؤه في أكثر من موضع ونفرت منه عروق احاطت بفجوات داكنة  
انتشرت على امتداد الجذع • يخيل للمرء بأنه من المحال ان توجد  
قطرة ماء واحدة خلف قشرة ذلك الجذع ! • • انه اشبه بكتلة حطب  
غليظة جفها قيظ الصيف طوال عشرات السنين ، ولكنه سرعان  
ما يفاجأ بالغصون والاوراق الخضراء في الاعلى ، فيحار ! ولا يملك  
تفسيرا معقولا عن كيفية صعود النسغ خلال ذلك الخشب القديم ! •  
الا انه سيستشف بالتأكيد عنف وضرارة ذلك الصراع المرير الذي  
خاضت غماره تلك الشجرة امام قوى الطبيعة الساحقة وعبر حقب  
طويلة ! • •

خلف الشجرة ، بموازية الطريق ، ترتفع حافتا نهر مثقلتان  
بغطاء نباتي متماسك ، من خلالهما يسمع صوت اصطفاق الماء  
المندفع عبر المجرى الضيق الرطب باتجاه الجنوب ، وكأن النهر  
يؤكد باصطفاقه المسموع على حضوره الابدي رغم ذلك الغطاء  
النباتي الذي جثم فوق حافتيه المرتفعتين بعض الشيء • بعيدا • •  
خلف النهر يدرج سهب اخضر باتجاه الشرق تلك هي حقول القمح  
وقد اكتست بخضرة يانعة سرعان ما تعتكر بالتدريج كلما اوغلت  
في البعد لتتحول الى لون بني غامق تنتصب خلفه تلال متراصفة

لطخ شعاع الشمس البرتقالي حداثتها المتعرجة التي تؤطر أفقا بنفسجيا يصعد عاليا مفتقدا باستمرار كثافة لونه الاول ليكتسي بلون رمادي غامق سرعان ما تخالطه زرقة داكنة تشفّ بانسياب عبر قبة السماء • ومن هناك ، وعبر انحدار هاديء باتجاه الغرب يتشرب اللون الازرق بلون برتقالي ينسفع على شكل هالة واسعة يذوب محيطها في زرقة السماء • ولكنّ الشمس ، التي ازداد انحدارها الان باتجاه سقف المنزل ، تظل المحور الاساسي لتلك الفوضى اللونية المدوخة •

ان ضوءا مرتعشا بدأ يخفق الان خلال مستطيل النافذة الاولى التي على يمين الباب • قد يكون ذلك الضوء المتراقص بسبب لهب نار أذكيت في موقد عامر بالجمر في جوف الغرفة المعتم • وها هو صوت ارتطام أواني وأوعية معدنية ببعضها يسمع بين لحظة وأخرى • • ومن ثم يسمع نشيش سائل دهني لا بد انه وضع على نار الموقد المختفي خلف تلك النافذة • الباب لا يزال مواربا ، والنافذة التي على يساره معتمة ، أما النافذة الثالثة التي في أقصى اليسار فانها تتألق بسبب سطوع جوف الغرفة تحت شعاع الشمس الساقط عبر الباب المفتوح على آخره • خلف الزاوية السفلية اليسرى لمستطيل النافذة الاصفر تظهر وبوضوح كتلة مستديرة قد تكون رأس انسان جالس هناك خلف النافذة • • او شيئا من هذا الثقيل • النافذة الرابعة التي في الاعلى متألفة أيضا بسبب شعاع الشمس الساقط عبر باب الغرفة العلوية المفتوح • • ولكنها سرعان ما تعتم ويسمع صوت اصطفاق الباب ، يعقبه بعد لحظات ظهور رأس تلفع



بغطاء اصفر مشدود تحت الذقن • لحظات ويبرز قوام امرأة فوق حافة سور السطح التي تصل الى مستوى كوعها • انها ترتدي ثوباً من لون غطاء رأسها نفسه يبرز امتلاء جسدها المتجه حثيثاً نحو فوهة سلم في الامكان رؤيه سقفه من خلال اشجار الحديقة • ويسع خفق قدميها على الدرجات العلوية للسلم ، ولكن ذلك الخفق يتلاشى بالتدرج في بئر السلم •

خلف مستطيل النافذة السفلية بدأت الكتلة المعتمدة بالاستدارة الى جهة اليسار حيث باب الغرفة المفتوح ، واصبح في الامكان التأكد بأن تلك الكتلة ليست سوى رأس انسان جالس أو مضطجع على شيء ما بجوار النافذة ، وبدا من الواضح بأن ذلك الشخص قد اتبه الى خفق القدمين الهابطتين عبر السلم المختفي في جوف البيت •

اقترب قرص الشمس ، الآن من حافة سور السطح التي توهجت بسطوع ذهبي وكان رذاذا ذهبيا تطاير منها نحو القرص الملهب الهابط للأسفل بقوة انجذاب متبادلة تكاد توحدهما ببعضهما بين لحظة وأخرى • وازداد توهج مستطيل النافذة السفلية، وكان رأس الرجل لا يزال محافظاً على استدارته نحو الباب وكأنه يتوقع امراً معيناً ، وسرعان ما اختفى الرأس وذلك عندما حجب شعاع الشمس الساقط عبر الباب قوام شخص آخر وقف هناك للحظات فاعتكر سطوع الغرفة • ولكن ذلك الشخص استدار داخل الغرفة الى جهة اليسار فانصب شعاع الشمس الى الداخل من جديد وبدا من الواضح بأن ذلك الشخص لم يكن سوى المرأة ذات العصاة الصفراء • • اختفت المرأة خلف حافة النافذة واستدار



الرأس الى حيث اختفت ، ومن هناك سمع هسيس عجالات أعقبه ظهور المرأة خلف مستطيل النافذة ، وكانت منحنية الى الامام وكأنها تدفع شيئا ما يصدر عنه ذلك الهسيس المتواصل ، وقفت المرأة فوق رأس الرجل ، وانحنت باتجاهه ، ومثلما يرفع الطفل ذراعيه نحو الام التي تحاول رفعه عن الارض ، رفع الرجل ذراعيه عاليا وامسك بهما كتفي المرأة التي تماسكت معه ، وسمعت قعقعة سرير حديدي كما سمع صرير خاطف لعجلات صدمها شيء ما ، وارتفع رأس الرجل أكثر فبرزت الرقبة النابتة من بين كتفين عريضتين حجبنا الضوء ، للحظات ، عن جزء واسع من مستطيل النافذة .

قارب الرأس كتفي المرأة المنحنية باتجاهه والتي لا بد أنها تبذل جهدا هائلا وهي تقوم بعملها الغامض ذاك . وتقارب الرأسان وازداد تماسك الاذرع والاكثاف وارتفع صرير السرير بصخب .. ومن ثم بدأ جسد الرجل بالهبوط واطلقت يدها كتفي المرأة بعدما أطبقتا عليهما لبعض الوقت ، وسمع الان صوت مكتوم وأنين عجالات تزعزعت تحت ثقل الجسد الهابط باتجاهها . لم يبق ظاهرا من جسم الرجل سوى رأسه ، واستقامت المرأة بقوامها وبدأت تحرك الهواء براحة يدها امام وجهها ، وكانت تتنفس بوضوح ، وصدرها يعلو ويهبط باستمرار . لحظات وأولت النافذة ظهرها حاجزة رأس الرجل أمامها ، ومع انحنائها الى الامام وتوجهها نحو الباب المشرع ارتفع هسيس العجلات ليخرج الصمت المخيم . واندفعت المرأة خلال الباب واستدارت يمينا ساحبة خلفها الباب

الذي اصطفق بصوت مكتوم وغمر الغرفة الظلام • وكانت النافذة التي بسحاذاتها لا تزال معتمة وكذلك الباب المغلق ، أما النافذة التي على اليمين فانها لا تزال تعكس توهج نار مستعرة في الداخل ، الا أن انعكاس اللهب هناك كان اقل حدة من السابق • وكان قرص الشمس قد قارب حافة السور حتى كاد يلتصق بها ، بل ان تلك الحافة بدت وكأنها تحولت الى ذوب نحاس سائل تصاعد عاليا ليتوحد ، بقوة جذب خفية ، بالقرص الملهب •

سمع صرير العجلات ، هذه المرة ، من خلف الباب الذي أشرع ، بعد لحظات ، على مصراعيه ، ووقفت المرأة ذات العصا الصفراء في المستطيل المعتم للباب • كان ثوبها الاصفر ينساب للأسفل ، بعدما يتكور بعض الشيء فوق البطن ليمس سطح الارض • عندما استدارت المرأة عائدة الى الداخل • • نفرت ، من تحت طية عصابتها ، ضفيرة وحيدة تلوت خلف ظهرها ، وهناك حيث العتمة تخيم في الداخل أمكن رؤية كتلة شيء اشبه بانسان جالس على كرسي ، وكانت المرأة قد استدارت خلف تلك الكتلة وبدأت تدفعها نحو الباب فتحركت بيسر وصدر عنها هسيس العجلات الذي سمع قبل قليل • وارتطم شيء معدني بالارض داخل الغرفة التي على اليمين أعقبه صوت امرأة من هناك ، قالت المرأة بصوت هاديء النبرات :

- أرجو ان لا تتأخرا كثيرا ! • • اسمعي لا تنسي أن تدثري جسده بغطاء ! • • اخشى أن تشتد وطأة الحمى عليه • • كيف انت الان يا حازم ؟ • • !

وأجابها صوت حازم الذي انبثق من تلك الكتلة الغاطسة في  
عتمة الرواق :

- بخير .. انني بخير يا أماه .. بل اكاد اجزم بأن الحمى  
قد بارحتني ! ..

وانطلقت ضحكة ناعمة من المرأة ذات العصا الصفراء وقالت  
بعدها ادارت رأسها باتجاه باب الغرفة :

- انه يدعي المرض يا عمتي ! .. هل تصورت حقا بأنه  
محموم ؟ .. كل ما هنالك هو انه ضجر من استمراره في الاضطجاع  
على سرير طوال الايام الثلاثة الممطرة فأدعى المرض ! ..

وبراحة يدها مسدت تكويرة بطنها ، وهتفت بلهجة مرحة  
وساخرة في الوقت نفسه •

- سيصبح أبا ولا يكفّ عن تدلله علينا ! .. سبحان الله ! ..

وجاءها صوت الام من داخل الغرفة هاتفة باستنكار ..

- لا يا جميلة .. لقد كانت جبهته تستعر نارا ! .. كان  
محموما .. انا متأكدة من ذلك !

وللمرة الثانية أطلقت جميلة ضحكتها الناعمة تلك ، هاتفة  
بللهجة الساخرة نفسها :

- لم يكن جبينه ساخنا قدر ما تتصورين ! .. بل ان يدك  
هي التي كانت باردة لحد الجمد بسبب تلك الاوحوال التي غمرتها  
فيها صباح اليوم بحثا عن الفطر !! ..

وقاطعها حازم وكان صبره قد نفذ :

- هيا يا جميلة .. اشعر وكأنّ جسدي يتآكلني شوقا لشعاع  
الشمس الذي حرمت منه طوال الايام الممطرة ..

ورفع صوته عاليا بعدما أدار رأسه نحو الغرفة :

- اطمئني يا أماء .. لقد تذررت بغطائي الصوفي السميك ..

اطمئني ! ..

وارتفع هسيس العجلات من جديد ، ومع أول رشقة ضوء  
نفذت عبر الباب ، اتضح بأنّ تلك الكتلة ليست سوى عربة بثلاث  
عجلات ، اقتعدها رجل عريض المنكبين ، تلفع حتى وسطه بغطاء  
صوفي ازرق انسدل ، عقب ركبتيه اللتين بترت ساقاهما ، للأسفل  
متأرجحا على الفراغ ! ..

ارتفعت قعقة العجلات فوق الممر المرصوف بالحصباء ،  
وبدت جميلة بانحنائها نحو العربة وكأنها تطعن الريح برأسها ، وكان  
كفلها يتأرجح مع كل خطوة تخطوها الى الامام ، بانحدار العربة  
نحو الطريق المنخفض ، واستدارتها الى اليمين ، رسمت العجلات ،  
على التراب الممهّد ، ثلاثة خطوط مقوّسة .

ان مقعد العربة يكاد يضيق بجسد حازم الذي أراح ساعديه  
على مسندين ارتفعا فوق رفرف العجلتين الجانبيتين . وكان الغطاء  
الازرق يتأرجح باستمرار مع اندفاع العربة الى الامام ، وكانت ظلال  
اشجار الفسحة ترتقي جسديهما من وقت لآخر ، والارض تنفلت  
تحت العجلات الدائرة بانسياب ، وكان اصطفاق الماء يسمع بوضوح



من خلال الغطاء النباتي المرتفع على يسارهما ..

- جميلة انظري !! لقد تفتحت براعم جديدة في اغصان  
الشجرة !!

نطق حازم بتلك الكلمات بلهجة من اكتشف أمرا خارقا يبعث  
على البهجة !! ودون أن ترفع جميلة يديها عن مسند العربة المندفعة  
الى الامام منحت شجرة السدر ، التي خالطت خضرة أوراقها القديمة  
الداكنة خضرة شفافة لاوراق تفتحت حديثا ، نظرة خاطفة وعادت  
بوجهها الى الامام وهي تتابع خطوها المصحوب بهسيس العجلات  
الثلاث ، وزادت من انحنائها نحو العربة فانقذفت ضفيرتها على  
صدرها ، وبحركة رشيقة من رأسها شمרת بها خلف ظهرها ،  
وقالت :

- انه الربيع !! انظر الى الارض المزغبة بالعشب الناعم !

وبنظرة متوحدة حدقا في اللطخات الخضراء المنتشرة على الارض  
الرطبة التي تخللها برك مياه ضحلة ، وتنصتا معا لصوت اصطفاق  
ماء النهر •

عندما اصبحت شجرة السدر على يسارهما تماما ادارت جميلة  
بالعربة يمينا حيث الطريق المتجه غربا ، فانبهرت عيونهما بالضوء  
الساطع الذي انصب على وجهيهما بعدما غادرا ظلال الاشجار  
وواجهوا الشمس المنحدرة نحو مضجعه • ومثل موجة تصفع صخرة  
على الساحل فتبللها بكاملها ، انداح الضوء البرتقالي على وجهيهما  
وألقى الظلال التي تحدد الملامح وفضح ما اعتورها من عطب : هناك

تغضن بسيط انتفخ تحت عيني جميلة الواسعتين والمنطويتين على حنان  
ودفء لا يرتسمان الا في العيون المحبة ! • • وهناك عند فتحة  
الثوب حيث الشعاع ينزلق برفق ، أمكن ملاحظة منبت ثدييها  
المرتجين تحت طية الثوب • وكان شعاع الشمس ينتشر أيضا على  
وجه حازم موضحا آثار بشور ومسامات داكنة انتشرت عبر بشرته  
السراء الحليقة ، وعلى الوجنة اليمنى ظهر بوضوح اثر جرح قديم  
امتدّ على شكل ندبة قد تكون بسبب شيء حاد كشط سطح البشرة  
ولم يتوغل عميقا • كانت الرقبة المتماسكة تندفع باعتداد من خلال  
ياقة ثوب رصاصي انسدت فوقه سترة بنية اللون ، وكان الغطاء  
الازرق يواصل تأرجحه على الفراغ •

على يمينهما ارتفع الجدار الجانبي للمنزل ، وهو جدار طيني  
مرتفع يبدو أنه جدار غرفتين متعامدتين واحدة فوق الاخرى ،  
وكان شريط معشب ، تكتفه اشجار توت ، يمتد من ارض الفسحة  
ليحيط بذلك الجدار الذي يتفرع منه سور طيني منخفض احاط  
بالفناء الخلفي للمنزل • على جانبي الطريق - بعدما تراجع المنزل  
الى الوراء - انتشرت برك مياه ضحلة توزعت خلال الارض الموحلة ،  
وكانت سطوحها المتماوجة برفق تسطع ، مثل ذوب نحاس مصهور ،  
تحت الشعاع البرتقالي • ولم يكن الطريق موحلا بل بدا رطبا بعض  
الشيء لانه كان مغطى بطبقة كثيفة من الحصباء والرمال مهدتها  
عجلات الشاحنات ووحدتها بلحمة الارض المتماسكة • الى الامام  
تراصفت كتل النخيل الرمادية التي بدءا يقتربان منها حثيثا • •  
وكان قرص الشمس يتدلى فوقها مباشرة ليمس بشعاعه الساطع قممها

المتعرجة تاركا قاعدتها المديدة لسحب الضباب والدخان ، وللمرة  
الثانية طغى صوت حازم على هسيس العجلات •

– قبل ستة اشهر ، يوم ودعتكم وتوجهت الى هناك ...

وبحركة واسعة من يده قام بايلاء مبهمة بدت وكأنها تشير  
الى شيء ابعد مما امامهما من طريق تلامع تحت ضوء الشمس وأرض  
تخللتها برك المياه وغابات نخيل ... ، واكمل :

– .. في ذلك اليوم لاحظتها ، وكانت مثقلة باوراقها القديمة  
الداكنة .. وها هي اليوم وقد تفتت براعمها الجديدة ! ..

قذفت جميلة مؤخرة الرقبة المتأرجحة مع اهتزاز العربة  
بنظرة حائرة ، وكأنها لم تدرك مقصده ، الا أن وجهها سرعان ما  
اشرق وادارت به الى الخلف متطلعة نحو شجرة السدر ، ومن ثم  
عادت بعينيها لتعققهما باتجاه الرقبة ولتتطلع فيما بعد الى حيث اشار  
بيده قبل لحظات .. بعينين تكادان تكونان مغمضتين بسبب  
الشمس أو لامر ما اعتلج في أعماقها ، تطلعت الى هناك وهتفت  
بصوت حالم :

– انها ستة اشهر تمر على ذلك اليوم الذي غادرتنا فيه ! ..  
فكيف ينسى بهذه السهولة ؟! بل كيف ينسى مثل ذلك اليوم على  
الاطلاق ؟! .. يومها تلبستني الحيرة وتساوى لدي الحزن والفرح  
.. نعم .. لقد كانت فرحتي مشوبة بحزن خفي قد يكون بسبب  
افتقادي لك . تلك كانت اول مرة تغادرنا فيها عقب زواجنا ! .. ثم  
لا تنس بأن الحرب هي الحرب ! ..



وكمن يلذ له ان يستعيد ذكريات حميمة ترسخت في ذهنه ،  
أغمض حازم عينيه وترك جسده ينساب مع ايفاع العجلات المرتجة  
ارتجاجا عذبا ، وانطلق صوته :

- عندما مرقت الشاحنة عبر هذا الطريق الذي نسير عليه  
الآن ، وكنت قد جلست في غرفة القيادة بجانب السائق ، رأيت  
المنزل يتراجع ، في المرأة الجانبية ، الى الخلف . وقبل ان يختفي  
خلف سحابة الغبار لمحتك تنفلتين مبتعدة عن أمي وحيد لتقني  
لوحذك تحت شجرة السدر ، في تلك اللحظة خطر لي بأنك أنت  
التي تبتعدين عني ! .. فشعرت بالحزن يعصر قلبي والهواء يحتبس  
في حلقي ، بل كادت عيناى تتديان بالدمع ! .. الا ان ثرثرة  
السائق انقذتني من الاسترسال في الحزن . بدأ صوته الثاقب يرن  
في جوف غرفة القيادة ليعلو على الهدير الاصم . تكلم بانفعال  
مؤكد ما يقوله بحركات متشنجة من رأسه الذي ابيض شعره  
الاكرت . كان يقذفني ، بين فينة واخرى ، بنظرة خاطفة من عينين  
احمر بياضهما ، وكانت يداه المشعرتان تديران العجلة باستمرار .  
تحدث عن الحرب المندلعة هناك ، تلك الحرب التي طال انتظارنا لها ،  
وعن الشجاعة والاقدام اللذين سيديهما المقاتل العربي لاسترداد  
أرضه التي أغتصبت بالغدر والخديعة .. وتحدث كذلك عن جيشنا  
الذي بدأ زحفه الاسطوري عبر الصحراء ليكون له شرف المساهمة  
في تلك الحرب المقدسة . وانتقل فجأة للحديث ، بحماس ، عن  
المعارك التي خاض غمارها قبل خمس وعشرين سنة ... تلك المعارك  
التي كبحت جماحها الخيانة ! .. قال بأنه قد جرح في آخر معركة



قبل اعلان الهدنة ، وأكد بفخر بأنه يعتز بأثر ذلك الجرح الذي انقطع على كتفه اليمنى ، وبعد محاولات شتى بذلها للكشف عن أثر جرحه ذلك ، كانت تتيجتها الفشل بسبب الشاحنة التي كادت تخرج عن الطريق أكثر من مرة ، طلب مني أن أتحمس ذلك الأثر من فوق طيات القماش • وعلى حين فجأة انتقل متحدثا عن حرب « حزيران » التي كانت حربا من جهة واحدة لم تسنح الفرصة الحقيقية أمام المقاتل العربي ليؤدي دوره الفعلي في معركة طال تعطشه لها • وتكلم بسخط عن ذلك الانتظار المريع الذي استمر لست سنوات كاملة ! وعن الفدائيين والعمليات البطولية التي أبقت الجبهات مشتعلة رغم صمت المدافع ! • • • واثناء توقعه عن الكلام للحظات ، بعدما ناولني سيجارة وبدأ يوقد سيجارته ، أخبرته بآتي قد استدعيت لخدمة الاحتياط وبأنني قد اتوجه مع كتيبي التي قد تتحرك بين يوم وآخر ، الى الجبهة ! • • •

عندما أخبرته بذلك كاد ينسى بأنه يقود شاحنة ثقيلة محملة باطنان من الحجارة ! • • • فقد تجمدت يداه على عجلة القيادة وأدار وجهه الداكن السمرة والمخدد بتجاعيد متشابكة انتشرت عبر ملامحه الحادة التي بدت ، تحت لمة شعره الابيض ، وكأنها صخرة قديمة كللها الجليد ، أدار وجهه باتجاهي وحدّق في عيني مليا ، كان وكأنه يرى معجزة خارقة تتحقق أمامه ! • • • وكانت نظرفته تلك مزيجا من الحب والتفديس والحزن ، ولو لا ارتجاج الشاحنة ، بعد انحرافها عن الطريق الممهد ، لتطلع في وجهي لفترة أطول ! • • • عاد بوجهه الى الامام متطلعا ، عن كذب ، الى الطريق المندفع باتجاهنا ،

ولم يستدر نحوي ولو لمرة واحدة وكفّ عن ثرثرته نهائياً • ولكن وجهه كشف عن حزن عميق ، وبدأ وكأنه يخوض غمار صراع رهيب كاد يتفجر عبر حركاته المتشنجة التي بدت بوضوح من خلال قبضتيه اللتين تمسكتا بعجلة القيادة بعنف حتى انسحب الدم عنهما ونفرت عروقهما الزرقاء • وكان قد أطبق بقدمه على البنزين على آخره ، فاندفعت الشاحنة بسرعة كبيرة وقد انصب هديرها الصاخب في سمعي بعنف ، وبدأ وجهه وكأنه وجه تمثال صب على وضعيته الثابتة تلك ، وكانت شفتاه تختلجان بين لحظة وأخرى وسيجارته تنتقل عبر زاويتيها والدخان ينساب من منخريه بكثافة • في المدينة الممتدة هناك خلف غابات النخيل وقبل أن أهبط من الشاحنة ، مدّ لي يدا مشعرة ، وصافحني بقوة متطلعا في عينيّ بنظرة أبوية ، وقال لي بصوت جاهد على أن يجعله يبدو طبيعياً : « كن محارباً جيداً يا بني •• ولكن عد لنا سالماً ! •• » وعندما أطبقت الباب خلفي مدّ لي رأسه وقال : « أرجو أن تعذروني لما بدر مني من انفعال قد يكون بالنسبة لك بدون مبرر ! •• » وعقف عينيّ نحو الأرض وأكمل : « كان ابني مع الفدائيين ! •• واستشهد في إحدى المعارك في الأرض المحتلة ! •• » وسحب وجهه إلى الداخل وبدأ المحرك يهدر بصخب ، وقبل أن تندفع الشاحنة سمعته يقول بصوت متهدج دون أن يستدير باتجاهي : « لست حزينا يا بني ! •• » ولكنه •• كان ابني الوحيد ! •• » وفي طريقي إلى الجبهة - وكنت قد توليت قيادة شاحنة محملة بالجنود لاصل بها أرض المعركة والتحق بزملائي جنود المشاة فيما بعد - بقي وجهه الاسمر الذي

اعتلته لمة شعر بيضاء ، مرتسما أمام عيني لفترة طويلة . كان وجها يتسم بطيبة قد تبدو في عيون البعض ضربا من السذاجة . ولم ادر لِمَ ذكّرني ذلك الوجه بوجه مدرس « العلوم » الذي كان يدرسنا في آخر سنوات دراستي المتوسطة ، تلك السنة التي تركت بعدها المدرسة نهائياً وانقطعت عن الذهاب الى المدينة ، لعدم وجود مدرسة أعلى من المرحلة التي اجتزتها ، وتفرغت للعمل مع ابي في الحقل ، كان ذلك المدرس نسخة ثانية من ذلك السائق ، بل انه كاد يشبهه في ملامح الوجه وبياض الشعر لولا تلك النظارة الطبية المستقرة دائما على منبت انفه المحمر ، وكان بعض الطلاب الخبثاء يستغلون طيبة قلبه : فقد طلب منا في احدى المرات ، ان نحضر ضفدعة ميتة لكي يشرحها أثناء الدرس . وقدّم له احد الطلاب كيسا ورقيا قال بأن الضفدعة في داخله . وما كاد يمد يده حتى قفزت الضفدعة وارتطمت بوجهه فأغرق الطلاب في عاصفة من الضحك !.. لقد جعلتني تلك الوداعة المرتسمة في وجه ذلك السائق أن أتخيل مدى عزلة هؤلاء الرجال المجهولين الذين قصرت لديهم المسافة الفاصلة بين الفرح والحزن حتى كادت تصبح بحجم ابتسامة ترتسم على شفاههم في لحظة سعادة مفاجئة ، أو بحجم دمعة يذرفونها في لحظة ضعف لا بد منها طالما بقيت ذكريات الاحباء الذين مضوا ماثلة في أذهانهم !.. كان وجها يصعب على المرء نسيانه .. ولشدة استغراقي في التفكير به نهني العريف الذي كان يجلس بجانبني في غرفة القيادة ، أكثر من مرة ، بأن أكون حذرا لان ذلك الطريق الممتد باتجاه الغرب كان يغص بالشاحنات وناقلات الدبابات وعربات الاسعاف ..

وعقف حازم عينيه نحو الارض المندفعة تحت عجلتي العربة  
الجانبيتين ، قاذفا الفراغ الذي كان الغطاء الازرق يتأرجح فوقه ،  
بنظرة ذاهلة .

رفعت جميلة وجهها عاليا وشمرت ضفيريها الوحيدة ، التي  
انزلت الى الامام ، خلف ظهرها بحركتها القديمة التي طالما أحبها  
حازم . كان شعاع الشمس يلامس بشرتها برقة .. فبدا مثل قناع  
برتقالي رقيق شفّ فوق ملامح الوجه ، تطلعت نحو اشجار النخيل  
التي انفتحت بين جذوعها فجوات داكنة ، بعدما اقتربا منها بعض  
الشيء ، ان تلك الفجوات قد تكون فوهات ممرات تخترق كتلتها  
المتماسكة لتؤدي نحو الادغال الكثيفة ، وقالت بصوت حالم انساب  
مع أنين عجلات العربة :

- بعدما ابتلعت سحابة الغبار الشاحنة ، بقيت واقفة تحت  
شجرة السدر لفترة طويلة ، حتى انني لم اعد المح أيما سحابة غبار  
على امتداد الطريق . عندها فقط صحت على ضجيج العصفير  
المتخاصمة بين اغصان الشجرة ، وعلى الارض الرطبة ، قرب الجذع  
الرمادي الغليظ ، رأيت بعض الاوراق الصفراء المتساقطة ، ولم أدر  
لِمَ تذكرت ذلك الصيف البعيد يوم أحرقنا الدغل استعدادا لبناء  
المنزل ! .. بل انني طوفت حول جذع الشجرة باحثا عن ذلك الموقد  
الذي طبخنا غذاءنا عليه ! .. ولكنني لم أجد أيما أثر له ، الا انني  
كنت أراه ! .. بعيني القديمتين كنت أراه هناك خلف الجذع ، بل  
كدت اشعر بوجنتي تلامس خدك ونحن ننفخ معا النار الخامدة  
تحت القدر .. وكما حدث في ذلك اليوم البعيد ، شعرت برعشة



عذبة هزّت جسدي !.. هل كنت أحلم ؟ لا أستطيع أن أجزم  
بذلك !.. فكل ما أتذكره هو أنني اتجهت نحو النهر وأنا ذاهلة  
أمشي كالسائر في نومه ! وهناك ، قرب المخاضة التي سبحنا فيها  
في ذلك الصيف البعيد ، ارتككت جالسة على الحافة المعشبة للنهر ،  
وعلى جانبيّ وخلف ظهري كانت سيقان القصب والحلفاء وشجيرات  
الصفصاف تطلق ، كلما هبت الريح ، صفيراً فاجعاً ملأني بالحزن ،  
ولكن الماء كان يجري في الأسفل والسماء الساطعة تومض خلال  
طيات التيار المدوّم عبر حافتي المجرى الرطب • تحت قدميّ اللتين  
غمرتاهما في الماء كانت دوامات صغيرة تنبثق باستمرار مجتذبة لهوتها  
الدائرة تتف القش والثمار الجافة والحشائش الطافية ، وأحسست  
وكأنني انجذبت نحو النهر ، فلم أستطع منع نفسي من الانحدار نحو  
الماء • ومثلما كنت في الماضي صبية شقية لا يكاد يخطر في ذهنها  
أمر ما إلا ونفذته على الفور ، شعرت بهاجس طفولي دفع بي أن أدع  
الحذر جانبا •• وهكذا رفعت ثوبي عاليا وخضت في اللجة الخضراء  
•• ووصل الماء فوق ركبتيّ وكان بارداً لدرجة قفّ لها الرغبة  
الناعمة المنتشر على ساقيّ !.. وهناك في الأسفل حيث الماء يجري  
سريعاً نحو الجنوب ، رأيت انعكاس فخذيّ الغليظين فوق سطح  
الماء المترجرج •• كانا يقتربان حثيثاً من بعضهما كلما صعدا عالياً  
لينتهي بعنمة غامضة فشلت مرآة النهر في كشف سرّها !.. في  
تلك اللحظة وجدّتي أهتف في سرّي :

« عسى خصب الامومة ان يضيء عنمة هذا الجسد المحكوم

بالانتظار !.. »

وكان الماء يجري باستمرار فيدا وكان فخذي ارتجفا  
بصورة غامضة وكأنّ تلك العتمة بدأت تمور ببذرة الخصب !!  
ولم يعد الانتظار ممكناً ، وأصبح الحذر مجرد خرافة مضحكة !!  
شعرت وكأنني توحدت بكلّ ما حولي فلو أن ارتعاش غصن  
صنصاف أمام الريح بدا أمراً معيياً ، لأصبح عريي ، في تلك اللحظة ،  
عارا !! وهكذا وبضربة واحدة قذفت بثوبي من فوق رأسي ، فتعلق  
بغصن شجرة على جانب النهر ، وبدأ يتأرجح مثل جثة مشنوق !!  
وفي الأسفل شعرت وكأن النهر انبهر امام ذلك البياض الساطع الذي  
اقتحمه على حين غرة !! وكان التيار الجارف يسحبني باستمرار ،  
فمنحته نفسي .. واحسست بصدمة المفاجأة لحظة ارتطام لحمي  
الساخن ببرودة الماء !! ولكنني وبعدها منحته بعض دفئي ومنحني  
ارتعاشته الغامضة لم اعد اشعر بالبرد ، بل انني بدأت احس بالهواء  
باردا كلما مسّ جزءا انفلت من جسدي خارج أسر الماء .. فكنت  
أغطس باستمرار وأدع النهر ليتوحد بي بتماسك صميم شعرت ،  
من خلاله ، وكأنك احتضنتني بين ذراعيك !!

سحبت جميلة احدى يديها عن المسند الخلفي للعربة ، وحطت  
بها على بطنها ، وكمن يتحسس شيئاً رقيقاً قابلاً للعطب بسرعة ،  
تلمست براحة يدها المفردة تكويرة بطنها ، ومن ثم عادت بها نحو  
مسند العربة المتجهة نحو الشمس التي انحدرت كثيراً حتى كادت  
تمس بشعاعها أسفل ذقنيهما . وقالت بالنبرة الحاملة نفسها .

— هل تعلم يا حازم بأنه بدأ يتحرك في أحشائي؟! مساء

البارحة لم يدعني انام لساعة متأخرة!.. هل .. تصورت وأنت هناك بأنك ستصبح أبا؟!..

واشرقت بسمة مرتبكة . ومن تحت ذقنها ، حيث الارض تميد تحت العجلات الثلاث والجسد يختضّ برفق ، جاءها صوته :

- هناك؟!.. تلك كلمة مبهمة لا تستطيع ان تحمل ذرة واحدة من عظمة ما كان يجري « هناك »!..

وأغمض عينيه للحظات ، ليفتحهما فيما بعد ببطء وحذر وكأنه يخشى على تلك الرؤى التي أرسمت فيهما أن تضيع .. واكمل :

- .. لم تكن المسألة ان افكر بك أو بأنتي سأصبح أبا!.. لا .. لم اكن افكر بك وفي الوقت نفسه كنت افكر بك !! لقد توحدت كل الاشياء الحبيبة على قلبي ببعضها عبر ذلك الطريق الصحراوي المغبر والممتد غربا!.. كان منظرا اسطوريا يكاد المرء يتصور بأن ما يراه يحدث في الحلم وما هي سوى هنية ويستيقظ من نومه ليتلاشى كل شيء!.. ولكنّ ما حدث ذلك اليوم كان الحقيقة التي تجسدت من خلال جئير الشاحنات والدبابات والناقلات والمصفحات وهدير طائرات الحماية!.. ما حدث كان الحقيقة التي تبدت بأروع صورها فيما بذله الجنود من جهود هائلة لاجل عبور حاجز المستحيل وقطع تلك الكيلومترات الالف في بحر يوم واحد!.. كانت الناقلات الضخمة تجار على الرمال وقد ارتكنت



فوق ظهورها دبابات كانت فوهات مدافعها تسطع تحت ضوء الشمس  
.. لم يكن عدد الناقلات كافيا مما اضطر القادة للايعاز لبعض الفرق  
المدرعة لتسيير دباباتها على السرفة ! كانت الشاحنات المحملة  
بالجنود تمرق بخفة تحت سحب الغبار ، وكان الجنود معتمرين  
خوذاتهم وهم في كامل سلاحهم وعلى أتم الاستعداد ، وكأنهم منذ  
الآن قد دخلوا أرض المعركة ، بل بدا صراعهم مع العدو بأروع  
صوره في اصرارهم على قطع تلك المسافة الطويلة دون توقف  
للحظة واحدة لاجل الراحة !! .. على جانبي الطريق كانت سيارات  
الضباط الخفيفة تمرق وهوائيات اجهزة الاتصال تهتز فوقها ..  
وكانت الطائرات العمودية الخاصة باصلاح ما يحدث من عطب في  
الناقلات ، تدرج فوق رؤوسنا ، وطائرات الحماية بهياكلها الضيقة  
تنخطف تحت ضوء الشمس مفجرة ذلك الخلاء المغبر بهديرها .  
كنا نتقدم باصرار غريب لا يعتوره الخور لاجل قطع تلك المسافة  
الفاصلة بين فوهة بنادقنا وأرض المعركة ! .. كنا مثل قطار اسطوري  
هائل ، مقدمته ولجت أرض المعركة ونهايته تواصل امتدادها عبر  
أرض الوطن ! .. وكان الغبار قد تكاثف بشكل لا يصدق حتى أن  
الرؤية امتنعت لابتعد من امتار معدودة مما اضطرنا الى اشعال  
مصاييح الشاحنات المظلية باللون الازرق ... وكان قد تسرب  
داخل غرفة قيادة شاحنتي المحملة بالجنود رغم أن زجاج النافذتين  
كان مرفوعا ، وكان الغبار يسف باستمرار على زجاج الواجهة  
الامامية ، فيهمي للأسفل .. وكنت أحس بذرات الغبار الدقيقة  
تسرب داخل منخري وفي تتحدر مع دفقات دخان السيجارة



التي ناولني أياها العريف الجالس بقربي • لكنني ، ورغم كل شيء ، كنت أشعر وكأنني توحدت بعجلة القيادة المستسلمة ليديّ اللتين تندتا بالعرق •• كان قطارنا الاسطوري المصنح بالحديد والنار والرجال يتقدم غربا باعشا في الخلاء الرملي رنينا ، شعرت به يهزّ جذر الارض وكأن الصحراء القديمة استفاقت على قعقعة سنايك الجياد وعلى صليل سيوف فرسان العرب القدماء !••

ومن خلال أنين العجلات المتواصل ارتفع لهاث جميلة ، وكانت خصلات من شعرها قد التصقت بجبينها الذي تندى بالعرق •• فطلب حازم منها أن تتوقف وأن لا تسير بالعربة أكثر من ذلك • خيم الصمت عليهما ، الا أن صدى العجلات ترجع في سمعيهما لبعض الوقت وتناهت اليهما أصوات متناثرة ترددت عبر حقول القمح البعيدة وغابات النخيل ، وكانت تلك الاصوات تتوزع بين كلمات مبهمّة تصدر من رجال منهمكين في العمل بين الحقول وفي جوف البساتين ، وصراخ أمهات ينادين أطفالهن ، وصهيل افراس اتنفخت بطونها بالعشب الذي ازدردته ، وخوار أبقار شمت رائحة عجولها الطليقة في الاجمات القرية • وعلى غير انتظار انطلق من بعيد صوت شجيّ صدح بأغنية ألغى البعد كلماتها ، ولكنه لم يستطع الغاء ايقاعها العذب الذي بدا وكأنه يتماوج بانسياب على امتداد الارض الفسيحة • كانت الاغنية تعلو وتهبط مثل طائر أزرق غريب انطلق خلال اشجار غابة • كان المغني يقول في أغنيته أشياء كثيرة لا تحتاج الى كلمات تفسرها قدر حاجتها الى ايقاع ينجرها !•• ها هي الاغنية تجيئهما من الحقول ومن التلال وبساتين

النخيل ومن كل مكان .. انها تطوف عبر زوايا الارض الاربع ،  
فوق حقول القمح وفي جوف الاكواخ الطينية وعبر تقوس جريد  
النخل الاخضر . وكانا ينتصتان اليها باستغراق غريب بدا وكأنه  
جسدهما على وضعهما الثابت ذاك : جميلة بثوبها الاصفر وبغطاء  
رأسها الذي من اللون نفسه ، والتي بدت مثل ضربة ريشة متقنة ،  
لولاها لظهرت تلك اللوحة بأرضيتها البنية التي خالطتها لطحات  
خضراء وزرقاء ، والمحاصرة من الامام بجدار النخيل المديد الذي  
انفتح على جانبيهما مثل جناحين كاد يطبق عليهما طائر خرافي رأسه  
قرص الشمس الملتهب ومخالبه جذوع النخيل النابعة من الارض  
الظليلة ، لولا جميلة لبدت تلك اللوحة ناقصة لا ترتاح لها العين .  
وكان حازم قد جمد على كرسيه كذلك ، مفردا ظهره بهيأة من  
ينتصت باستغراق ، وكان قد عقف بوجهه الى الجهة التي انطلقت  
منها الاغنية لتنطفيء فيما بعد ، ولكنها كانت قد خلفت وراءها  
صداها الخفي الذي جعل الاشياء تبدو بطريقة تختلف عما كانت  
عليه قبل انطلاقها . ها هي جميلة تحاول ان تأتي بعمل ما تسأله  
به فجوة الصمت التي تركتها الاغنية وراءها : فتدفع يديها عاليا  
لتشغل بشدة عصابتها الصفراء بصورة أفضل ، وكان حازم ،  
وبعد انطفاء الاغنية بلحظات ، لا يزال محافظا على هيأة التنصت التي  
اتخذها أثناء انطلاق الاغنية وكأنه يترقب أن تنطلق من جديد ، أو  
انه ينتصت ، بكامل جسده ، الى صداها الخفي . ولكنه سرعان ما  
اتكأ بظهره الى المسند الخلفي وأراح يديه على امتداد فخذه ، ومن  
ثم سحب احدهما وأسند مرفقها الى جانب العربة محتضنا ذقنه

براحتها • وباستدارة حادة ، صرّت مفاصل العربة من تحته بسببها ، استطاع أن ينظر الى الخلف حيث ظلّهما المتوحدان بظل العربة امتدّ وراءهما لمسافة لا بأس بها ، وكان الطريق يتلامع بعض الشيء عبر الارض الرطبة المحدّقة به من الجانبين ، وكان يضيق باستمرار كلما اوغل بعيدا ليختفي بصورة مبهمّة قرب البيت الذي ارتفع من فناءه الخلفي عمود دخان اشهب تلوى عاليا • وبدأت شجرة السدر قميمة تكاد تلتصق بالارض ، والى الخلف ارتفعت حافة النهر على شكل جدار نباتي واطيء امتدّت فوقه سماء تخثرت زرقتها العميقة • هتف حازم بصوت كاد يحتبس في حنجرته بسبب التواء عنقه الى الخلف :

- لقد أذكت أُمّي النار في التنور ! ••

عقب استدارة ناعمة الى الخلف تطلعت جميلة خلالها نحو عمود الدخان ، عادت بوجهها الى الامام واستغرقت للحظات في تفكير خاطف أنهته بقولها :

- لا أدري لِمَ يذكرني كل ما أراه أمامي بيوم رحيلك ؟!

وبعد لحظة صمت طارئة بدت وكأنها استعادت خلالها ذكريات معينة ، قالت :

- بعد مبارحتي للنهر شعرت بقشعريرة اختض لها جسدي • بدأت أرتعش وأرتعش وأسنانني تصطك في فمي دون ان استطيع السيطرة على نفسي ، أجبرتني عمّتي على الاضطجاع ودثرتني بأغطية ثقيلة كادت تكتم أنفاسي ، زالت القشعريرة ليحل محلها صداد



فطيع كاد يفلق رأسي • في ذلك اليوم اضطرت عتي الى اذكاء  
النار بنفسها في التنور لكي تخبز العجين • ولكنني لم أستطع  
الاستمرار في الاضطجاع ، فتركت الفراش وامسكت بالمكنسة كي  
أنظف الفناء الخلفي • كانت امك قد شمرت عن ذراعيها وأدخلت  
طرف فوطتها في فتحة ثوبها وقد وقفت امام فوهة التنور الملهب ،  
وسرعان ما لاحظتني فاخطف المكنسة من يدي وصرخت فيّ :  
« كيف تكنسين البيت وحازم لا يزال يواصل سفره الى الجبهة ؟! »  
لا يا ابنتي •• لا •• انّ ذلك لفأل سيء ••!! »

أشرق وجه حازم بابتسامة عريضة عقلت خديه عاليا  
فبرز أثر الجرح المندمل بوضوح ، وقال :

- فآل سيء ••!! ستظلّ أُمّي تؤمن بمثل هذه الافكار الغريبة!  
ليتها رأت بأم عينيها ما جرى يومذاك لتتأكد بأن أي « فآل سيء »  
لم يكن باستطاعته منعنا من الاسراع لنجدة الاشقاء والمساهمة في  
شرف القتال لتحرير أرضنا العربية ••!

وبعد دقيقة صمت واصل كلامه :

- عندما أختلي بنفسي واستعيد ، في ذهني ، زحفنا الاسطوري  
يومذاك ، لا أستطيع ألا ان اشبهه بدم جديد سرى عبر عروق  
الصحراء واندفع الى موضع الجرح القديم الملهب ، الجرح الذي  
نزّ صديدا طوال خمسة وعشرين عاما !•••

أغمضت جميلة عينيها المواجهتين لقرص الشمس الذي لم



يبق بينه وبين الحافة العليا لكتل النخيل المتراسة ، سوى قدر ذراع واحدة ، وهمست بصوت خافت :

- الدم !.. الدم !.. عندما أواجه الشمس بعينين مغمضتين أرى العتمة حمراء تحت جفني !.. انه الدم الذي أكاد اشعر به يقطر عبر عروقي ساعة أضع رأسي على الوسادة عقب انتهائي من انجاز اعمال البيت !.. أتساءل مع نفسي : لِمَ يكون الدم في كل شيء حي ؟!.. بعد أيام من رحيلك ذهبنا الى الحقل الذي آتمت حراثته لكي نبذره .. وعندما جنحت الشمس عن سمت الرأس اتسنا بذاره ، فأطلق حميد الماء نحوه ، وكانت أمك قد غفت تحت احدى الاشجار ، وانا تسللت الى الاجمة التي كانت الشاهد الوحيد على ما فعلناه في تلك الظهيرة التشرينية عندما حملت لك خبر اندلاع القتال . هناك ، في البقعة نفسها وجدت العشب الذي انسحق تحت جسدنا يومذاك ، قد استقام وتماسك من جديد !.. ولكنني شعرت وكأن خضرته الداكنة قد تشربت بالدم الذي نزع من جسدي ، وللمرة الثانية وجدتني أهتف في سري وانا اضع يدي خلال نسيجه المتماسك : « عسى خصب الامومة أن يضيء عتمة هذا الجسد المحكوم بالانتظار !.. »

كانت الشمس تهبط باستمرار ، وظل النخيل الكثيف يقترب منهما حثيثا وهما واقفان في منتصف الطريق . وكانت السماء المنتصبة خلف جدار النخيل الداكن تسطع بلون برتقالي محمر بدا وكأنه جرح احتقن الدم فيه فانفجر بشكل مروع ولطخ برشاشه الراعف كل ما يحيط به :

- عندما بدأنا هجومنا الكاسح كانت الشمس قد استوت  
قرصا برتقاليا متوهجا على الافق الغربي • وحسب خطة قائد  
مجموعتنا بدأنا الهجوم من جهة الغرب مستغلين الغطاء الذي  
وفرته لنا الشمس المنصبة بشعاعها في عيون العدو • كان ذلك في  
اليوم الثالث من حصارنا لتلك التلال المتراففة والتي أمرتنا قيادتنا  
بتطهيرها من عناصر العدو والاستيلاء أو تفجير مرادهم المحصنة  
على القمم •

في اليوم الاول اندفعنا لاقتحام تلك التلال ولكننا  
فوجئنا بمقاومة عنيفة وفرتها لهم مواقعهم المحصنة على السفوح  
والقمم ، وليس هذا فحسب بل كانوا على اتصال دائم بقيادتهم التي  
سارعت بنجدتهم فأقحمت الطيران على شكل موجات متتالية  
اصلتنا بنيرانها ولكن الوهاد والاخايد والجيوب الصخرية احتضنتنا  
وحمت ابناءها القادمين لنجدتها •

قد تكون تلك التلال التي نرانا دماءنا  
لاجل تحريرها ، مجرد تلال صخرية ، لكن لو تطلب  
تحرير كل شبر منها شهيدا لما ترددنا ، لسبب بسيط هو : انها  
أرضنا نحن ، أرضنا التي شهدت امجادنا كما شهدت هزائنا ،  
ولكنها بقيت أرضنا ! •• على ثراها ترددت قعقة سنايك خيول  
« خالد بن الوليد » في معركة « اليرموك » وعليها ركز فرسان  
« صلاح الدين الايوبي » راياتهم بعدما حرروها من « الصليبيين » ،  
وبين أذرعها الصخرية القاسية تربص الفدائيون العرب والفلسطينيون  
بالعدو ، وقدموا ارواحهم مهرا لعرسها الدموي ! ••

وصمت حازم لبعض الوقت ، وكاد قرص الشمس الان يمس  
جريد النخيل فانصب شعاعه في عينيه البنيتين مباشرة • الى جانبه  
وقفت جميلة مسندة يدها على كتفه ، وعيناها ان اللتان تقلص  
بؤبؤهما امام الشعاع الساطع ، تتطلعان الى الفجوات الداكنة  
المتوغلة في كثافة الاشجار المتماسكة • انها تتطلع الى هناك ولكن  
قبضة يدها المستندة على كتفه تنتفض من وقت لآخر وكأنها تحثه  
على الاستمرار في حديثه الذي قد لا تكون هذه المرة هي الاولى  
التي تسمعه منه ! • • وارتفع صوت حازم من جديد :

- في أول يوم من وصولنا الجبهة ، وكانت الظهيرة في ذروتها ،  
تم تجميعنا في تشكيل قتالي مزود بمختلف انواع الاسلحة للزحف  
باتجاه سلسلة تلال حدد موقعها على خارطة احتفظ بها قائد مجموعتنا  
كانت مهمتنا الاساسية هي تحرير تلك التلال ، الا أن الوصول اليها  
لم يكن بالامر الهين ، فقد تشابكت خطوط القتال بيننا وبينهم ،  
وكان لابد لنا من اختراق أرض ملتهبة للوصول الى هناك • كان  
هدير المدافع الاصم ودوي انفجار القنابل وانطلاق الصواريخ  
والقذائف المضادة للدروع والطائرات ، يسمع بوضوح • وكانت  
الطائرات العربية تمرق ، على فترات متفاوتة ، فوق رؤوسنا باتجاه  
الجنوب والغرب مجتازة حاجز الصوت • ركبنا مدرعات حملتنا  
لمسافة لا بأس بها ، ولكن الاخاديد والوهاد سرعان ما تشابكت  
واعترضت خط سيرنا والقتال قد احتدم من حولنا بعنف وضراوة  
حتى أن القذائف كانت تمرق صافرة فوق رؤوسنا ، فاضطررنا الى  
ترك المدرعات والتقدم راجلين • أمرنا القائد ، وكان فتى في حدود

الثلاثين من عمره رسمت على كل كتف من بدلة القتال التي لبسها  
ثلاث نجوم باللون الاصفر ، أمرنا بالانتشار بشكل مרוحي ،  
فانصعنا لأمره ، كل جندي منا كان بكامل سلاحه بدءاً من رشاشته  
وذخيرته وقنبلتين يدويتين معلقتين بحزامه ، وانتهاء بزمزمة الماء  
وما شابهها من مسائل ضرورية أخرى . وكان جنود آخرون  
يحملون مدافع مضادة للدروع وصواريخ مضادة للجو وصناديق  
الذخيرة والمؤن . اصطدمنا ثلاث أو أربع مرات بجيوب معادية  
انتشرت في تلك الوهاد ولكننا استطعنا القضاء عليها بيسر . وكان  
الدوي الاصم والهدير الهائل ولعلعة الرشاشات تتصاعد باستمرار  
والدخان قد انعقد فوق الرؤوس ، وكانت أسراب الطائرات  
المعادية تمرق على ارتفاع منخفض أو على ارتفاع سحيق لتفادي  
شبكات الرصد والرادار ، الا ان الصواريخ كانت بانتظارها لتتطلق  
باتجاهها وخط دخان يتلوى خلفها ، وسرعان ما تنفجر الطائفة  
وتتحول الى كتلة نار تنتشر في كل مكان . وكانت طائرات أخرى  
تلقي بحمولتها بعيداً حالما يبصر طياروها خطوط الدخان الرهيبة  
تلك . وكانت طائرات أخرى تفاجأ بتشكيلات عربية فتحتدم ، في  
السماء الملفعة بالدخان ، معارك رهيبة تتقاذف خلالها الطائرات في  
كل اتجاه وكأنها اسماك فولاذية تتصارع في مياه مزبدة . وكنا نحن  
نواصل تقدمنا في اتجاه القطاع الاوسط حيث التلال التي كنا معها  
على موعد . وعندما جنحت الشمس غرباً ، اشرفنا على وهاد  
عميقة انتصبت بمحاذاتها تلال مرتفعة بعض الشيء ، وهنا كان  
القصف المتبادل على أشده ، والدبابات والمدرعات المعطوبة مبعثرة



في كل اتجاه • وكان القصف الجوي مخيفا وكان السماء فتحت  
أبواب الجحيم على آخرها •• كل طرف كان يحاول ، جهد امكانه ،  
الحاق اكبر ضرر ممكن بالطرف الآخر قبل غروب الشمس • عندما  
اقتربنا من هدفنا اوعز لنا القائد بالتوقف لبعض الوقت ، فانتشرنا  
عبر الاخاديد الصخرية العميقة • كانت الدبابات العربية ترى ،  
على يسارنا ، بوضوح وكانت تدبّ في كل اتجاه نافثة من فوهات  
مدافعها النيران ، توغلنا تحت سحب الغبار والدخان وعند حافة  
وهدة عميقة توقفنا ، وكان هدفنا امامنا مباشرة ، وهو عبارة عن  
مجموعة تلال لا تبعد عن بعضها كثيرا ، توسطتها قمة مرتفعة اشرفت  
على بقية القمم النابعة من قاعدة واسعة واحدة تلفت بضباب الغروب  
الرمادي ، وبدأت أخاديد عميقة وحزوز ضحلة تشابكت عبر سفوحها  
الصخرية الجهمة ، وكانت السفوح المواجهة للشمس تسطع بحدة  
تحت الوهج البرتقالي • كان منظرها العام يوحي بالاطمئنان  
وبسهولة اقتحامها في أي وقت تشاء ، ولكن نظرة واحدة من  
خلال المنظار كشفت لآعيننا تلك الجيوب الصخرية التي اختيرت  
كمرايض حصينة للدبابات وبطاريات المدفعية البعيدة المدى المنتشرة  
خلال السفوح المحدبة برفق نحو القمم • بدا من الواضح ، من  
خلال الاعداد الضخمة للدبابات والمدافع ، ان تلك التلال تمثل  
منطقة استراتيجية للعدو ، فقد كانت قممها تشرف على مساحات  
شاسعة من الاراضي المستعرة بنيران القصف المدوي في كل اتجاه ،  
وكان اختيار تلك القمم المنيعة لنصب المراصد وشبكات الرادار  
أفضل اختيار ، وبالمقابل كان اختيارنا لطريقة تحريرها أفضل اختيار

أيضا !.. كنا على ثقة من اننا سنجابه بقوة لا يستهان بها ، ولكن الشيء الأكيد هو ان اصرارنا على تحريرها كان أمرا مفروغا منه .

بنظرة واحدة ادركنا استحالة التقدم باتجاه تلك التلال دون مساعدة الدروع ، لم يكن اسهل من ان يصلبوا نيران مدافعهم ودباباتهم ورشاشاتهم لو اننا انحدرنا باتجاههم ليفنونا على آخرنا ! وهكذا اتصل قائد مجموعتنا باللواء المدرع الذي يسارنا طالبا منهم اقحام بعض الدبابات في المعركة . وقبل وصول تلك الدبابات مهدنا لها الطريق بقصف مركز جوبه بقصف مماثل من جانبهم ، فتلفع كل ما حولنا بالغبار والدخان ، واستحالت الرؤية لأبعد من خطوات معدودة ، وعلى يميننا كادت الشمس تغطس خلف الافق الغربي . كان جناحنا الغربي مكشوبا لبطارية مدفعية أصلتنا نيرانها بسبب استواء الارض من تلك الجهة ، حاولنا اسكات تلك البطارية ، ولكن عبثا فقد كانت محصنة في مريض صخري حصين . وتحت سحب الدخان والغبار تقدمت دباباتنا ورمت بكل ثقلها في المعركة فبدأت الصخور تهتز من حولنا لشدة القصف . كان تقدم دباباتنا باتجاه تلك التلال أمرا بالغ الخطورة لانها كانت ستكشف لنيرانهم في الوقت الذي تظل دباباتهم بمنجى من الخطر بسبب مراتبها التي كانت على ابعاد متفاوتة من السفوح المواجهة لنا ، وهكذا اضطرت دباباتنا الى المناورة لغرض سحب العدو الى أرض يمكن الاشتباك عليها ، الا انهم لم ينزلقوا لذلك الفخ ، اما لانهم أدركوا السر ، او بسبب جبنهم من الترحيح عن مراتب حصينة تضمن لهم دفاعا جيدا . استمر احتدام المعركة عبر حواف الوهاد

والاخاديد الصخرية الفاصلة ما بيننا ، واعطبوا بعض دباباتنا ،  
كما أصبح من الواضح بأننا اعطينا عددا لا بأس به من دباباتهم  
واسكتنا بطاريات مدفعية لهم ، وبذلك نكون قد فتحنا ثغرة في  
تحصيناتهم المتماسكة ، وكان من الضروري استثمار تلك الثغرة  
بعد هبوط الليل الوشيك وهذا ما حدث بالفعل !!

عندما خيم الظلام خفت حدة المعارك بعض الشيء • الا انه  
كان يسمع ، من وقت لآخر ، هدير متقطع مصحوب بومضات  
خاطفة تسطع في جوف الليل تعقبها صلية رشاش تنطلق على حين  
غرة ، من ثم تدمدم قذائف مضادة للدروع • وكان هدير الانليات  
المكتوم يترجع باستمرار عبر الاثير المضمخ برائحة البارود والدخان  
والصخور تهتز من تحتنا كلما انفجرت قنبلة أو هدر مدفع ، لقد  
بدأت عمليات التسلل لاقتحام المرازب التي لم يسمح سطوع  
ضوء النهار بالاقتراب منها قبل أقل من ساعتين • كان المدفع الذي  
أصلى جناحنا الايمن بنيرانه هو بغيتنا ، فطلب القائد أن يتطوع  
اربعة أو خمسة جنود للقيام بتلك المهمة المحفوفة بالمخاطر ، وتطوع  
عشرات الجنود ، الا انه اختار خمسة مقاتلين كنت أنا بضمنهم ،  
بعدما تزودنا بالعتاد وباعداد مضاعفة من القنابل اليدوية ، وتأكدها  
من سلامة رشاشاتنا ، ودعنا رفاقنا وشد قائد المجموعة على اكفنا  
متمنيا لنا النجاح في اداء المهمة والعودة سالمين • زحفنا عبر  
الاخاديد الصخرية متجنبين الارض العراء خشية أن نكشف بسبب  
قنابل الاضاءة التي كانوا يطلقونها من وقت لآخر • بعد ساعة  
تمكننا من اجتياز ثغرة في تحصيناتهم ، وعلى ضوء قنابل الاضاءة



لمحت دبابتين هائلتين أعطبتهما قذائفنا وكان درع أحدهما قد التوى بشكل غريب ومدفعها المديد نكس فوهته نحو الارض ، اما الدبابة الثانية فقد لمحت الثقب الذي خلفته القذيفة في درعها ، وكان ذلك الثقب يتوسط النجمة السداسية التي ما رأيتهما الا وتذكرت صور الدبابات « النازية » التي رسمت على دروعها الصلبان المعقوفة !! • واصلنا زحفنا بحذر أكثر لاننا كنا قد اصبحنا داخل تحصينات العدو واصبح من المحتمل ان تفاجئهم بين لحظة وأخرى او يفاجئونا هم !! • كان الظلام يسطع بحدة كلما انفجرت قبلة اضاءة فكنا نلتصق بالارض حتى نكاد نتوحد بها ونحسّ بوجيب الدم المندفع في اجسادنا • وأخيرا سمعنا همسهم الخافت فاصبح لكل شبر نقطعه حسابه الخاص خشية ان نصطدم بجنود استطلاع يحيطون بتلك البطارية اللعينة • انقسمنا الى مجموعتين : واحدة للاقتحام والثانية للاسناد ، وكنت أنا وجندي آخر نؤلف مجموعة الاسناد • وقبل أن نفرق تقدمنا بضعة امتار أخرى فأصبح من الواضح ان همسهم يجيئنا من الامام على بعد لا يتجاوز العشرين مترا • انحرف جنود الاقتحام الثلاثة مع انحدار سفح التل لياغتوهم من الجهة الثانية ، وتلبثت مع رفيقي خلف صخرة • كان سفح التل يدرج على يساري للأعلى ، وعلى ضوء القنابل المتفجرة في الجهة الثانية ، كانت قمة التل تنفصل للحظات عن جسد الليل المتماسك فتبدو مثل صخرة هائلة على وشك الانحدار للأسفل • مرّت دقائق متوترة كنت اشعر خلالها وكأنّ الصخر الذي تدفأ تحت جسدي بدأ يتجاوب مع دفق دمي • فجأة



انطلقت صلية رشاش !! اذن اصطدموا بهم !! وعلى ضوء  
 طلقاتهم استطعنا تحديد موقعهم فالتفتضت رشاشتي بين يدي  
 ولعلع رصاصها بصوت اصم ... لا بدّ أن صلية رشاشتي قد  
 اربكتهم فقد تشتت طلقاتهم في شتى الاتجاهات بعدما فوجئوا  
 بتعدد مصادر النيران .. بقفزة واحدة اجتزنا عدة امتار وتخفينا  
 خلف صخرة . ومع صليات متعاقبة ، سخن بسببها حديد رشاشتي  
 كنا قد اقتربنا كثيرا من مصادر نيرانهم ، وبدا من الواضح اننا قد  
 صفينا بعض عناصرهم . حدث كل ذلك مريعا ، وقبل أن تستعر  
 التلال بدوي المدافع ، كان رفاقنا الثلاثة قد اقتحموا المربض  
 وسمعنا دويّ قنابلهم وهم ينسفونه ، وفي اللحظة نفسها انتهت الى  
 صفيح قنبلة تشقّ الفضاء باتجاهنا من اليمين - لا بدّ أنهم لمحونا على  
 ومض القنابل المتفجرة - وقبل أن يتسنى لي الوقت للارتقاء على  
 الارض ، انخطفت عيناى على ضوء القنبلة التي انفجرت خلف  
 صخرة لا تبعد عنا سوى مسافة قصيرة ، ومع الدوي الاصم شعرت  
 بشيء حاد يلسع وجهي ، وفي الوقت نفسه فوجئت برفيقي الذي  
 كان على يميني ينقذف باتجاهي ليسقطني معه على الارض .

تحت صليات الرشاشات المنطلقة باتجاهنا من جميع الجهات  
 تجمعنا نحن الاربعة حول جثة رفيقنا الخامس ، ورغم كثافة  
 النيران استطعنا التسلل نحو مواقع كتيبتنا حاملين معنا مقاتلنا  
 الشهيد !

كان قرص الشمس قد اختفى منذ فترة فتوحدت كتل النخيل  
 السوداء بالارض الرمادية ، واستطال ظل المساء ليغمرهما بغلalte

الداكنة وكأن ذلك الطائر الخرافي ، الذي رأسه الشمس وجناحاه  
غابات النخيل ، قد اطبق عليهما بعدما دس برأسه الملتهب تحت  
طية ريشه الاسود واضطجع غافيا • وكان امتداد الافق الغربي  
لا يزال يسطع بلون ذهبي خالطته زرقة صدئة كزرقة الفولاذ  
القديم •

جنحت جميلة بالعربة جانبا واستدارت بها نحو الشرق بعدما  
أولت ظهرها لجدار النخيل الاسود ، وكأن غروب الشمس كان  
ايذانا لهما بالعودة الى المنزل • ارتفع هسيس العجلات من جديد،  
ومع تنفس الريح في وجهيهما فاحت بقوة رائحة العشب النامي  
والمياه العطنة والطين • ومن بعيد سمع رنين اجراس القطعان  
العائدة الى قراها • كانت الارض تمحي أمامهما بغموض ، الا انه  
كان من الممكن ملاحظة التماع الطريق المنساب الى الامام ليضيق  
باستمرار ويختفي قريبا من المنزل الذي افتقد حدة تماسكه •  
بدت شجرة السدر اشبه بكتلة سوداء التصقت بالارض ، خلفها  
ارتفعت حافة النهر الداكنة ، وعاليا كانت سماء رمادية معتمة تقترب  
حيثا من الارض وكأنها معها على موعد تقرر بعد غروب الشمس •  
من الجنوب ارتفع هدير مكتوم بدأ يتصاعد باستمرار ، قد يكون  
هدير شاحنة تدرج على الطريق الرئيس المتجه شمالا • وكان ذلك  
الهدير يخفت في بعض المرات وكأنما اعترضت سبيله تلال ومنعطفات  
الا انه سرعان ما يتصاعد من جديد ، وتحت الوهج الخافت لضوء  
الغسق المحتضر ارتفعت سحابة غبار تدرج تحتها شاحنة كانت  
تقرب حيثا من المنزل ، وها هي أخيرا تمرق خلف شجرة السدر

البعيدة لتختفي أمام المنزل ، وخفّ هدير محركها بعض الشيء  
وكأنها توقفت هناك ، ولكن سرعان ما ارتفع هدير الشاحنة من  
جديد ، ومن الطرف الآخر للمنزل ظهرت سحابة الغبار والشاحنة  
التي تلتقتها تموجات التلال الشمالية فاخفت هناك ، ولكن  
هديرها المكتوم ترجع تحت السماء الداكنة لبعض الوقت ليزوب  
بالتدريج ويخيّم سكون مطيق بجرحه هسيس عجلات العربة  
باستمرار •

بدت السماء وكأنها ازدادت تجهما وهي تواصل هبوطها نحو  
الارض الداكنة ، وافتقدت الاشياء المحيطة بهما حدة تماسكها  
بعدما القى المساء عليها غلالته الزرقاء ، وكانت جميلة تنتر رأسها  
بين لحظة وأخرى لتقذف بصفيرتها المتمردة خلف ظهرها وهي  
تواصل تقدمها اثر العربة • وانطلق صوتها قائلة :

- كنا نتابع اخباركم ! •• أنا وعمتي كنا نتابع اخباركم من  
المذيع ولاول مرة أصبحت نشرة الاخبار من احب الفقرات الى  
قلبنا ! •• عندما كنا نسمع عن تحركات جيشنا هناك وعن رسالة  
الجنود وهم يخوضون غمار المعارك الطاحنة ، كنت اشعر بالزغب  
المنتشر أسفل اذني يقف بفخر ! •• كنت أغمض عيني وأتخيل تقدم  
هؤلاء المقاتلين تحت قصف المدافع والصواريخ ليقترحموا أوكار  
العدو الغاصب ••• الا انه كان لهؤلاء المقاتلين وجه واحد هو  
وجهك انت !! •• في احد الايام جاءنا حميد بحزمة اوراق غليظة،  
قال انها صحف ومجلات تتحدث عن أخبار الجبهة وعن بطولات  
مقاتلينا ! •• ويدين مرتعتين تلتقتها منه ، ولاول مرة في حياتي

فشلت في حل عقدة الخيط ، فقطعته باسناني ونشرت تلك الصحف  
والمجلات امامي على الارض ، متمعة ، بلهفة لا توصف ، في الكلمات  
السوداء الدقيقة المنتشرة على صفحاتها ، ولكنها لم تشف غليلي  
لان المامي بحروف الهجاء ، كما تعلم ، لا يتعدى قراءة ستة أو  
سبعة حروف على شرط أن نكتب بخط عريض وكل حرف يكون  
بحجم اصبع البامياء !! فكيف بي بمثل تلك الكلمات التي كانت  
اشبه بنمال دقيقة ازدحمت على حفنة قمح ؟! ولكنني سرعان  
ما اكتشفت بأن بعض الصفحات تضم صوراً أشبعت فضولي !!  
لا تستطيع أن تتصور يا حازم كم حدقنا ، انا وعمتي ، بتلك  
الصور !! كنت أتمعن فيها باستغراق غريب فأرى فوهات المدافع  
وسحب الدخان المنتشرة فوقها ، والدبابات الضخمة والغبار المنقطع  
بكثافة من تحتها ، والطائرات الصغيرة بهياكلها الضيقة وهي  
تسطع في سماء ملفعة بالدخان ، كنت أراها وكأنها تتحرك أمام  
عيني المجهدتين من شدة التحديق ، وكان كل جندي أراه في  
تلك الصور يشبهك بشكل غريب !! لقد احتفظت بتلك الصحف  
والمجلات وتلك هي على المنضدة في غرفتك الى الان !!

كانت عتمة المساء قد وحدتهما بالعربة على هيئة كتلة داكنة  
تدرج الى الامام ، ولم يعد في المستطاع ملاحظة ما يطرأ على  
ملامحهما من انفعالات ، بعدما لقعهما الظلام بستاره . وكان  
الهسيس الجارح للعجلات يتصاعد بايقاع غريب ، كأنه صوت  
انحدار السماء نحو الارض ، ويزداد وضوحاً باضطراب . وكانت  
أصوات متناثرة تنطلق من وقت لآخر مبددة سكون المساء



المطبق مثلما تترجرج مياه ساكنة لسبب ما • ها هو صوت جناحي طائر يسمع وهو يسفّ عاليا ليلحق بسرّبه الذي سبقه ، انه ينطلق بانسياب دون ان يعتور خفق جناحيه اضطراب ما وكأنه على ثقة من انه لن يفقد أثر سرّبه !•• وكان يسمع نباح كلاب وصهيل بعيد يتماوج في جوف الغسق المغلف بالغموض ، وصرير جنادب يرتفع من الحقول البعيدة برتابة تكاد توحد ذلك الصرير بلحمة الصمت • الى الشرق افتر ثغر السماء الجهمّة . أخيرا ، على وميض نجمتين أو ثلاث بدأت تنبض باستحياء وانبهار وكأنها تشعر بالخجل لكونها قد سبقت موعد بزوغها بعض الشيء !•• وكادت كتلة البيت تذوب في العتمة التي تكاثفت حولها لولا ضوء خافت شعّ في الفناء الخلفي أمكن عن طريقه تحديد موقعها • وعاد صوت حازم مواصلا حديثه من جديد :

– ما رأيته في تلك الصحف ، يا جميلة ، كان مجرد صور حنطتها عدسات الكاميرا !•• أما ما كان يجري هناك فكان شيئا اخر بالتأكيد !••

وبعد فترة صمت قصيرة ، لابد أنه قد استعاد خلالها بعض ما جرى هناك ، قال :

– لو حاولت الان أن اتذكر اسماء الجنود الذين شاركتم في اقتحام تلك التلال لما استطعت !•• لم تكن الاسماء تهمنا قدر اهتمامنا بالهدف الذي جئنا لنحارب من أجله !•• كنا مجموعة مقاتلين جاءوا من أقصى الجنوب والشمال والشرق ، والغرب ،

هذا ما كنا نعرفه !.. وكان هدفنا الرئيس التحرير او الاستشهاد ،  
وهذا ما كنا نعرفه أيضا !.. اما ما عدا ذلك فلم يكن مهما !..  
كنا نقاتل لنهي القتال الذي فرض علينا من قبل الاعداء طوال  
خمس وعشرين عاما ، فلم يتسن لنا الوقت اللازم لتعرف على  
أسماء بعضنا البعض !.. كنا على عجلة من أمرنا : كل دقيقة  
تمرّ تعني اشيء عديدة .. قد تعني تحرير جزء عزيز من التراب  
المضخخ بدماء الآباء والذي قد تسيل عليه دماء الابناء لاستكمال  
الشوط والتحرير الكامل غير المنقوص !..

في « حزيران » كان لنا الوقت الكافي لتعرف على اسمائنا  
جيدا ولنحدد في أعين بعضنا البعض لنرى أيننا الاسرع بغض  
الطرف ، وأيننا الاصلب عودا ليستطيع التحديق في أعين الاصدقاء  
والاعداء !.. أما في « تشرين » فقد اخترلنا كل اعمارنا وما تجرعنا  
خلالها من عذابات وما شهدنا خلالها من افراح كنا نحلم بها في  
الماضي ، اخترلنا أعمارنا في لحظات مكثفة .. سلسلة لحظات  
متعاقبة وغياب لحظة واحدة قد تعني ثغرة في تلك السلسلة . لم  
يكن بين الحياة والموت سوى لحظة واحدة ادركنا بأنه يستحسن  
بنا التمسك بها بحكمة !..

وعقب لحظة قصيرة أكمل :

- بعد نجاحنا في اسكات تلك البطارية اللعينة التي كلفتنا  
شهيدا غاليا ورجوعنا لكتيبتنا لاحظ رفاقي ، على وجنتي اليمنى ،  
جرحا طويلا تخثر الدم عليه ، عندها فقط تذكرت ذلك الالم الذي

لسع وجهي ساعة انفجار القنبلة ، ولكنه ، على كل حال ، لم يكن جرحا عميقا فقامت بتضميده بنفسي . وبعدما هدا القصف العشوائي بعض الشيء واريننا شهيدنا التراب . حفرنا قبره على ذروة راية تطلّ على أرض المعارك ، وكان الهدير البعيد للمدافع ولعلعة الرشاشات المتقطعة والتماعات الاضواء المشعة في جوف الليل المتماusk . كانت تلك الاصوات أروع نشيد جنازي واريناه على ايقاعه المهيّب .

أصبح من الواضح بأننا قد فتحنا ، على يميننا ، ثغرة واسعة في تحصينات العدو ، كان من الممكن استغلالها والنفوذ منها في الليلة نفسها قبل اكتشاف أمرها على ضوء النهار ، وهذا ما حدث فعلا : فقد انتظرنا لبعض الوقت ومن ثم بدأنا زحفنا فوق الاديهم الصخري البارد ساحبين معنا مدافعنا المضادة للطائرات والدروع ، ورشاشاتنا التي كان حديدتها لا يزال دافئا بسبب الاطلاق المستمر قبل ساعة . كان القائد في المقدمة يحسب لكل خطوة يخطوها الف حساب ، وكنا نحن خلفه نستجيب لحركاته تلقائيا وكأنا اعضاء جسد واحد تتحرك حسبما يشير الرأس . مع الاطلالة الرمادية لغبش اليوم الثاني ، كنا قد انتشرنا عبر السفوح المحدبة للتلال ، فتداخلت ما بيننا خطوط التماس ، وبذا نكون قد افقدناهم ميزة تفوّق مواقعهم الحصينة علينا ، فاضطررناهم لقتالنا وجها لوجه ! . بل وفي أحيان كثيرة القتال بالسلاح الابيض بعدما أصبحت أكثر دباباتهم تحت رحمة قذائفنا المضادة للدروع ! . ومع أول صلية رشاش ، استقبلنا بها يومنا

الثاني لدخولنا المعركة ، استمر كل ما حولنا بالنار والدخان ،  
ورجعت التلال الملفعة بالضباب أصداء الانفجارات المتعاقبة ،  
واعتكرت زرقة السماء البكر من فوقنا •

تم لنا اسكات بعض مواقعهم وأعطبنا عدة  
دبابات لهم ، كما انهم كبدونا بعض الخسائر في  
الارواح والمعدات • من جهة الشرق ، ومن خلال سحب الدخان  
والغبار والضباب ، ارتفع قرص الشمس ، والتمع حديد اسلحتنا  
تحت ومض شعاعها الساطع ، وتلك كانت أول شمس تفاجئنا ،  
لحظة شروقها ، ونحن في خضم المعركة المحتدمة بعنف رهيب •  
في الظهيرة كنا قد استولينا على أغلب التلال وتوزعنا عبر الوهاد  
والاخاديد الصخرية لغرض تصفية الجيوب الباقية واقتناص  
الدبابات المتحصنة في مرايض منيعة •

كنت أنا وأربعة جنود آخرين قد تحصنا في  
اخدود صخري تتحدر الارض أمامه لتنتهي بقاع  
وهدة واسعة ، ومن هناك ترتفع الارض ثانية لتتطوي  
على نفسها مثل موجة هائلة تجمدت بطريقة ما ، وهناك ، خلف  
النشر الصخري ، كنا نلمح فوهات مدافع ثلاث دبابات ارتكنت  
خلف الحافة الصخرية • كان معنا مدفع مضاد للدروع وبعض  
قذائف ، أطلقنا قسما منها على تلك الدبابات فأشعرناهم بأنه  
لا بد لهم من التحرك باتجاهنا - لانه لم يكن يوجد طريق سالك  
آخر بين تلك الكتل الصخرية المتراسة في كل اتجاه - أو البقاء في  
مريضهم ذاك منتظرين النهاية الحتمية • وكما توقعنا ، تحرك مدفع



احدى الدبابات وصعد عاليا وبرزت مقدمة الدبابة المتجهة نحو  
سماء الظهيرة المفلعة بسحب الدخان ، وقبل أن يتسنى لها الوقت  
لتعقف بمدفعها نحو الاسفل منحدره للقاع ولتصعد فيما بعد  
باتجاهنا ، كانت احدى قذائفنا قد شقت طريقها عبر المدرع  
الحديدي فارتجت الدبابة على نفسها وكأنها أخذت على حين غرة  
ولكنها سرعان ما انزلت نحو مريضها ، ومع سماعنا لصوت  
انفجارها وارتفاع عمود دخان من هناك ، فوجئنا بالدبابتين  
الأخريين وقد انحدرتا نحو قاع الوهدة متجهتين نحونا مباشرة  
.. شعرنا بالارض الصخرية تهتز من تحتنا وكأنها تنذرنا بالخطر  
الوشيك !.. نجحنا في اقتناص دبابة ثانية خمدت في مكانها ولم  
تنفجر .. وكانت الدبابة الثالثة قد فلتت من قذائفنا وبدأت تهدر  
بغضب مسعور وهي تتقدم حثيثا نحو موقعنا وتطلق بقذائفها  
الطائشة فوق رؤوسنا .. كان لابد لنا من ايقافها بأي ثمن !..  
الا اتنا صعقنا عندما اكتشفنا بأنه لم يبق لدينا سوى قذيفتين  
اثنتين !.. وأصبح التسديد بدقة أمرا متعذرا لانه لم يكن أسهل  
على تلك الدبابة من أن تنصيدنا واحدا واحدا لو اتنا اطللنا  
برؤوسنا فوق الحافة الصخرية ، فاضطررنا الى الحرص على تينك  
القذيفتين ، وكانّ تلك الدبابة اللعينة أحست بحراجة موقعنا ،  
فجارت بصوت زاعق واندفعت نحونا بسرعة مضاعفة !.. جازفنا  
بالقذيفة الاولى واطلقناها!.. ولكن .. يا للهول !.. لقد أصابتها  
القذيفة الا انها لم توقفها .. فبعد ارتجاج فجائي استأنفت الدبابة  
تقدمها للأعلى !.. وبنظرات سريعة تبادلناها بيننا بصمت ، بدا

وكأننا قد اتفقنا عن طريقها على خطة واحدة ارتست في أذهاننا  
سوية انسحبنا نحو قاع الاخدود الذي بدأ يرتج بوضوح تحت  
ثقل الدبابة الصاعدة وبسبب القذائف المتفجرة في كل مكان !!  
وبسبب الانفعال الذي ارجف صوته ، توقف حازم عن  
مواصلة حديثه لبعض الوقت ، وارتفع هسيس العجلات الذي ،  
رغم استمراره ، بدا وكأنه كان قد تراجع بعيدا أثناء حديثه . لم  
يبق الان من تركة النهار الراحل سوى مسحة ضوء شاحب لاتزال  
تمس الاشياء المحيطة بهما على استحياء لتمنحها كتلا رجراجة  
افتقدت تماسكها القديم الذي أضفاه عليها سطوع ضوء النهار .  
وبدا الوميض المشعّ في الفناء الخلفي يسطع بوضوح . وكانت  
بقية شعاع عكر لا تزال تنوس عبر الطريق الموغل في امتداده الى  
الأمام :

- من القاع الذي التصقنا به تطلعنا نحو سماء بعيدة تجرحت  
على حواف الصخور الحادة المحيطة بنا . وهناك فوق الحافة الفاصلة  
بين صلابة الصخر وانسياب السماء ، هناك برز المدفع أول ما برز  
من الدبابة . كانت الفوهة المطوقة بالحديد توميء للأعلى ،  
وكانت تتقدم باستمرار . . . وبرز الجنزير ، وحومت على الفراغ  
الاحشاء السفلية السوداء للدبابة . . لحظات وكانت فوهة المدفع  
ستحدر باتجاهنا مكتسحة اجسادنا الهشة تحت صلابة فولاذها  
الثقل !! في تلك اللحظة المتوترة التي تجمعت فيها اعمارنا نحن  
الخسة . .

في تلك اللحظة التي يتوقف فيها الذهن ، ولا يبقى سوى  
الحس ليتحكم بمقاييد الجسد .. في تلك اللحظة ارتعنا على  
صوت انطلاق قذيفتنا الاخيرة ! .. واستقرت حيث أردنا لها أن  
تستقر ! .. ارتج هيكل الوحش الحديدي .. للحظة واحدة  
يدت الدبابة وكأنها بهتت وهي معلقة هناك فوق رؤوسنا ..  
وفجأة استسلمت ، بعدما توقف محركها ، لانحدار السطح وبدأت  
تراجع ليختفي جزيرها اولا ومن ثم مدفعها المديد ! .. وبقوة دفع  
خفية استوينا واقفين وتطلعنا من فوق الحافة الصخرية . كانت  
الدبابة تتراجع بمؤخرتها للأسفل .. وكان انحدارها يزداد سرعة  
باضطراد .. وكنا نلمح نارا استعرت في بنزينها .. وهناك حيث  
استقرت في قاع الوهدة انفجرت ذخيرتها بدوي هائل .. واستحالت  
الدبابة بكاملها الى كتلة نار ملتهبة كنا نسع منها أصوات  
انفجارات متعاقبة لاسلحة طاقمها الذي حوصر في الداخل ..  
عندها فقط انتهت الى المسحوق الأبيض للصخر الذي تهشم تحت  
ثقل الدبابة ! ..

عندما كادت الشمس تغيب نجحنا في احتلال  
جميع التلال وطهرناها من الجيوب المتبقية وتركزت مدفعيتنا في  
تلك المرازض الحصينة التي كادت مغطاة بشبكات الترميز ، وكانت  
على اتصال لاسلكي مباشر ببقية مواقعهم المنتشرة لمسافة بعيدة ..  
لم يبق امامنا سوى احتلال قمة التل الرئيس ، وقبل غروب الشمس  
استطعنا احتلال سفوحه السفلية من جميع الجهات ، وبذا عزلنا  
القمة عن خطوط امداداتها ..



كانت تلك القمة الحصينة تناطح السماء الزرقاء  
بكبرياء زادت من لهفتنا لاحتلالها .. الا ان تقدمنا  
للاعلى أصبح بطيئا ، وفي بعض المرات أصبح أشبه بالمستحيل ،  
فقد كانت تلك القمة تشكل نقطة أساسية لرصد العدو لقواتنا  
لكونها تشرف على مساحات شاسعة من الارض العربية التي كانت  
المعارك محتدمة عليها يومذاك .. ولاهيتها القصوى حصنها  
العدو بصورة جيدة ، وزوّد افرادها المتمركزين عليها بأنواع  
مختلفة من الاسلحة . مع قدوم الليل سقط العديد منا بين قتيل  
وجريح ، ولكننا بالمقابل اسكتنا بطاريات مدفعية كانت منتشرة  
حول السفح المحدث ! .. وجرت معارك بالاسلح الابيض وتلامع  
شعاع الشمس الغاربة على السناكي المخضبة بالدم ! .. في صباح  
اليوم الثالث ، وبعد معارك ضارية لم نستطع خلالها التقدم  
كثيرا للاعلى ، اقحم العدو بطيرانه في المعركة . يبدو انهم استجدوا  
بالطيران بعدما أصبح تحرير تلك القمة أمرا لا مناص منه بعدما  
تمّ عزلها من جميع الجهات . كانت اسراب الطائرات تتقدم على شكل  
موجات متتالية .. الا أن أكثرها كانت تلقي بحمولتها كيفما اتفق  
بسبب مدافعنا المضادة للجو والتي صالبا نيرانها وصواريخها في  
شتى الاتجاهات فأحالت السماء الى امتداد اخر لجحيم الارض .  
كنت أسمع ، في البداية ، هدير الطائرات قبل أن تنقض نحو  
الصخور .. ومن ثم كانت هياكلها المعدنية الضيقة تسطع بحدة  
تحت ضوء الشمس ، ومن تحت حافة خوذتي كنت أراها وكأنها  
ستهوي من حلق باتجاه عيني مباشرة ! .. ولكنها سرعان ما كانت



تشرق فوق رؤوسنا بسرعة خاطفة ليرجع صدى هديرها الاصم بين الصخور ، وليعقبها صوت انفجار قنابلها .. وفي بعض المرات كانت احدى قذائفنا او صواريخنا تصيب طائرة .. فكانت ترتج وتجنح جانبا وكأنها شدت الى الخلف بواسطة خيط خفي كبس قوة اندفاعها الى الامام ، ومن ثم كانت تهوي نحو الارض يتبعها خيط دخان ابيض ، لتسقط خلف التلال البعيدة وتنفجر هناك فتنصاعد كتلة دخان رمادية ! .. وكانت طائرات اخرى تنفجر في الجو عقب جنوحها مباشرة ، فكنا ندرك بأن الاصابة كانت قريبة من ذخيرتها او وقودها ! .. وكانت تلك الطائرة تتحول الى كتلة نار ملتهبة تتوزع في شتى الاتجاهات ! .. وكانت الطائرات التي تلقي بحمولتها تنسحب نحو الجنوب والغرب لتعقبها طائرات اخرى في الظهور ! ..

كاد اصرارنا في التقدم للاعلى أن يصبح أمرا مستحيلا ، فطلب منا قائد مجموعتنا بالتحصن خلف الصخور في انتظار الوقت المناسب لتطبيق خطته الحاسمة . كانت تلك الخطة تقتضي باستغلال جنوح الشمس غربا للقيام بهجوم كاسح . وشرح باختصار ، ولكن بدقة ، تفاصيل الخطة وذكر الاسباب التي حدثت به لاختيار ذلك الوقت بالذات ! ..

مع انحدار الشمس غربا ، وكما كان مقررا ، تم تقسيمنا الى مجموعتين : واحدة للاقتحام والهجوم والاخرى للاسناد وانا كنت ضمن المجموعة الاولى . توزعت مجموعة الاسناد حول السفوح المحدقة بالقمة ، وتحت غطاء النيران الذي وفرته لنا تلك

المجموعة تسللنا نحن الى جهة الغرب لنبدأ بالهجوم من هناك  
حيث الشمس الغاربة ستوفر لنا الغطاء المناسب بسبب انصباب  
أشعتها مباشرة في عيون عناصر العدو فلا يستطيعون تحديد  
أهدافهم بدقة ، كما أن الطائرات ستخفف من قصفها بعض الشيء  
حيث السفوح تكون قد تلفعت بالظل والدخان .. وكذلك لم  
ننس دور مجموعة الاسناد التي ستربك العدو وتغطي تحركنا  
من جهة الغرب .. في بداية هجومنا تمكنا من التقدم ، وبعد  
كاد الطريق يصبح مفتوحا امامنا تحولت مجموعة الاسناد الى  
مجموعة اقتحام والتحقت بنا ، وبدأنا زحفنا البطيء نحو القمة  
التي بدأنا تقترب منها حيث .. كانت تشعخع فوق رؤوسنا ،  
ولكن ليس بكبرياء كما في يومنا الاول ، بل باعتزاز من كان  
يؤمن بأن احبائه لابد آتون ! لم يبق بيننا سوى مسافة قصيرة  
قد تكلفنا بعض الشهداء والجرحى ، ولكننا كنا مصرين على  
اجتياحها بأي ثمن ! .. لقد أصبحت على بعد ذراع منا ، تكاد  
تخف لتتلقفنا بين أذرعها الصخرية التي حاول العدو عبثا أن  
يصفدها بالفولاذ والبارود والرجال ! .. ولكن السماء المملعة  
بالدخان بدأت تدمدم بغموض ! .. انها دمدمة اعرفها ! .. نعم  
.. وكما تصورت .. سطعت هياكل الطائرات تحت شعاع الشمس  
القتيلة المزرجة بدم الاحتضار ! .. كنا مكشوفين تحت الطيران  
بعدها تركنا مرائبنا الصخرية ، ما حتم علينا ان تندفع نحو القمة  
لاحتلالها والتحصن بها بأسرع ما يمكن ! .. واهتزت الصخور  
تحت وقع الانفجارات البرتقالية المتعاقبة ، وتصاعدت أعمدة

الدخان الرمادية نحو سماء ، بدت في عينيّ ، بنفسجية اللون بشكل لا يصدق ! ولكننا كنا نقرب من القمة ، بل أن بعضنا كان قد ولج الحصون المنيعة ، ومن هناك تنهى لسعي صوت انفجارات القنابل اليدوية التي قذف بها في أعشاش المدافع الرشاشة . وانا كنت أندفع مع الآخرين عبر الصخور وتحت دخان القذائف المنفجرة في كل اتجاه ، كنت أندفع لاعتلى صهوة ذلك التل الذي اغتسل بدمائنا بدءا من قاعدته وحتى قمته وكأنه ولد من جديد بعد مخاض دموي عسير ! ..

في تلك اللحظة الحاسمة سمعت بالصفير الفاجع يمرق فوق رأسي ! .. هل كان ذلك الصفير بسبب قذيفة مدفع ؟! أم طائرة ؟! .. ام انه كان صفير الموت الذي لم يكن قد بقي بيني وبينه أبعد ما بين العينين ؟! .. لست أعلم ! .. ولكن كل الذي اتذكره هو ذلك الصفير الذي أحس به الى الان وهو يتردد في سمعي ! .. ومع صوت الانفجار المخيف شعرت بنفسني أرتفع بقوة دفع خارقة للأعلى ، ورأيت التلال والصخور والسماء البنفسجية تتقاذف امام عينيّ في شتى الاتجاهات ! .. الا انني ارتطمت بالارض .. وفكرت مع نفسي : هل هو الموت ؟! .. لا .. أبدا ! .. اكتشفت بذهول بأنني لم أمت ! .. ورغم حالة الذهول التي تلبستني شعرت بجسدي يحاول أن يتقدم للأعلى باتجاه القمة التي أصبحت على مرمى ذراع مني ! .. الا انني فوجئت بجسدي لا يطاوعني وكأنه شد الى الارض بطريقة ما ! .. وعندما لويت برقبتي متطلعا نحو جسدي المنبطح

على الارض صعقت لتلك الهيئة الغريبة التي وجدت ساقي عليها !!  
كانت ساقي داخل فردي بنطلوني الخاكي ملتويتين بطريقة  
فظيعة وكأنما سحب من داخلهما العظم فالتوتا كيفما اتفق !!  
وكان البنطلون وحتى مستوى الركبتين قد تشرّب بالدم ، واللحم  
ونثار العظم المتهشم قد اختلط بنسيج القماش الممزق !! وحذائي  
التوى بصورة غريبة فأصبح كعبه الى الامام !! عندها فقط  
اكتشفت بأن ساقي قد تهشمتا تماما !! فشعرت بألم صاعق  
تصاعد مع دفق دمي ليضرب بأسفينة الرهيب في عمق قلبي ...  
وبدأت الاشياء من حولي تفتقد تماسكها وتذوب وكأنني أراها  
في حلم !! وكان دمي ينزف باستمرار .. الا أن ذلك الهدف  
الذي ترسخ في ذهني استنهض في جسدي آخر ذرة قوة لم تنضب  
بعد ودفع بي نحو القمة !! ولكنني كنت ملتصقا بالسفح  
الصخري المخضب بدمي .. وعاليا .. حيث القمة التي أصبحت  
على مرمى ذراع مني .. رأيت ، قبل أن أفقد وعيي ، العلم الحبيب  
يرفرف بشموخ !! اذن سبقني رفاقي ؟!! وأنا انظر الى ذلك  
العلم الذي تماوج بانسياب مع هبوب الريح المضخخة برائحة  
الدخان والبارود .. العلم الذي ارتفع أخيرا تحت سماء بنفسجية  
بدت وكأنني أراها بعيني « مصطفى غريب » !! الا انها لم تكن  
نائية هذه المرة بل بدت قريبة لدرجة كادت ان تنصبّ في عيني !  
وأنا انظر الى العلم شعرت بنفسني أغوص في هوّة بلا قرار !!

كان الليل قد تماسك من حولهما بكثافة ، ولولا ضوء  
المصباح المشع في الفناء الخلفي للمنزل الذي اصبح على بعد أمتار



معدودة منهما ، ولولا عناقيد النجوم المتألثة في الظلام البهيم ، لما  
أمكن ملاحظة أيما شيء على الاطلاق !! أصبح الجدار الجانبي  
للمنزل على يسارهما الآن وغاب المصباح خلفه ، وسمع خفيف  
أوراق الاشجار التي جاست ريح هادئة هبت من الشمال ، خلال  
العصون السوداء المتشابكة • وعاد صوت حازم ليطنغي على أنين  
عجلات العربة الصغيرة :

- جميلة ، يخطر في ذهني كلما نظرت الى هذا الفراغ الذي  
يتأرجح فوقه الغطاء ، بأنّ ساقيّ لم تبترا عبثا !! نعم • • عندما  
أشعر بأنك لست وحدك التي تدفعين العربة الى الأمام ، بل أنّ  
جنينك الذي تلبس جسداً ومد ذراعيه الصغيرتين عبر ذراعيك ،  
وقدميه عبر قدميك وبدأ يدفع معك • • عندما اشعر بذلك أرى أنّ  
ساقي لم تبترا عبثا !! نعم • • ان هذا الجنين الذي تلبس جسداً  
سيكمل الشوط الذي قطعناه نحن • • فهناك قسم أخرى تحتاج  
لاكثر من ساقين بالتأكيد !!

الى الامام انتصبت شجرة السدر ، وكان الظلام قد أضفى  
عليها المهابة والوقار !! خلفها أمكن ملاحظة حافة النهر بصعوبة ،  
الا أنّ صوت اصطفاق المياه المدومة في مجراه الرطب كان يسمع  
بوضوح ، وكأنّ النهر يؤكد بذلك حضوره الابديّ • جنحت  
جميلة بالعربة يسارا وولجا الطريق الرئيس فهبت في وجهيهما ريح  
هادئة ابتردت بعض الشيء ، ومن خلال اشجار الفسحة المستدة  
على يسارهما أمكن رؤية ومضات ضوء مترججة تبعثرت عبر  
العصون المتشابكة • وبعدها سارت العربة بمحاذاة سياج القصب

والسيبان ، استدارت ، للمرة الثانية الى اليسار وارتقت أرض  
الممر المرصوف بالحصاء •

أمامهما تجمعت ومضات الضوء المبعثرة على  
هيئة مستطيلين نافذتين سطعتا بحدة • وكان مستطيل الباب  
المفتوح بين المسافة الفاصلة بين تينك النافذتين ، مضاء بمسحة  
نور شاحب قد يكون انعكاسا لضوء الغرفة الجانبية التي على  
اليمين • كانت العربة قد توغلت بعيدا باتجاه الباب المفتوح ، وكان  
صوت حازم قد عاد لينطلق في جوف الليل المدلهم ، الا ان قعقة  
عجلات العربة كانت تغطي على بعض كلماته ، وكانت الريح تقتنص  
من فمه كلمات اخرى تسع بوضوح • • وكانت تلك  
الكلمات المبعثرة تتحدث عن • • الصمود • • والامل • • والايان  
بالمستقبل ! • • ومع انطباق ضلفتي الباب خلفهما لم يعد يسمع  
أيما شيء سوى خفيف الاوراق المتراقصة بين الغصون الخفية • •  
وكانت النافذتان اللتان على جانبي الباب تسطعان بحدة • • وبعد  
لحظات أضيئت النافذة الثالثة التي في أقصى اليسار ، ومن خلال  
المستطيل المضاء ظهرت جميلة وهي تتحني نحو حازم الذي رفع  
ذراعيه عاليا وتشبث بكتفيها • • وسمع أنين مفاصل العربة  
الصدئة ، وارتفع جسد حازم للاعلى فحجبت كتفاه العريضتان  
الضوء عن النافذة للحظات • • ومن ثم بدأ جسده بالهبوط ومعه  
سمعت قعقة سرير سرعان ما خمدت عندما اضطجع حازم ، وظهرت  
كتلة رأسه ، التي انصب الضوء عليها بحدة ، عند الزاوية السفلية  
اليسرى لمستطيل النافذة •

أولت جميلة ظهرها للنافذة وتوجهت نحو  
باب الغرفة المشرع ، فتلقفها الظلام .. دقيقة .. دقيقتان ..  
وسمع حفيف قدميها على الدرجات العليا للسلم .. لحظات ..  
وسطع مستطيل النافذة الرابعة ، وكان حازم قد رفع بوجهه  
متطلعا للأعلى ، نحو سقف غرفته .. وكانت النوافذ الأربع  
تسطع باصرار في جوف الليل الهاديء •

١٦-٥-١٩٧٦

٣-٣-١٩٧٧

تصميم الفلاف : عبدالصاحب الركابي  
التصميم الداخلي : خضير عباس اللامي  
الخطوط الداخلية : رضا الخطاط





رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد  
١١٤٢ لسنة ١٩٧٧

مكتبة مستقلة مستقلة  
١٩٩٧ - ١٩٧٧ م





الجمهورية العراقية  
مطبعة النجف  
بغداد

السعر: ٢٠٠ فلس

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلام

دار الحرية للطباعة  
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م